وثائق
تاريخ الأورطة المصرية السودانية
فى الكونغو الحرة

للدكتور

محمد رفعت رمضان

أستاذ التاريخ المساعد بجامعة القاهرة
فرع الخرطوم

يونية ١٩٦٣

مطبعة لجنة البيان العربى
٢٧ [illegible]
ت ٢٧٠٧٩

تصـــدير

منذ فجر التاريخ يقاس دور كل أمة من أمم العالم بآثارها وحضارتها وفنونها وعلومها والسودان كأمة من هذه الأمم له تاريخ حافل بهذه الآثار والعلوم والفنون غير أنه مشوب بشيء من الغموض لعدم الباحثين عنه وكل أمة لابد لابنائها من بعث تاريخها وحضارتها ونشرها بوعى وتوضيح للعالم أجمع ولهذه الأسباب اجتمع طلبة شعبة التاريخ بجامعة الازهر بدار السودان بالقاهرة فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٩٦٤ م وأسسوا جماعـــة باسم « جماعة بعث التاريخ السودانى » هدفها بعث التاريخ السودانى فى ثوب جديد وتحقيق وتمحيص ما كتب عن تاريخ السودان ونشره على نطاق واسع بإصدار كتيبات أو إقامة محاضرات أو ندوات أو وسائل :

وبدأت لجنة هذه الجماعة نشاطها لابراز أهداف هذه الجماعة بوضوح وجلاء للمثقفين السودانيين وغيرهما حتى التف حولها خيرة أبناء أمتنا العظيمة ومن بين هؤلاء المثابرين على العلم والمعرفة الاستاذ حسب الله محمد أحمد كما عرفناه فقد اتيحت لنا الفرصة بالتعرف عليه منذ عدة سنوات وبعد ان اشترك معنا فى لجنة هذه الجماعة قد كشف لنا عن سجاياه نوراً وضاءا وأدباً رائعاً حتى أحبه وأحترمه جميع أعضاء هذه الجماعة وكلهم يذكر نشاطه الجم فى ابراز وجه السودان القديم والحديث فى عدة مجالات فقد دأب الاستاذ حسب الله منذ عـــدة سنوات على الكتابة فى ميدانين هما التاريخ والأدب وقد القى عدة محاضرات بهذا الصدد وكتابه قصة الحضارة فى السودان دليل على نشاطه وثقته فى نفسه وحبه لوطنه . فقد تناول الكتاب فى مضمونه قصة الحضارة عن أقدم العصور من آثار وآداب وفنون وعلوم موضحاً معالمها الحقيقية من ٣٤٠٠ ق.م. إلى ١٩٠٠ م ويكفيه غبطة وفخرا بأنه أول من طرق باب الحضارة فى السودان ووضع فيها مؤلف خاص بها وها هو كتابه مبسوط للقراء حسبهم مطالعته للوقوف على مزاياه

والافادة من بحر علمه الواسع . وهو كتاب يفيد كل طالب وقارىء وباحث عن تاريخ الحضارة فى السودان . وجماعة بحث التاريخ إذ تشد يد على يد هذا الشاب المثابر النشط وتهنئة على هذا العمل الجليل الذى يعد مفخرة لكل سودانى يهمه تاريخ السودان وحضارته وتحث كل مواطن على اقتناء هذا المؤلف .

وفى الختام . هذه أول تجربة تخوضها هذه الجماعة بإصدار هذا المؤلف .

وكل تجربة لابد أن يكون فيها نقص أو خطأ ولذلك تأمل الجماعة من أساتذة الفكر والعلم والأدب فى السودان وغيرهم ابداء النصح والارشاد لهـا نحو الأمام قدماً لتخرج تاريخ السودان قديمه وحديثه فى ثوباً يليق به .

امضـــاء

جماعة بحث التاريخ السودانى

القاهرة فى ١٨ / ١١ / ١٩٦٦

﴿ مقدمـــة ﴾

كلمة للأصدقاء :

هذه الدراسة كانت التزاماً للأصدقاء أعضاء . عالم بعث التاريخ السودانى ضمن التزامات الأعضاء بدستور الجماعة بأحياء التراث السودانى وتقـــديم الدراسات السودانية فى هذا المجال .

وقد أخترت بعد حضورى للقاهرة أن أقدم للأصدقاء وللقراء دراسة يحتاج إليها كل قارىء ومثقف يود أن يلم بتاريخ الحركة الثقافية منذ أوائل القرن العشرين وذلك لكثرة الإراء والأخبار القصيرة عن هذه الفترة . وقد بدأت فى جمع مادة عن تاريخ الصحافة فى السودان فى عام ١٩٦٤ بمساعدة الأستاذ الكبير « شاطر البصيلى » وبمساعدة المسئولين بدار الكتب المصرية الذين سهلوا لى مشكورين كافة المراجع وأمدونى بالفهارس .

وقد وجدت بعد مسيرة أربعة أشهر فى تلك الدراسة التى يجب أن تكون امتدادا لتاريخ ثقافى واضح المعالم وجدت للأسف أن الدراسات التاريخيـــية السابقة لاتشبع حاجة المثقف لمعرفة تطور الحياة الثقافية فى السودان عبرالقرون ولذلك وجـــدت أن كتابتى عن تاريخ الثقافة أو الصحافة فى القرن العشرين هى دراسة عن نهاية تاريخ مفقود المعالم ..

وأخترت عبء مسئولية تاريخية وفكرية ووطنية وهى ان أحاول أن أقدم صورة عن تاريخ الحضارة السودانية وذلك بتتبع النشاط الإنسانى الذى مارسة

إنسان السودان من فنون وعلوم وأدآب وعمارة وعلاقات أجتماعية منذ أن وجد هذا الإنسان على هذه الأرض وتتبع رحلته عبر القرون حتى عرف الاستقرار وخط لحياته أنظمة أجتماعية مختلفة حسب ظروف معيشته وإمكانياته الإقتصادية وشارك فى الحضارة الانسانية والتقدم الإجتماعى والبشرى متمشياً مع الظروف الإقتصادية والإمكانيات الطبيعية والنظم الاجتماعية التى هى أساس كل تطور وتقدم وتوظيف تلك الامكانيات لأى مجموعة من مجموع الناس .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ فى هذه الدراسة وذلك بتتبع النظام الاقتصادى المجموعات التى عمرت أرض السودان وذلك أن النظام الاقتصادى هو الذى يوظف النشاط الانسانى ان كان فناً أو علماً أو إدارة .

وقد وجدت الدراسات التاريخية عن تاريخ السودان لاتستطيع أن تعطى صورة عن تاريخ النشاط الحضارى أن كان فيما يختص بتاريخ الحياة الأولى لانسان السودان أو فيما يختص بصورة المجتمع وملامحه وحركة الحياة اليومية والنظام الاجتماعى فيه ونشاط الانسان فى مجال العلوم والفنون .

وقد استعنت بالمفهوم المادى للتاريخ الوصول لبعض الحقائق كما قمت بدراسة المنطقة المحيطة بالسودان وتتبع النشاط الانسانى فيها والبحث فى تاريخها وما يربط السودان بها إذ توفرت لبلدان الشرق الأوسط دراسات طيبة فى جميع مجالات النشاط البشرى .

وقد استعنت بالدراسات التى تتبعت الحضارة الانسانية عامة والفرعونية فى مصر فى مجال العمارة والديانات والعلوم وعلاقة هذه الحضارة بحضارة السودان واتصال تلك الحضارة بحضارة الفرس والاغريق والرومان كما تتبعت تاريخ

الحضارة العربية وأثرها على شرق السودان قبل ظهور الاسلام ثم جعلت من الدراسات الافريقية التى ظهرت أساسا لافريقية السودان القديم وحاولت أن أجد الصورة القديمة التى عاشت بعيدة عن أثر الحضارة الفرعونية وحاولت أن أشير إلى الحضارة الافريقية بما فيها من عبادات وفنون ونظم اجتماعية ثم تابعت تاريخ المسيحية فى الشرق وفى وادى النيل والهضبة الحبشية من خلال نشاط المسيحية فى شمال النيل والهضبة الحبشية استطعت أن أتوصل إلى حال المسيحية فى السودان وما قدمته للسودان .

كما تتبعت كل نشاط المسيحية وفكرة الدير والكنيسة ثم الاديرة التى قامت على النيل وداخل السودان ثم فى النهاية ما أضافته هذه الديانة لحضارة الانسان السودانى وإلى الفرعونية والافريقية فى السودان وما هى الاضافات التى أعطتها لذلك التراث القديم .

أما عن العرب فلم أكتف بوجود العرب داخل السودان بل تتبعت حضارة الاسلام وأسباب نزوح العرب من الجزيرة العربية والعوامل التى دفعت بهم إلى داخل القارة الافريقية مع دراسة الحركة الاموية والعباسية والفاطمية وأثر هذه التيارات فى نزوح العرب إلى أفريقيا والسودان وأى هـذه التيارات كان له النصيب الاوفر فى طرد العرب من مواقعهم ودفعهم إلى أراضى جديدة مكرهين سياسياً .

ثم تابعت دخول الاسلام والعرب إلى السودان من كل الجهـات من الشمال والشرق والغرب وحاولت أن أرسم صورة الامتزاج والاختلاط الذى تم بين العرب وسكان السودان ثم دخول الاسلام إلى السودان وبأى صورة دخل الاسلام وعلى أى صورة استقر حتى ظـهور السلطنة السنارية وسلطنة

الفور ثم دراسة عن حال الثقافة والفكر فى عهد السلطنة السنارية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى .

كما أضفت إلى ذلك دراسة عن حال الثقافة العربية وتطورها فى السودان ونشأة الصوفية فى البلاد العربية وتاريخ وصولها إلى السودان مع مقارنة حال الصوفية بالسودان بالنسبة للصوفيه الاولى وتعاليمها وفكرها .

كما حاولت أن أتتبع الصراع بين الافريقية والفرعونية والمسيحية والعربية والاسلام داخل السودان حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

وخلال هذه الدراسة قدمت بعض النماذج للحضارة الفرعونية من عادات وفنون وعلوم مع محاولتى لتوسيع تاريخ الحضارة الفرعونية فى السودان لعصور لم تتطرق لها الدراسات التاريخية السودانية . ثم أعطيت كذلك بعض النماذج للحضارة الافريقية ودياناتها وعاداتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية وكذلك بعض الامثلة لحياة المسيحية من الانجيل والدراسات القبطية وتاريخ الكنيسة المصرية ورهبان وادى النطرون . ثم دراسة عن تاريخ الشعر العربى فى السودان . بجانب الحياة الاقتصادية ونظمها وأثرها فى هذا التاريخ الذى يمتد من ٣٤٠٠ ق م. إلى ١٩٠٠ م .

وأنا أعتذر للقراء والباحثين لقصر هذه الدراسة عن التوسع والتدقيق الكافى الذى يستلزم فى مثل هذه الدراسة وعذرى هو ضيق الامكانيات وعدم وجود الاستقرار الكافى حيث الالتزامات بالقاهرة لاتترك للفرد الذى يحيا بالنشاط الاجتماعى والفكرى أى طاقة لعمل آخر . وأملى أن تكون هذه الاعوام من الدراسة والتحقيق قد أرضيا الاصدقاء والباحثين فى محاولة لاكتشاف تاريخ الحياة فى السودان عبر القرون ..

آمل أن كانت هناك أخطاء أن يغفرها الاصدقاء ويكفيني حسن النية لاعطاء حياتنا الثقافية بعض المجهود الجاد وآمل منهم تنويرى للخطأ وأن كان هنـــاك أختلاف فى الرأى فأمل أن يكون أختلاف رأى مسموح به فى مجال الدراسات العلميـة .

ولأصدقائى من رابطة رواد الأدب الذين بحبهم أحببت الأدب والثقـافة أقدم هذا العطاء البسيط وللرفاق بجامعة بحث التاريخ السودانى بالقاهرة أقدم هذه المشاركة البسيطة علها تكون حافزا للرفاق والزملاء لاعطـاء الدراسات السودانية المزيد من الاهتمام والتضحيات .

حسب الله محمد أحمد

عضو لجنة جماعة بحث التاريخ السودانى بالقاهرة

وعضو لجنـــة رابطة روادالأدب بالسودان

وعضو اللجنة الخارجية لاتحاد الادباء السودانيين

السودان

أطلق اسم كوش وأثيوبيا فى العصور السابقة قبل الميلاد على الاراضى جنوب مصر وشرق أفريقيا ما بين خط عرض ٢٤و٩ وأم يعرف اسم النوبة المطلق على جنوب مصر وشمال السودان حتى العصر الرومانى .

يخترق النيل أرض السودان من الجنوب إلى الشمال ، وتتميز المنطقة الشمالية منه بالاراضى الصحراوية شرقاً وغرباً ويضيق بشاطىء النيل وتقل الاراضى الصالحة للزراعة وتحوطه سلسلة الجبال والصخور .

والأراضى الزراعية الخصبة على النيل تتسع قبل التقاء نهر النيل ونهـــر عطبرة حيث تخصب وتتسع كلما سرت جنوبا وتمتاز أراضى الجزيرة الواقعة بين النيل الازرق والنيل الأبيض بخصوبة أرضها ومساحاتها الكبيرة المتساوية وخلوها من الجبال والهضاب .

أما غرب النيل فتظهر فى شماله الاراضى الصحراوية وتظهر السافنا وتختفى كلما سرت إلى الجنوب . من أهم مناطقها منطقة جبل مره ووديانه حيث تزرع أنواع كثيرة من الحبوب والمحاصيل ، تربى الجمال والابقار فى اقليمى الغرب دارفور وكردفان . عمرته قبائل أفريقية قديمة اختلطت بالدماء العربية بعد ظهور الاسلام وانتشار العرب فى أفريقيا .

وجنوب السودان منطقة استوائية غزيرة الامطار والنباتات والادغال تسكنها قبائل أفريقية قديمة وأقدمها الشالك .

اصل سكان وادى النيل

الرأى المتفق عليه بين علماء الأجناس بأن زحف الإنسان الأول بـــدأ شمال الجزيرة العربية . . وتكاثرت البشرية . . وبدأ تضيق بالاقامة فى مجموعات وبدأ جو الخلافات والمشاحنات يسودهـا . . . ففضلت الترحال لاغيره باحثة عن أرض جديدة أو أرض منفصلة بكل مجموعة لتعيش فى سلام . . نزح منهم الحاميون لجنوب الجزيرة العربية . . ثم رحل جزء من الساميين إلى أفريقيا عن طريق مضيق قناة السويس . وذهب جنس لشمال الفرس فكون الجنس القوقازى كا تكون الجنس الادريانى من المجموعة السامية . . وإذا تتبعنا رحلة هذه المجموعات وكيف وصلت إلى أرض النيل فى زمن كانت فيه الأرض مغطاة بغابات والوحوش الضارية . ، وكان الإنسان ليس أقل من وحش ضارى . . قبل أن تظهر هذه الصحراء الأفريقية بشكلها الحالى الذى يكاد يخلو من نبات إلا فى بعد الواحات والوديان . . ولكن وجود بعض الأشجار بمجموعة (ACCACIA ARABICA) أشجار الصنذذات الأشواك والتى تعيش على ماء قليل يدل دلالة على أن الحياة كانت نامية فى هذه الصحراء والوديان .

وفى هذا الزمن الأول تظهر لنا اتجاهات المجموعات البشرية الأول فى زحفها إلى أفريقيا . . فمند القرن الإفريقى . . تدفقت المجموعات الأولى إلى هضبة الحبشة فى زمن ليس كزمننا ولا ظروف الحياة الآن . . إنما فى ظروف تشبه إلى حد كبير حياة الغابة ووحشيتها . . ما يدفعنا للتساؤل عن الدوافع الأصلية إلى نزوح هذه المجموعات إلى أرض أكثر وحشية من التى كانوا بها . . حيث يحاول الحيوان أن يرحل من الأرض التى يتقدم فيها الإنسان أو يرحل الانسان تاركا الأرض للوحش وهى لاشك دوافع قوية ربما يكون منها إضطهاد المجموعات

لبعضها البعض بفعل التكاثر أو بظهور زعامات جديدة تود أن تخلق لنفسها عالمها الخاص . . أو حول زعامات قديمة لاتستطيع أن تقاوم الزعامات الجديدة أو بفعل ظروف طبيعية . . أو بفعل تصورات غيبية تسيطر عليها أو كانت تعتقد فيها تدفعها البحث عن أرض أطيب من يعيشون بها :

ومن هذا يتبين لنا أن النقل فى تلك الأزمنة كان معناها الهروب من جحيم الإنسان المتوحش إلى جحيم الحيوان والطبيعة المتوحشة ودخلت تلك المجموعات إلى أرض أفريقيا .جزء سار إلى داخل القارة عن طريق هضاب الحبشة المتوحشة وجزء سار متابعا الشاطىء الشرقى لأفريقيا . . متوغلا إلى الداخل حتى كون فيما بعد السلالات الزنجية الحالية . . . ثم طال الزمن بالمجموعات الأخرى حتى تصل أو تجد مكانا تستقر به إلى أن هبطت من الهضبة الحبشية التى بطبيعتها أكثر وحشية من الوادى الذى يكون أرض السودان . ومن هذه المجموعات سكنت أول مجموعة على شاطىء البحر الأحمر مكونة سلالات البجا التى ظلت تحتفظ بشكل سكان وادى النيل والتى يزعم المؤرخون وعلماء الأجناس أن الفراعنة من سلالة واحدة مع هؤلاء البجة . . . لأوجه الشبه فى كثير من الصفات الطبيعية فى تركيب العظام والجمجمة خاصة .

ومن هـــذه الرحلة تدفقت المجموعات الغير مستقرة لتجد النيل مهدا صالحا للاستقرار للصفات الكثيرة التى توفر جو الاستقرار والإقامة . . كما جاءت بعض الجماعات السامية من شمال أفريقيا عن طريق قناة السويس بعد ما انتشرت على شمال أفريقيا . . . ولكن النيل كان أصلح تلك المناطق للاستقامة ولذلك سرعان ما كثرت به الجماعات واستقرت وعرفت أول معنى للاستقرار ومارست الزراعه بصفة طبيعية .. .. وبدأت الحياة البشرية تكون حياة بشريه لها معنى وطعم ومذاق .

وبدأ منذ ذلك الوقت مجتمع وادى النيل يتعقد وتظهر الزعامات وتكونت الطبقات الاجتماعية التى ظهرت بصورة سافرة فى عهـــد الفراعنة . . . وظهر المجتمع الطبقى من ملوك . . . ومساعديهم وجند وعبيد . . . وظهر الانسان الآله . . فى صورة فرعون مصر الأول ولكن مجتمع الطبقات لازال مجتمع الملوك والقواد والتجار والعبيد أو عبيد المملكة الفرعونية من فلاحـــين وبقية الشعب التى كانت بوضعها الاجتماعى والدينى هى خادمة الملك والمملكة .. ومن هذا التركيب الاجتماعى القائم على السادة والعبيد الذى قامت على أكتافه أول حضارة للانسان على أرض النيل من عمارة وطب وفن وعـــلوم امتدت من أرض الدلتا حتى وصلت إلى أرض الجزيرة وجنوب النيل الازرق بعد قيام مملكة مروى القديمة .

نظره على المجتمع الأول .

لنجعل تطور العلاقات الاجتماعية تطورا للفكر وتطور الحياة إذا تطور العقل وتتطور العلاقات حتى نستطيع من خلال تطور العلاقات أن نصل إلى آخر مراحل التطور التى وصل إليها مجتمعنا اليوم على أساس أنه فكريا أكثر تطورا من المجتمعات الأولى .

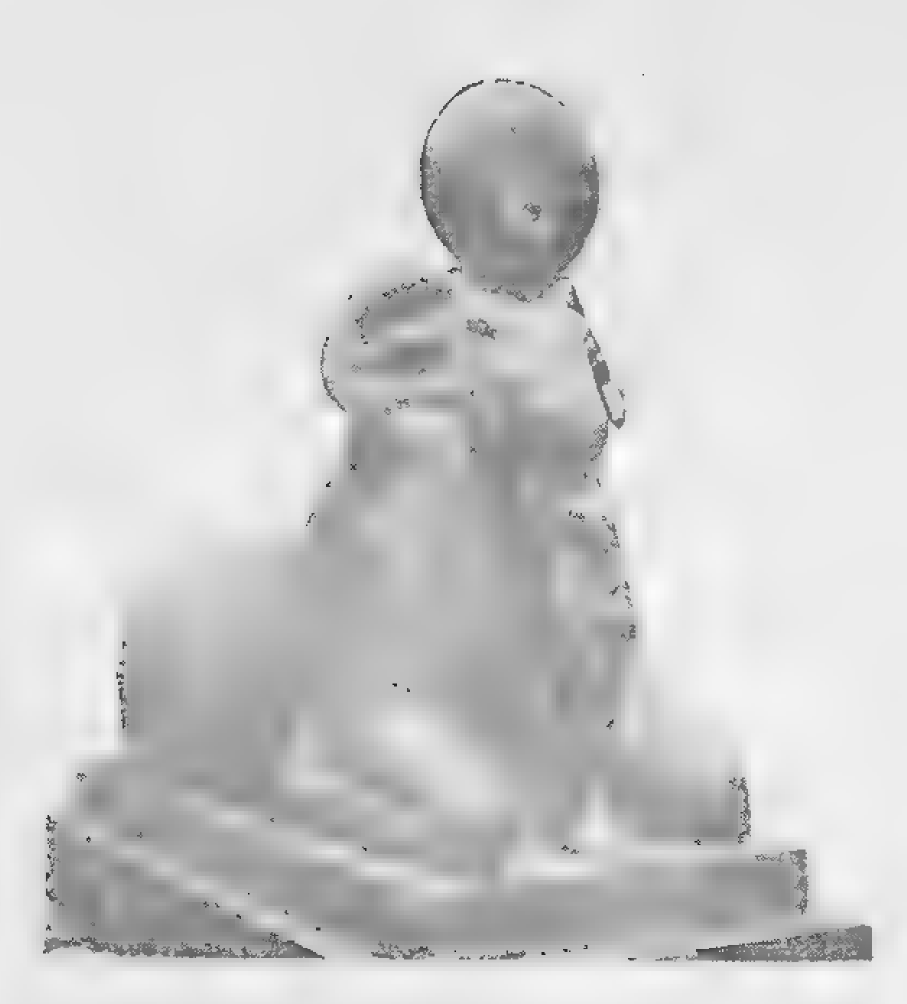
وإذا حاولنا أن نرسم صورة عامة للعلاقات فى المجتمع الأول الذى استوطن أرض النيل ومساحات السودان الشاسعة عينا أن نتذكر مناخـــه فى تلك الظروف الطبيعية التى مهدت لخلق مجتمع زراعى مستقر وظروف السهل مهدت لخلق الحياة البدوية ولحياة الرحل التى هى أكثر مشقة وأبعد بكثير من حياة الاستقرار التى فى ظلها يرتقى الفن وتتطور علاقات الناس .

إذا فالظروف الطبيعية خلقت لنا مجتمعين أحدهما مهدت له ليرتقى سلم

التطور خلال الاستقرار وآخر حرمته من هذا التطور ليعيش فى حياة التنقل والترحال ويباشر الطبيعة الام من غير لمسات الانسان المبدعة.

وإذ أردنا أن نتتبع هذه المجموعات سنجد سكان النيل عند البحر الابيض المتوسط إلى داخل أفريقيا حيث ينتهى النيل عند بحيرة فيكتوريا . . هـذا النيل كان معمورا بالحياة الانسانية حيث تختلف ظروف النيل وتمهيده لحياة الاستقرار . ففى الشمال مهدت الظروف بعد هروب الحيوانات المفترسة وسهولة الأرض لتمهيدها وصناعة العشش والمنازل مكن الانسان ان يستقر فى الشمال نسبة للظروف الطبيعية الخشنة التى وجدها الانسان فى أرض صالحة للزراعة بعيدة عن تجمعات الحيوانات المفترسة ولكن كلما مررنا للجنوب ظهرت الطبيعة الأكثر وحشية والحيوانات المفترسة حتى تدخل منطقة السدود بعد ملكال حيث تتغير الصورة وتصبح حياة النيل غير تلك فى الشمال وتصبح لا تختلف فى شىء عن حياة الغـابة إذا يصعب وجود سهل على ضفتيه بل أشجار غزيرة وحشائش كثيفة مهدت لتأخر تطور الانسان الذى سكن نيل الادغال فلم يفده النيل فى شىء ولم يقدم له أى مساعدة كما قدم للإنسان الأول الذى استوطن شمال النيل .

هذا تصورنا للحياة الطبيعية فى أرض السودان قبل مئات الآلاف من السنين بأن شكل اراضيه لم يكن كالآن . فأرض الجزيرة كانت عبارة عن مستنقعات والصحراء الكبرى التى تغطى نصف مساحة السودان وتـزحف كل يوم إلى إلى الجنوب لم تكن موجودة بهذه الصورة وانما التغيرات الطبيعية التى حدثت للكرة الأرضية هى التى مهدت لهذه الصحراء أن تمتد كل يوم إلى داخل القارة



تمثال أمنحوتب الثالث — بقايا آثار مملكة نبتة (القرن الثامن قبل الميلاد عند جبل البركل)



الطبيعة هي أساس الفن والعمران والتقدم . . . وقفت هذه الأشجار الملتحمة ضد قدرة الإنسان لتطويع الطبيعة لمنفعته والاستفادة من خيراتها في جنوب النيل .



انسان النيل فى جنوب السودان (افراد قبيلة الشلك) استغلوا خيرات الطبيعة فى اعالى النيل للسكن بدل الصلصال والحجاره لتناسب مناخ الجنوب

بحيرة نو والطبيعة الغنيـــة فى الجنوب كانت خيراتها للحيوانات
اكثر من الانسان

الصوفيه والديانيات الافريقيه

لاتنفصل الصوفيه الحقه عن الحركة العلميه بين المجموعات التى تنتشر بينهم فاذا إستطعنا أن نقتنع بأن الصوفيه هى حركة علميه فى بدايتها لتطوير علم التوحيد لاستطعنا أن ندرك أتجاهات أى حركة صوفيه ظهرت فى البلدان العربيه بعد معرفة نهضتها العلميه والثقافيه .

وأول سؤال نستطيع أن نسأله عن الحركة الصوفيه فى السودان ، علينا أن نسأل عن الحركة العلمية والثقافيه فى السودان وهل كان فى إمكانها إحتضان هده الحركة الصوفيه العلميه الاحتضان السليم والسير بها نحو الكمال أم إن الظروف العلميه والثقافيه كانت فى مستوى أدنى من إحتضان هده الحركة مما مهـد للانحراف فيها

يجب علينا أن نقيم الحركة الصوفيه فى السودان التقييم العلمى الصحيح لان هذه الحركة دخلت السودان منذ القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى وانتشرت فى السودان بشكل ملحوظ وكان لها أثر كبير على الجماعات والافراد ومازالت توجه حتى اليوم الكثير من افكارنا وثقافتنا ولها أثر كبير فى معتقداتنا وأخلاقنا وطبائعنا وتطلعاتنا . فأذا إستطعنا أن نقيم المجتمع السودانى حين دخـول الصوفيه وخط سير هده الصوفيه بالنسبه لظروف المجتمع الى وجدت نفسها فيه نستطيع أن نقتنع بأرتياح بمسيره هده الصوفيه ان كان نحو الكمال أو نحو الانحراف .

وإذا أردنا أن نبحث عن الظروف العلميه والنهضة الفكريه لن نستطيع

مغيرة على كل حى . . واقفة ضد حياة الحياه النباتية فى الصحراء . وبشكل الصحراء الحالى لم نستطيع أن نكتشف الحياة البشرية التى كانت فى كثير من السهول القديمة والتى تقطيها الأراضى الصحراوية اليوم كانت بها حياة بشرية وكانت بها مدنيه . هذا ماتخفية الرمال . . ولكن كثير من الدلائل و لآثار برهنت على أن هناك حضارات وحياة انسانية كانت فى هـــذه الصحارى بعيدة عن النيل . . . وأن الرمال قد دفنت هذه الآثار التى يصعب العثور عليها الآن حيث يصعب التنقيب فى مكان معين إلا إذا حفرنا كل الصحراء لتحدثنا عن اسرار الماضى . . . ولكن ما اكتشف على بعد كبير من النيل بقرب منطقة النوبة يدل على أن هناك حضارة وحياة بشرية كانت قائمة بعيدة عن النيل اندثرت بفعل الرمال المتحركة التى تستطيع أن تغطى قرية بحالها فى ليلة واحدة .

هذا بالتالى يجعلنا نسأل أو أو نتصور أن هناك تجمعات بشرية كانت فى هذه الصحراء خلاف التجمعت البشرية الموجودة الآن أو من بداية تاريخ حضارة النيل قبل ثلاثين قرنا قبل الميلاد .

ونحن نعرف أن تجمعات البحر الاحمر البجة الان كانت موجودة من قديم الزمان فى هذه البقعة ثم جاءت اليها مجموعات أخرى بتقدم الزمن .. ولكن هذا لا يمنعنا من تصور مجتمعات فى تلك الرمال التى قضت على حياة كثيرة كانت نامية من قبل .

وهذا لا يمنعنا أيضا من تصور مجموعات فى الغرب أتت عن طريق ليبيا ونحن نعرف حسب الحفريات الأخيرة بأن هنالك كثير من المدنيات قامت بعيدة عن النيل .. وإن العنصر الليبى لم تكن حدوده الاراضى الحالية . وربما بعض الاكتشافات التى تجرى الآن فى الصحراء غرب أرض النوبه وبنشر بعض التقارير الأولية التى أرسلتها البعثة السوفيتية أن هنالك حياة

بشرية ومدنية قامت بعيدة عن أرض النيل كان الرياح الرملية الأثر الأول لدثر تلك الحياة .. ونتصور حياة بشرية غرب النيـــل اندثرت أو هرب أصحابها للغرب وتوغلوا حتى غرب أفريقيا وعمروها بجملنا نعتـقد أن كثير من الهجرات والزحف داخل أفريقيا جاء من شمال أفريقيا وسهول النيل .

واذا أردنا أن نحصر السلالات البشرية التى سكنت أرض السودان بعد هذا التوضيح فنجد النوبة وهى القبائل السمراء التى سكنت النيل . أو (تنهانسو) أو (أثيوبيا) كما كانت تسمى سابقا .. اذا كان هذا الاسم يميز سكان جنوب النيل عن سكان مصر الافتح لونا . وما عـدا ذلك فهم نوبة أواثيوبيين . اذ النوبة فى الوقت الحاضر أرض صغيرة تمتد شمال حلفـــا الى أرض الكنوز وجنوبها الى أرض المحس — فى حين كانت كل هذه الاسماء الآن غير موجودة قديما فلم يكن فى الشمال قبائل محسية أو تنقلاوية أو شايقيـــة أو عبدلاب أوميرفاب أو جعلين أو بشاريين أو شكريه .. اذ كان اسم كل هذه المجموعات هو أثيوبيا .. هـــذا بالنسبة للتاريخ القديم والتسمية التى عثر عليها أهـــل التاريخ .. ولكن حقيقة هل كان كل سكان النيـل جنوب أرض النوبة الآن هم عنصر واحد ونحن نعرف أن الليبين كانت لهم غزوات هناك وكانت قبائل كثيرة تجاور النيـل كما أن سكان البحر الاحمر كانوا يزحفون على النيل .. ونحن نعنى من ذلك أن مجتمع القبلية والعصبية الذى عاش على أرض السودان لم يكن موجودا فى الفترات القديمة .

لم تزعفنا الآثار القديمة أو المخطوطات التى وجدت فى معرفة شـــكل المجتمع القديم .. لقد كان هنالك ملك أو من ينوب عنه فى المناطق الكبيرة .. ثم تتدرج السلطة حتى تصل الى مرتبة الشيخ الآن . ولكن هذا المجتمع الصغير الذى كان برأسه الشيخ هل كانت تربطه روح القبيلة أم روح السلطة والملكية اذ كان الشيخ هو أكثر مجموعته غناما وعبيداً وسلطة .. مجتمع صغير يقوم على الرهبة ولا يقوم على الولاء الطبيعى للقبيلة كما كان مفهوماً عند العرب .

هذا المجتمع الصغير الذى يرأسه الشيخ أو أغنى هذه المجموعة الصغيرة كان يكون الشكل العام للمجموعة كلها .. ويمثل هذا المجتمع الصغير كخادم لذلك الملك يعطيه كل الولاء والتقدير اذ يقوم الملك وأعوانه برعاية شئون العبادة وتوظيف الكهنة والاهتمام بهم .. وهذا ما كان يحتاجه الانسان ليملأ به حيرته وتساؤلاته فى الالتجاء الى شىء فوق قدرته .

ولكن بصورة عامة يمكن أن نتصور حياة هذه الحضارات الكبيرة التى عاشت على النيل خلال البحث عن العلاقات فيها ومن خلال هذه التجمعات الصغيرة التى تعطى السلطة للملك الذى هو سيد الكل والذى أحكامه لا اعتراض عليها من رؤساء المجموعات الصغيرة أو المجموعات الاكبر ومن أعوانه ومديرى شئون مملكته .

ومن هذا نستطيع أن نقول أن حياة الاثيوبيه وهو الذى سكن أرض النيل فى أرض النوبة الحالية حتى أرض الجزيرة حيث تمتد من هناك مجموعات أخرى ثم مجموعات البحر الأحمر البجة والمجموعات التى سكنت سهول النيل الازرق لم يعرف عن تاريخها القديم أى شىء حتى الآن ولكنها لا شك هى جزء من السلالات الحبشية التى امتزجت بالعناصر العربية أخيرا وتنقلت مع مجرى النيل الأزرق أو مع إنحدار الهضبة الحبشية .

• • •

تطور المجتمع الزراعى الاول

لو عدنا مع الزمن آلاف السنين بل قبل الميلاد ونظرنا إلى أرض السودان سنجد أرض النيل بها جماعات مستقرة تعيش فى مجموعات بخلاف المجموعات الأخرى التى تعيش فى السهول والوديان .

بما يعطيه المجتمع الزراعى من استقرار للفرد . . . وهذا الاستقرار يعنى استقراراً فى الحياة المعيشية فى المقام الأول وضمان وجودها بقرب الأرض ... هذا الاستقرار المعيشى سيوفر للفرد مجالا آخر التفكير والترويح والترفيه عن نفسه بعد مشقة العمل . . . كان الانسان مزارعا لم تكن الزراعة بشكلها الحالى بل ربما كانت الزراعة اليدوية هى أن يلتقط الحبة ويغطيها بالتراب ثم تتطور وبدأ يعمق لهذه الحبة بعد أن رأى الطيور تأكل الحبة والديدان تفسدها . . . ثم الأعشاب التى بدأت تنمو على الزراعة فتعوق نمو عودها وثمارها ، فكر فى إزالتها . . ثم رأى أن يده تتعب من حفر الأرض فبحث عن عود بدل يده . . . ثم بدأ يشكل هذا العود يستعمل رجله لأن الانحناءة تتعبه . . . ثم كثرة المجموعات فأصبحت الأرض المروية بسيطة . . . والنيل بعيداً عنها . . . فمكر فى الشاتوف فهذا كان آخر ما وصل إليه فى دنيا التطور والزراعة .

بعد أن صنع الشاتوف وصنع السلوكة ومحراث الخشب الذى يجره آخر ... وطورية الحطب . . والجاروف . . . ثم طور المحراث الانسانى إلى محراث تجره الحيوانات بأن ربط المحراث إلى الثور أو البقرة . . . وبذلك وفر جهـــداً جسمانيا عليه . . . فأصبح عنده شاتوفاً ومحراثاً . . . وطورية وسلوكه — هـــذه كل معدات الزراعة الأولية بعـــد تطور المجتمع وحتى وصل إلى حضارة الفراعنة .

ثم كانت الافات الزراعية الكثيرة منها الطير والزرزور والجراد وفرس البحر

كلما تفتك بزرعه الأمر الذى فرض على الانسان أن يفكر وان يبدع حتى يقاوم الطبيعة . . . فغرس البحر كان موجوداً على طول النيل . . . وخروجه بالليل يعنى إفساد مزروعته بكاملها وضـــياع المحصول على مالكه . . . فلابد للانسان أن يفكر للتخلص من هذا الوحش الذى لا يرحم بجهود الليالى والايام وتعب الزراعة والرى والنظافة . . . يأتى عليه فى ليلة واحدة . . . ففكر فى حفر حفرة عميقة يغطيها بالاغصان والاعشاب وعندما يأتى ليلا هذا الوحش يقع فى هذه الحفرة وبذلك يسهل قتله أو حرقه .

ثم كان أمر السكن فاستعمل الاغصان فلم تصلح فى هذا الطقس الجاف صيفاً وشتاءاً . . . ثم فكر فى بناء منزل من الطين ربما أخــــذت التجربة الأولى عشرات الاشكال وفشلت المحاولات الأولى أكثر من مرة لعدم وضع أساس للمنزل كلية أو بدرجه عميقة أو لعدم معرفه خلط الطين جيداً . . . أو لعدم معرفة عرض سمك كمية الطين . . . للطوف » — أو ربما لعدم اعطاء الطوف كمية كافية من الجفاف حتى يضع عليه الطوف الثانى — ثم كان أمر عرشه كيف يعرشه . . طبعا لم يفكر أن يضـــع عليه ساق شجره طويلة فى أول الأمر . . . عشرات المحاولات والتجارب حتى اهتدى إلى ساق شجرة طويل ثم تغطيتة بالأغصان والأعشاب والطين . . وهـذه المنازل الطينية على النيل الآن هى خبرات عشرات الآلاف من السنين بدأها الأولون ثم يضيف إليها كل جيل بعض التعديلات . . . وربما لم تكن بها نوافذ فى بداية الأمر لأنه لم يعرف كيف يصنع النوافذ ويضع لها أخشاباً من فوق ويقطع الطينه وهى ليه . . وربما كان الاولون يفتحون النوافذ بفتح ثقب بأى آلة واى وسيلة .

ثم تطور الزمن فعرف أن ساق الشجرة ربما سقط عليه وضره . . ولذلك فكر فى وجود آخر يضعه تحته . . هذه الاضافات انتلاشت بمرور الزمن . . فلزمن طويل لم تكن هنا لك أبواب كالتى نعرفها اليوم فالنجارة لم يتفرغ ،

إليها أحد كما أن آلات النجارة لم تكن معروفة والحديد لم يكن بالوفرة اليوم اصنع المناشير والفارات وخلافه من أدوات النجارة .

لو حاولنا البحث عن شكل العلاقات بين هذه الجماعات التى سكنت النيل وملأت ضفافه كيف كانت فى البداية . . لاشك أنها لم تتمركز فى نقطة واحدة ثم انتشرت شمالا وجنوب . . بل كل مجموعة . . سكنت بعيدة عن الأخرى لا نعرف عنها شيئا فى بداية الأمر . . ثم كان أمر هـــذه الجماعات الصغيرة المنعزلة فى البداية لاشك ستختلف بينهما بعض الخلافات . . . وتضع لها قوانين ففيها الكسلان . . . وفيها الأحمق . . . وفيها العاقل . . . وفيها كل ضعف البشرية هـــذه الجماعات كان لابد من وجود مدير بينها ليحكم فى علاقاتها . . . ربما فى البداية شخصيته وشجاعته وقوته هى التى فرضت نفسها على المجموعة . وبذلك أصبح مهابا من المجموعة لأنها تحتاج إليه لحمايتها من الأشرار من أقرانها .. ربما يظهر زعيم آخر له نفس القوة فيحدث القتال بين الاثنين فيفرض القوى سيطرته ومشورته على الاخرين .. ومن خلال هـــذه التجارب أدرك الإنسان حوجته لزعيم .. ومن هذه الحوجة كان الزعيم .. وتطور الحال وأصبحت هذه الزعامة وراثية بعد سيطرة فرد وأسرته على كل مشاغب ومغامر.. ومحاولتها لحفظ النظام والأمن للمجموعة .. الأمر الذى جعل للمجموعة أن تترك لها هذا العبء الثقيل وتتولى مصادمة الشر والخارجين عن النظام .. ثم كان أمر هذه الأسرة المسيطرة بعد عشرات السنين .. بعد أن تمكنت من فرض السيطرة على المجموعة . . وشعورها أن المجموعة ترهبها . وإنها تقدم خدمات المجموعة . . فلا بد من أن تقدم هذه المجموعة مقابل هذه الخدمات . . . ربما تتولى المجموعة المساعدة فى زراعة حقول هذه الأسرة .. وحصدها .. أودفع شىء من حصادها لهذة الأسرة التى بدأت تأخذ صفة الاسرة المالكة أو زعيم القبيلة أو المجموعة . . وظهرت الضريبة على المجموعة فى شكل خدمات أو عطاء

فى بداية الأمر .. واستمر الحال عند هذه المجموعة الصغيرة حتى قويت الأسرة المتزعمة .. وبدأت تفرض شروطها وآراءها على الجماعات .

وبشكل هذه المجموعة تكونت على النيل أعداد هائلة من المجموعات ... ولكثرة سكانه . وانتشارهم على النيل ولبحث على ضفافه عرفوا أن هنالك مجموعات تعيش بالقرب منهم وبدأت الغارات بين هذه المجموعات فى شكل سرقات بسيطة من أفراد ضالين مطرودين أو من الجماعات نفسها ... أو زعيمها ... إذا رأى عند الجماعة الأخرى خيرا أكثر ... وبدأت هذه المجموعات فى الاحتكاك ببعضها ونهب بعضها .. وبذلك أصبحت شخصية الزعيم أكثر ضرورة لتنظيم الدفاع والهجوم وتعويض الأسر المــكلومة أو المنهوبة .

وظهرت مجموعة كبيرة بين هذه المجموعات شعرت إنها بعد هذا الاحتكاك.. وعندها لمعظم هذه الجماعات أن تفرض سيطرتها على المجموعات الأخرى بالقوة . بعد أن أخضعت المجموعات القريبة منها استغلتها لاخضاع لمجموعات الاخرى وبذلك ظهر مجتمع الدولة الأول على النيل يحكم زعيم أكبر مجموعة ... يساعده فى إدارة مملكته زعماء المجموعات الأخرى .. وأصبح يطالب هؤلاء الزعماء ببعض الضرائب لحاجته للمال لإدارة شئون رعيته وتكوين جيش وصنع سلاح . للتفرغ لهذا العمل الجديد .. وبالتالى .. لم يرى زعماء الجماعات غير رعاياهم ليتحصلوا منهم هذه الضريبة . وأصبح هؤلاء الزعماء فى مركز أقوى بالنسبة لجماعتهم .. وذلك لمساندة الملك لهم . وأنهم أصبحوا يمثلون الملك .. وماكان على الجماعة المغلوبة التى تحارب الطبيعة فى آفاتها وحشراتها وطيورها من الخضوع لهذا التنظيم الجديد الذى يعيش على ماتبقى لهم من آفات الطبيعة . فقدكانوا يساعدون الزعيم .. فأصبحوا يساعدون الزعيم والملك .. وأعوان الزعيم وحراسة .

وبهذا الشكل تكون شكل الدولة الاول . . . وظهرت الملكية فى مناطق متعددة من النيل . . أصبحت كل مملكة تترقب المملكة الأخرى . فقد كانت التجربة الأولى هو تغلب مجموعة كبيرة على مجموعات صغيرة . . والاستعانة بها فى التغلب على المجموعات الأخرى ولكن التجربة الجديدة هى الشعور أو المعرفة بوجود مجموعات متحدة فى شكل مملكة .. وبدأ الاعتداء الأول فى محاولة أحدى الممالك فى السيطرة على مجموعه من مجموعات المملكة الأخرى .. وربما تخضع المملكة لتى أخذ منها جزء من مجموعاتها لضعفها .. فلو سكنت فيعنى ذات أن المملكة التى فازت على الأولى ستحاول أن تفرض سيطرتها على المجموعات التالية حتى تأتى على مجموعة الملك نفسه . . وإذا لم ترضى المملكة المجاورة بالتجربة الأولى فستكون الحرب . وربما يكون هناك صلح أو ربما لايكون وفى النهاية هو إخضاع مملكة لأخرى ..

وبهذا الشكل تتوسع المملكة .. ويصبح الملك المهزوم مندوب الملك الغالب أو ربما يعين خلافة أو أحد أفراد مملكته . . وبالضرورة أصبح لهذا الملك جيشه ونظام إدارة مملكته التى توسعت .. وبهذا الشكل قامت على النيل ممالكات مختلفة .. هـــذا بالنسبة للمجموعات التى فى أرض السودان . . أما المجموعات التى فى أرض مصر . . فيبدو أنها كانت أقوى من مجموعات السودان وظهور الملكية فى مرحلة أبعد من مرحلة السودان .. وربما أقوى .. ولذلك زحفت سيطرة مصر على مجموعات السودان .. وفرضت عليها سيطرتها . . وديانتها . . وأصبحت هذه الممالك السودانية تابعة للمملكة المصرية الفرعونة بعد قرون طويلة من النضال والبحث عن بعض .

ونحن لانستطيع أن نتحدث عن حال المجموعات التى حكمها المصريون لأن الوثائق القديمة غير كافية حتى الآن ولكن مايهمنا الآن هو بداية استقلال المملكة السودانية عن المملكة الفرعونية .. وتزعم هذه المملكة القوية

على ممالك السودان . . . وفرض سيطرتها حتى على مصر .. ومحاولتها طرد أعداء مصر من الليبيين وقبائل أرض فلسطين والقبائل الآتية من الشمال وذلك منذ القرن الثامن قبل الميلاد .

وقبـــل البحث عن تطور هـــذه المجموعات الحضارى والثقافى حتى القرن العشرين نود أن نعـــود مرة أخرى إلى المجموعات الأخرى التى تسكن بعيداً عن النيل حتى نـــكمل صورة المجموعات التى كانت تمـــلأ أرض السودان الحالى .

* * *

مجموعات السهل

يذكر التاريخ الحديث لنا أسماء قبائل عديدة تسكن السهول شرق النيل وأخرى غرب النيل وأخرى جنوب النيل .

هذه المجموعات التى تسكن الشرق الان مثل العبابدة والرشايد والشكرية وبنى عامر والامرار والبطاحين وكلها أسماء حديثة وعربية وهى أسماء أتت بعد الإسلام .. فقد كانت هذه القبائل المهاجرة التى استوطنت أرض السودان والنصف الشمالى من أفريقيا هى أول من سكن هذه السهول والوديان والأنهار أم كانت هناك مجموعات قبلها . . وهل كانت هذه المجموعات رعوية أيضا .

عرفنا قديما بأن أرض السودان لم تسكنه المجموعات النيلية وحدها . بل هناك مجموعة أخرى على ضفاف البحر الأحمر .. وهى البجة .. ولكن لو حاولنا أن نبحث عن بداية حياة هذه المجموعات هل كانت رعوية . وهل محاولة رعاية الحيوانات تأتى بدون مقدمات وتأليف هذه الحيوانات وكيف ألفت .. وأين كان أصل هذه المجموعات .

بدأت لاشك هـــذه المجموعات بالزراعة على الانهر الكثيرة الساقطة من الجبال والوديان تحت الهضبة الحبشية وجبال البحر الأحمر .. وبدأت الإنسان يدرك هل أسهل تأليف الماعز أو الاسد أم الحمار فوجد أن الماعز أفضل لأنها تحتاج للعشب فى حــــين يحتاج الأسد للحم . . لحمه أو لحم الماعز . . ولذلك فضل الانسان تأليف الحيوانات التى يمكن أن ترعى .. ويأتى لها بالعشب فى مكانها فى البداية حتى ألفت عليه .. وتوالدت وكثرت .. وبذلك بدأ الإنسان يبحث عن مرعى لماشيته التى كثرت وأصبحت تعطيه اللحم واللبن والشحم

وتحمله . وتنقله . . حتى توسع فى الاستفادة منها فى المقايضة بها فى مقابل حاجياته الأخرى كالملابس والملح وخلافه .

عرفت السهول السودانية الجمل منذ قديم الزمان قبل الإسلام والمسيحية . . وكانت هناك مجموعات تعيش على زراعة الوديان والأنهار ورعى الماشية . هذه المجموعات كانت أكثر شراسه من سكان النيل ولذلك لما تعرضه الحياة المدنية والعشرة مع مجموعات على تلطيف طباع الإنسان .. ووجوده فى مكان دائم يجعله يفكر باستمرار لتحسين أحواله وأدواته .. أما ذلك الراعى فلا أنيس له الا تجمع أسرته فى الليل .. وماشيته طول النهار لاهم له إلا البحث عن مكان أخضر .. وصيد الحيوانات المفترسة عنها فقد عرفت هذه السهول كل الحيوانات المفترسة والاليفه كما أن هذا الراعى لا يحتاج لأدوات كثيرة ليستعملها أو لمسكن دائم يفكر فى تحسينه .. فالماشية تعطيه وبرها وجلده ليصنع منه منزله المتنقل ونعله .. وأناه لبنه ومائه .

قد عرفت الأبل من قديم لزمن وربما الأبل التى استعملها الفراعنة أخذت من هذه المجموعات التى ترعى شرق النيل وضفاف البحر الأحمر

ولكن كيف تكونت هذه المجموعات وما هى القوانين التى سارت عليها فى رقيها وتطورها .. لاشك أن تجمع هذه المجموعات فى مجموعات كبيرة لايختلف فى شكله عن المجموعات النيلية وحوجتها لهذا التجمع حتى أضاع بفرديتها .. فكانت المجموعات أسر صغيرة كبرت .. وأصبح لها زعيم تحتكم إليه . ولا شك أن لأكبر القوم بين هذه المجموعات كانت له فائدة أكبر ليعرف تاريخ الماشية . وطباع الناس .. وأصبح للشيخ بين هذه المجموعات تقدير خاص لانه يستطيع أن يكشف تاريخ كل فرد وممتلكاته .. فلا يستطيع أحد أن يستولى على حق آخر مدعيا ملكيته .. لأن هناك رجل عجوز يعرف حق كل فرد .. ولم يكن لهذا الشيخ من الجماعة أى ولاغير الطاعة وسماع الأمر .. وكانت تخرج هذه المجموعات فى زمن الصيف باحثة من مرعى . فكانت تلتقى فى الوديان

بمجموعة أخرى تشاركها نفس المرعى .. وربما تتعصب صاحبة الحق الأول فى المرعى فى طرد الأخرى أو ربما ترى صاحبة العدد الأكبر طرد الضعيفة .. ولذلك كانت حياة هذه المجموعة محوقة دائماً بجو القتال .. بالعصى والحجارة والسيوف أخيراً والتى تفننوا فى صنعها وتشكيلها كالخنجر .. ثم السكين .. والحراب .. وهذه أكثر الأدوات تطوراً التى استعملتها الجماعة الرحل فهى لم ترى البندقية إلا بعد الفتح التركى والتى كانت تملكها قبل ذلك هم الزعماء للارهاب فقط أما بقية الجماعات فقد كانت تخاف منها وترهبها ويفزعها منظرها .

بتجاور القبائل الرعوية . والصداقات التى كان يعقدها شـيوخ القبيلة والزواج من مجموعة مع مجموعة أخرى لتوثيق هذه الروابط . جعل الكثير من المجموعات الصغيرة لتكون مجموعات كبيرة .. كان لشيخ القبيـلة أو زعيمها الرأى والحكم النهائى فى كل خلاف .

لم يكن لهذه المجموعات عمل يملأ فراغها ويتمـلك قواها كالمزارعين . ولذلك فكرت فى ألعاب الفروسية والمبارزة والصيد والقتـال والسباق .. وتطورت فى فن هذه اللعبات الفروسية ولكنها لم تحاول غير ذلك الا بعد زمن طويل ودخول مجموعات جديدة تحمل حضارة جديدة ورأت أشـياء جديدة أو سمعت بها .

هذه الألعاب الوحشية زادت من طباع البدو وحشية فالقتال وعشقه هو الرجوع بالانسان لحياته البدائية .. فالانسان فى تطوره يتخلص من حيـاته الوحشية والبدائية الأولى .. والفروسية وقتل الاخرين ما هى الا أشـباع للاخلاق البدائية .. والتمتع والتباهى بقتل انسـان من أجل الرياضة لا يعد تطوراً مهما كانت الصفات الرجوليه الذى تطلق عليه .. فالرجولة ليست فى خلق مباراة لقتل انسان آخر انما الرجولة فى تقديم الأعمـال الكبيرة للاخرين

ومساعدة الغير ونكران الذات والتحلي بالأخلاق السمحة النبيلة .. أما الدعوة لاراقة الدماء فليست صفة من صفات الانسان المتمدن .. وابقاء هذه الصفات بين العرب الرحل أسباب كثيرة منها عدم حياة الاستقرار لتهدئة وحشية الانسان .. وعدم اختلاطه بانماط من الناس يختلفون عنه فى تفكيره وعاداته ليقتبس منهم . فكل الذين يعيش بينهم ويعاشرهم هم عرب رحل .. كلما أظهروا غلظة أبدى غلظة أكثر منهم وكلما أبدوا لينا ظن ذلك جبنا .. فحتى الحلم لا ينفع فى البادية . فالحليم جبان .. والذى يكره قتل انسان من أجل نعرة قبلية يعد جبانا . وكل من يكره القتال وألعاب الفروسية ليس برحل .. ولذلك حكموا بالتقاليد على مجتمعهم أن يعيش فى جو من القيم البدائية التى تحبذ القتل . وتقف حتى الان ضد رقى الانسان وتطويع طبائعه الوحشية لأن الخروج من هذه الوحشية يعد عيبا وانحدارا بالرجولة لا تطويرا للانسان الحديث فى أفكاره ومشاعره وأخلاقه وعاداته ومعاملاته .

كانت طبيعة الارض عنصرا مساعدا على انتشار الوعى وحياة البدو فالسهول الشرقية الغنية بالأعشاب والوديان والأشجار والنباتات المختلفة طيلة أيام السنة ساعدت مجموعات السهول الشرقية فى السودان أن يحترفوا مهنة رعى الماشية والابل .. بل أضاف أجدادهم مهنة الزراعة البسيطة ببذر الذرة على ضفاف الأنهار دون مجهود ليجد الطبيعة تكملت بنمو هذه الحبوب . . حيث لم يفكر هذا المتنقل فى صنع آلات زراعية تعيق من تنقله وتثقل عليه حمولته أثناء زمن الصيف والتجوال والبحث عن مرعى جديد .

تكاثرت هذه المجموعات فى عشرات الآلاف من السنين قبل الميلاد على السهول الشرقية .. وحيث كثرة التنقل وعدم الاستقرار لم يخضعا لنظام دولة لها نظامها الثابت وادارتها المركزية .. وهذا التنقل كان حائلا دون قيام دولة مركزية لهؤلاء الرحل حيث تحتاج الدولة لمكان دائم ..واستقرار ورعايا

لهم أماكن محدودة أما هؤلاء .. فيصعب التحكم فيهم ومعرفة أماكنهم فتارة هم فى الشرق على جبال البحر الأحمر وتارة قرب النيل أو نهر عطبرة أو الشمال داخل أراضى مصر ولذلك نشأ عندهم حكم يساير هذه الظروف هو حكم القبيلة وزعيمها الذى تخضع له القبيلة حيث يرحل معها يحتكم اليه أفرادها فى حقوقهم .. ويتزعمهم فى حالة الاعتداء على أحد منهم أو الاعتداء على القبيلة أو ماشيتها .. وكان يجب أن يكون هذا الزعيم صاحب حكمة وشجاعة وقوة ترهب كل مشاغب وتردع كل خارج على قانون القبيلة والجماعة .

كما أن طبيعة الأرض الموحشة أو تلالها الصخرية .. وأشجارها الشوكية وحيواناتها المتوحشة والمفترسة المتعددة — التى تحيط بحياة هذا البدوى جعلته يعيش فى حالة موحشة وطبائع أقرب الى طباع الحيوان المفترس .

أما جنوب ملتقى النيلين الأبيض والأزرق فقد كانت تسكن هنالك القبائل الزنجية فى طبيعة محاطة بالاشجار المتعددة .. والأمطار الغزيرة — والنباتات الكثيفة التى تغطى السهول وضفاف النيل كما تعيش الحيوانات المفترسة بكثرة أكثر من الشمال مما حمت المجموعات أن تفكر فى تفكيرها وصنع أسلحة لقتل هذه الحيوانات أو لايجاد مساكن لا تقترب منها هذه الحيوانات .. والاعشاب التى كان يحوطها سور من الشوك الكثيف لا شك كانت منازل هذه المجموعات حيث يصعب على الحيوانات المفترسة ليلا أن تقتحم هذه الاشواك الكثيفة .

* * *

الحضارة قبل القرن الثالث الميلادى

الحضارة هذا التاريخ المجيد . وهذه الآثار الرائعة وتلك النهضة التى قامت على أرض النيل والفرات والبحر الأبيض المتوسط . هـــذا الماضى العظيم للانسان قام على أكتاف العبيد والفلاحين والعمال .

إستنفذ المجتمع القديم طاقات هـــذه الطبقات من الفن والعمارة ومن أجل هذه الآثار الرائعة التى قامت على أيادى البوساء والمنبوذين . . كانوا هم مصدر الدخل وهم المواهب التى تعمل . . كان المجتمع القديم يختلف فى استغلاله لطاقات هذه الطبقات عن المجتمع الرأسمالى أو الملكى الحديث الذى يدخر خيرات هذه الطبقات لمنفعته الشخصية لملذات الدنيا . . على أن يعيش هو فى مستوى معيشى من المتع والكماليات وتعيش الطبقات الأخرى صـــانعة الانتاج محرومة من معظم الضروريات . . فى حين تكدس خيراته معطلة أو تستغل لاستغلال مجموعات أخرى . . أما المجتمع القديم فان لم يختلف فى تركيبه عن مجتمع العبودية والطبقات اليوم فى كثير من الصور والتفاصــــيل إلا أنه اكتشف الفن . . هذا التراث الذى نقف حياله اليوم مبهورين مقدرين نبوغ الاقدمين ومواهبهم . . اكتشف المجتمع القديم الفن عن طريق العبادات . . فقد ولع بتقديس الآلهة التى اخترعها .

ومبالغة فى تقديسها سخر المجتمع القديم كل طاقات المجتمع لتخليد هذه الآلهة . . وكان هذا التخليد وسيلته الفن . . مجتمع عاش على السيادة . . سيادة الملكية والمعابد وكهنة المعابد والطبقة الممتازة لخدمة الملكية والمعابد . . أم بقية خلق الله فقد كان نفاية ، وخادم لاسعاد هذه الطبقات .

إنسان من نوع آخر ليس من فصيلة هذه الطبقات التي تسيطر على مقاليد الحكم والمعابد .. كان هنالك العبيد في كل من حضارة الفراعنة أو الرومان والاغريق أو الآشوريين .. وكان هنالك الفلاحين الغلابة المساكين وكان هنالك العمال أساس الانتاج والابداع .. لأن الأقدمين وخاصة الاغريق عدوا أهل الحرف من أهل الفن منهم النجارين والحوذية والبنائين وكل الفعلة .. وهي نظرية سليمة لأن كل عمل يدوي كان يحتاج لروح فنية حتى يصبح عملا مقبولا ترتاح النفس إلى استعماله ومعاشرته .

هذا هو وضع الحضارة التي قامت في العصور القديمة والتي تعدها البشرية اليوم بعصور الابداع وعصور النبوغ الانساني .

هذا هو أصل تلك الحضارات قام على اكتاف العبيد وحصاد الفلاحين وإنتاج وابداع العمال . وعاشت الطبقات العليا في القصور والمعابد تخطط لهذه الطاقات الانسانية وتقسوا عليها .. حتى بنت الأهرامات والمعابد والقصور التي تقف اليوم أمامها إجلالا وتقديسآ .

جلب العمال من شتى أنحاء البلاد بلا رغبة أو أجر وسيق الفلاحون بالألوف لنقل الأحجار وتكسيرها .. وأرسل عشرات الآلاف للبحث عن الذهب ونقل خيرات الطبيعة إلى القصور والمعابد لتجميلها وتذويقها بأيدي هذه الطبقات المنبوذة .

هي تخلق الفن .. يقبل الفن .. وهي ترفض ..

تشهد هذه الأيادي الهزيلة المريضة بالانيمياء ولعرق تلك القصور والمعابد والتماثيل ..

وتبقى التماثيل لتعيش حضارة الفراعنة .. وتذهب الملايين صحية لتلك الحضارة التى قامت على أسوأ صورة من صور الاستغلال .. والاضطهاد .. والتسخير ..

وكما جلب الفلاح والعامل المصرى جلب الفلاح والعامل السودانى وكما سخر الموطن المصرى كعبد سخر المواطن السودانى كعبد لذلك النظام .. القائم على تحالف البلاط الفرعونى وكهنة المعابد ..

وقد أخذ الفلاح السودانى من أرضه مثل الفلاح المصرى قسرا إلى مواطن العمل عاملا أو عبداً بلا أجر أو رعاية إنسانية تقابل هذا المجهود الذى يبذله لارضاء طموح البلاط الفرعونى وأفكار رجال المعابد والحاشية ..

وقد أخذ هؤلاء المساكين لا عن طريق التطوع أو التجنيد ولكن عن طريق جنود الملك ، سيقوا كعبيد لا عن طريق الشراء أو البيع ولكن عن طريق وضع اليد .. أى عدد تغير عليه شلة من الجنود المستعبدين تستولى عليه لينضم إلى عبوديتهم وربما خرج منهم عبد مبرز فى فنون القتال .. وعاد رسولا يقيد أبناء طبقته عبيداً حسب الأوامر الصادرة إليه من البلاط أو الكهنة تحت ذلك النظام وتلك الحضارة التى قامت على النيـــل والتى أولعت بالمعابد والمقابر والقصـــور والتى يعجز دخلها على الانفاق على تلك المشاريـع الفنيه الضخمة ..

كان لابد من السخرة والتسخير .. كان لابد من إيجاد عدد هائل من العمال المهرة وغير المهرة من أرض النيـــل ليعملوا على تشييد مئات المعابد والقصور والأهرامات التى قامت على النيل .. وبذلك وربما لأول مرة فى التاريخ تنشط حركة العمل بتلك الصورة .. ولكنه عمل بلا أجر عمل السخرة ..

الأمادات والممالك الصغيرة حتى جاء زمن أصـــبح الجنوب أكثر غناءاً من الشمال الذى يستهلك طاقات البشر فى البناء والتشييد بروح السخرة وفقد الايدى العاملة فى الزراعة من اجل المعابد والقصور وصار اقتصاده يعتمد كلية على خيرات الجنوب الذى صرفت فيه نفقات البناء والتشييد بأقل قدر من النفقات وقامت فيه عشرات المعابد والقصور ولكن بتكاليف أقل من فى الشمال وهنا الفرع وهناك الأصل .

وحين جاء القرن الثامن قبل الميلاد كانت أرض النوبة والبركل وجنوبها قد دبت فيهما الحياة ونشطت فيهما الحركة والعمل واستغلت الأيدى العاملة البشرية أقصى استغلال لأنتاج أكبر قدر من العمل البشرى . . وكان لابد لجنوب المملكة الذى أصبح اقتصاد الدولة الأم يعيش عليه عيشة كاملة ويطالبه كل يوم بالمزيد .. بالمزيد .. حتى جاء اليوم الطبيعى فى أن يعجز إقتصاد الجنوب ويعلن التمرد . .

وإذا بالجنوب فعلا يعلن التمرد وتظهر أول دولة وصلنا من المعلومات مايكشف لنا عن شكلها وقوتها وتركت لنا من الآثار مايكشف لنا عن نشأتها وتوسعها وتكوينها وهى دولة نبتة التى ظهرت فى القرن الثامن قبل الميلاد .

بظهور ملك نبته (البركل الآن) وقد امتلأت خزائنه وقوى جيشه وأصبح فى وضع يسمح له أن ينفصل من الأمبراطورية الأم التى ساءت حالتها الاقتصادية ودب الضعف فيها وأصبحت لاتجد من الموارد مايعيد لها شبابها وقوتها الأولى وأصبحت قوتها فى هـــذه الاجنحة التى رفعت عصا العصيان بعد أن أصبح استغلالها أمراً مستحيلا .

هـــذا القانون واضح فى كل الحضارات والنهضات التى قامت بها الدول

والمجموعات خلال تاريخها الطويل.. فلو بحثنا عن سبب نهضة الأغريق أو الرومان فى يد حفنة من التجارة والبيوت وكانت التجارة والبحر هى عصب اقتصاد و انتعاش حياة تلك الحضارة وكذلك الحال عند الاشوريين فقد وجدوا خيرات نهرى دجلة والفرات فأستغلوا خيرات هذه الأراضى الخصبه وماجاورها حتى أمتلأت خزائن تلك الحضارة ..

ثم جاء وقت إستنفذت فية تلك الحضارات كل طاقات هـــذا العمل التجارى وهذا الاستغلال الطبيعى القائم عن سيادة طبقة أو مجموعة من السادة على العبيد والفلاحين والعمال . . وحين لم تجـــد تلك الحضارات روافد جديدة لتغذية إقتصادها وقف نمو حضارتها التى هى فى حقيقتها مشاريع غير إنتاجية لاتأتى بدخل أو عائد . . والصرف عليها كان يجب أن يقوم فى تلك العصور على ذلك النوع من الاستغلال والسخرة .. وهذا ماحدث فى أرض النيل . وسنرى ذلك فى تاريخ الاسرات بشىء من الإيجاز معتمدين على دراسات الحضارة المصريه ومنقولات المتحف المصرى للاثار ومجموعة الكتب التى لخصت هذه الفترة من تاريخ السودان القديم بتاريخ الاسرات .

وهى المجموعة (١) (أ) من عام ٣٤٠٠ ق . م إلى عام ٢٧٢٠ ق . م

المجموعة (ب) من عام ٢٧٢٠ ق . م إلى ٢٣٢٠ ق . م

المجموعة (جـ) من عام ٢٣٢٠ ق . م إلى ١٦٠٠ ق . م

(٢) حضارة كرمة

(٣) دولة كوش القرن الثامن ق . م ٨٠٠ — إلى ٣٥٠ ميلادية .

ثم بعد ذلك انتهت الممالك الفرعونية بعد عام ٣٥٠ ميلادية ليدخل السودان فى العهد المسيحى .

ونعود مرة أخرى لنقف على بعض التفاصيل البسيطة التى وصلت الينا عن امتداد الحضارة من الشمال للجنوب وازدهار هذه الحضارة خلال تلك الحقبات الخمسة التى بيناها ثم نقف على آثار تلك الحضارة من الفن والعمارة ونرى .. اتجاهات هذا الفن وفى أى الأغراض وجه واستغل ..

المجموعة (أ) من عام ٣٤٠٠ ق . م إلى ٢٧٢٠ ق . م

هذه أول مجموعة أثبتها المؤرخون فى تاريخ السودان القديم وعلاقتها بالحضارة الفرعونية .

جعل المؤرخون بداية الحياة من جديد بعد الطوفان لوادى النيل بعام ٦٠٠٠ قبل الميلاد إلى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد حيث بدأ العصر الفرعونى يمد شبابه وتكوينه وتظهر الحضارة الفرعونية على أرض النيل ولما كان هذا الجزء من تاريخ الحضارة المصرية الأولى فيحسن أن نربط بين الحضارتين أو نتحدث عن حضارة وادى النيل ككل حتى تتضح لنا الصورة لتلك النهضة وذلك التوسع فى تلك العصور البعيدة التى نتصورها والوقوف عند بعض الحقائق العلمية لها يمكن أن نجعل من تاريخ تلك الحقبة صورة اسطوريه حلوة للذين يعشقون الافكار غير المألوفة .. وهذا هو الجانب الممتع فى فى الحضارات القديمة وذلك الخليط من التقاليد والمعتقدات التى تبدوا لنا مدهشة وغريبة :

وتدخل الدولة السودانية الأولى أو أرض « تاهاسو » كما كانت تسمى أرض النيل جنوب أسوان . تدخل هذه الدولة من ٣٤٠٠ ق م إلى ٢٧٢٠ ق م

يدخل هذا الجزء من تاريخ السودان مرحلتين من مراحل الحضارة المصرية التي إتفق على تقسيمها إلى مجموعات الأسرات : ومنها الدولة القديمة أو المنفية (٥٠٠٤ — ٣٠٦٤ ق . م) أو دولة منف من الأسرة الأولى إلى الأسرة العاشرة ثم تدخل في الدولة الوسطى أو الطيبية الأولى تبتدىء من عام (٤٠٦٤ — ١٧٠٢ . ق م) أو دولة طيبة وتبدىء من الأسرة الحادية عشر وتنتهي في الأسرة السابعة عشر :

زعم المصريون القدماء أن أصلهم جاء من تسعة آلهة خلقت « نو » المحيط الأول مكان الالهة رع « الهة الشمس في باطنة ثم ظهر هذا الكون فبسط النور على السهول والوديان وطرد الظلمات وقسم هذا الكون إلى ماء ويابسة . ورأت الالهة رع هذه الأرض عند بدايتها كما خلفها « نو » .

رأت الحياة بدون حياة ولا نباتات وزرف الدموع السخينة التي نزلت من عينيه الزرقاء وخلقت الدموع الحيوانات والنباتات .. ورأى الأرض منبسطة . . فظهر الآله « شو » ورفعهم على ذراعية الجبيتين . . وجعل لها الجبال أوتادا وأعمدة لتساعد على تماسكها . . وبانت الأرض . . حسب ما وصل إليه تفكيرهم في الوجود بأنها عبارة عن صندوق مربع قائم على أعمدة من الجبال تغطية المياه من كل جانب قاعدته هذه اليابسة ..

وعندما توصلوا لخلق الحياة على هذا المنوال خلقوا حسب نفوسهم وأعمالهم آلهة الخير لتقابل الأيام والفصول والحوادث الطبية . وكان هذا اشيئا ضروريا بأن يخلقوا الرمز لكل تصوراتهم التي يجب أن يجدوا لها مدلولا ومفهوما .

وجعلوا الالهة «رع» آلهة الشمس حاكما على الارض وجعلوا اقامته في عين الشمس وفكروا أنه لا يمكن أن يعيش وحيدا فجعلوا له رعيته . يخرج عند شروق الشمس الصافية في زورقه تصحبه حاشية من الآلهة .. طائفا بالارض ناشرا حكمته

ونصائحه على رعاياه فى كل الارض .. مسديا لهم النصيحة والخبرة .. حتى ركب الشيطان رأس خادمته « ايزيس » لتفكر فى أخذ الطلسم السحرى الذى ورثه عن والديه الذى يضمن لحامله الملك الذى ورثه عن والديه ويحفظه من الضرر والاذى . . ونجحت خادمته فى سرقة الطلسم السحرى حتى ضعفت سلطة رع الارضيه وتجمع البشر لخلعه . . وعندما شعر « رع » بنكران البشر لخيره وأبوته جمع الالهة غاضبا من البشر وحكموا على البشر بالقتل وتولى الالهة هاتور تنفيذ وصية الالهة .

وبدأ فى إرسال الاوبئة لفتك البشر .. ومازال هاتور يفتك بهم حتى اشفق رع صاحب القلب الطيب على نكبة البشر من هاتور . . فانقذهم . . ثم صعد على ظهر بقرة إلى السماء . . ثم تستمر سلسلة الالهة التى تصورها الانسان القديم لتقف مكان الحقيقة ثم جاء أوزيريس . من سلالة رع فاحيه الشعب واحيه رع وخلفه ملكا على مصر ثم تزوج أوزيريس باخته « ايزيس » وجعلها شريكته فى الملك وعلم المصريين الفلاحة وأخترع لهم الالات الزراعية وعلمهم دراس الطحن بالرحى والغزل بنسج الكتان ومبادىء السحر والطب وسنت لهم قوانين الزواج الشرعى .

ووضع لهم أوزيريس الكتب والطقوس والقوانين الدينية وبنى طيبة وقيل ولد فيها . .

ثم دخل الملك إلى أيزيس ورحل عن بلاده مع بعض الالهة على شعوب الأرض الأخرى يعلمهم ماعلم المصريين . ثم عاد إلى مصر قدبر له أخاه بتفون آلهة الشر وقتله غدرا .

وكان لاوزيريس طفل حين قتل يدعى حوريس وعلم الطفل بعد أن كبر بقصة مقتل والده اوزيريس على يدعمه « بتفون » . . وأضطر للتنازل عن أرض

الدلتا فانقسمت مصر بعد ذلك إلى مملكتين الأولى الوادى وهى واقعة بين منف والشلال الأول وكانت من نصيب "لهم ، بتفون ، والاخرى الدلتا وكانت من نصيب حوريس ثم جاء الى أرض مصر إسرتان عظيمتان حكمتا مصر وأمتد ملكهاالى الفرات شرقا والى الحبشة جنوبا وربما كان المقصود بالحبشة أرض السودان رغم قدم حضارة الحبشة .

واشهر ملوك هاتين الاسرتين « توت » الذى علم المصريين الكتابة والبحث فى أحوال الفلك وأوجه القمر وحركة الشمس وقسم السنة الى أيام وشهور وفصول .. فصل التخضير (نمو الزرع) وفصل الحصاد وفصل الفيضان وسمى شهور السنة بأسماء الآلهة فجعل الشهر الأول توت والثانى بابه والثالث هاتور .

وظلت مصر تحت حكم الآلهة الذين كانت السلطة فى أيديهم ثم بعدهم الجند ثم بقية السكان من فلاحين وعمال وعبيد ..

وزاد ظلم الكهنة واستبدادهم حتى ظهر « مينا » وحرض الجنود على الكهنة حتى اعترفوا به ملكا .. وبذلك تغير نظام الملك على وادى النيل وأصبح الكهنة يساعدون الملك بعد أن كانوا هم يصرفون الملك وعمقوا فى تلك الفترة التى حكموها فكرة الالهة وعقابها وابتدعوا ما شاء لهم خيالهم من الالهة حتى جعلوا لكل شيء الاه وظل هذا التأثير الاول والايمان المطلق بالالهة صدى صنع واختراع دولة الكهنة الأولى وظل هذا الاعتقاد قرونا طويلة حتى جاءت المسيحية ثم الاسلام . وقد امتد هذا الايمان بالالهة على طول النيل حيث امتدت دولة الالهة ثم المملكة المصرية التى توسعت لتلبى حاجات العمرات التى قامت فى وادى النيل لتخليد الالهة والموتى .. ومما ساعد الى خلود الايمان بالالهة أن الملوك بعد تنازل الالهة عن الملك جعلوا للملك نفسين أحداهما سيدة الدلتا والأخرى سيدة الصعيد .. وان الملوك يتناسلون من الشمس .

هذا المفهوم الديني الذي عمق بين عامة الشعب من رجال حكماء وكهنة تفرعوا للتفكير الديني جعل الشعب في حالة سلبية لأى ظلم يقع عليه.. فلا يصح أن يغضب العبيد من الكهنة والملوك آلهة كما علموا واعتقدوا وبذلك سخروا شعب وادى النيل لخدمة الاله وجعلوا كل البشر عبيدا لهؤلاء الملوك والالهة.

هذا هو النظام الملكى الذي شب على أرض وادى النيل .. حد من أى تفكير للتمرد عند الناس وجعل من ملوكه آلهة وخلق أساطير الالهة لهم. وهى أخطر فكرة لشل حركة الناس ضد الظلم ويبدوا أن كهنة القرون الوسطى فى أوربا قد استلهموا هذه الفكرة ووقفوا حائلا بين تمرد الشعوب الاوربية على ظلم الاقطاع الاوربى وجعلوا هذا الظلم من مشيئة الرب .. وجعلوا الملوك أبناء الرب المختارين وأى تمرد ضد هؤلاء الملوك انما هو تمرد ضد الرب حتى وصل هذا الظلم لرجال خرجوا من الكنيسة وحطموا هذا الاعتقاد وأنقذوا البشرية من سباتها لضلال كهنة القرون الوسطى مثل مارتن لوثر .

ثم ظهرت عبادة الحيوانات على يد الملك كاكاو واشتهر العجل « أبيس » فى منف ثم بقية أراضى النيل وزاد حب المصريين لملوكهم بعد عهد الملك بيتوتريس الذى سن القوانين وأباح للنساء حق تولى الحكم .. وجعل الملك نائب الالهة وابن الشمس .

• • •

تطور الفنون ونشأتها فى السودان

نشأة الفن الأول

[illegible]
الأول ، بين الرسم والنحت والموسيقى و الغناء . فلاشك أنه قد توصل إلى واحدة تلوا الاخرى .

لا نستطيع أن نكتشف هـــذا الفن الأول إلا إذا وضعنا فى إعتبارنا نظرية وهى أن كل الفنون تخضع للامكانيات الطبيعية .

الفن هو الإنسان ذائداً الامــــكانيات الطبيعية التى حوله بما فيها من نباتات وإمكانيات اجتماعية وحضارية الخ .

فلو حاولنا أن نطبق هذه النظرية على الفنون البدائية الأولى لنكتشف أى

الفنون استطاع أن يكتشفها الإنسان دون غيرها فسوف تقدم الرسم والنحت على بقيه الفنون الأخرى لانها أخذت فى طورها الاول تقليد الطبيعة من الصورة التى أنطبعت فى الذهن أومحاكاة الطبيعة .

أما الموسيقى فقد كانت تحتاج إلى آلات وإحساس أرهف وكذلك الرقص والغناء يحتاج لامكانيات حسية وفنية فى الانسان لم تكن قد تكونت بعد فى حياه الانسان الاول الذى عاش وحيداً بين الادغال والحيوانات ، يفترسها وتفترسه لا فرق بين ، حياته وحياتها غير بعض التصرفات العقلية التى كان يأتى بها يأوى يأوى إلى كوخ من البرد والحر والمطر أو يختبىء من الحيوانات أو فى كيفية صيد حيوان قوى ·

هـــذا الانسان الاول ترك لنا أثاره على الكهوف والصخور تلك الآثار أعطتنا فكرة عن مقدرة الانسان الأول على محاكاه الطبيعة إلا أن معظم المؤرخين لم يحاولوا أن يبحثوا عن الفنون الأولى التى نشأت كالرسم أو النحت بل وقف معظم المؤرخين مع النحت وذلك للاثار التى وجدت أما الفنون الأخرى التى لم تخلف تراثاماديا فلم يحاولوا أن يبحثوا عنها كالموسيقى والرقص وإنمـــا اكتفوا بتطور هذا الفنون بعدتطور النحت وهى مرحلة بعيدة فى حياة الانسان الحضارية .

كانت ظروف الإنسان الأول تهيئة للرسم قبل النحت فالنحت عملية أصعب من الرسم وذلك المواد التى تستعمل فى كل من الحالتين. فقد تعلم الإنسان

الأول الرسم بالصدفة . . . جلس على شاطىء النهر أو تحت شجرة وبدأ يخط بيده على الأرض .. أشكالا غريبة غير مقصودة ووجد نفسه أنه يعمل أشكالا على الأرض لم يحدد ماهيتها وبدأت هذه الخطوط على الأرض تأخذ شكلا اخر فى ذهنه ، بعد أن كانت عملية عضوية أو حركة غير مباشرة من يده بدأ يوظف هذه الحركة لتقليد شىء مما يراه أمامه . . وهو بلا شك لم يحقق شكلا جميلا به كل المقاييس الفنية ولكنه استطاع أن يرسم الشكل الذى أراده إن كان اشخصه أو لحيوان أو شجرة أو طير ... وبدأت له هذه العملية جميلة تملأ فراغه وتشغله وصار يمارسها كلما وجد الوقت والمكان المناسب لهذه العملية .

بعد أن توصل الإنسان بالصدفة بتخطيطه على الأرض إلى الرسم توصل كذلك إلى النحت على الحجر بعد أن جرب إمكانياته على تقليد الطبيعة وحين اضطرته الظروف إلى الاحتماء بالكهف لم يمارس النحت فى بداية أمره لملأ الفراغ الذى يحتويه بل بدأ يلعب على الأرض يخط أشكالا غريبة أو مقصودة لمظاهر الطبيعة ثم اكتشف وجود حجر حاد بجانبه فبدأ ينقش على الكهوف تلك الأشكال التى كان يخطها على الأرض بعد أن تمرس عليها . بعض تلك النقوش التى كان يخطها على جدران الكهوف احتفظت بشكلها لتصل إلينا وتعطينا وثيقة خطية على مقدرة الإنسان على العمل الفنى مستحدثاً الإمكانيات المادية التى حوله .

أما الموسيقى والرقص والغناء أيهما سبق الآخر فيمكن التوصل إلى النتيجة بنفس النظرية الأولى ، فقد بدأ الرقص والغناء فى لحظة واحدة . . . وجاء ذلك تعبيراً للاندهاش والفرحة فى لحظة معينة ومعبراً عن سروره . . . حين حاول الإنسان الأول أن يصطاد حيوانا ، ونجح فى اصطياد ذلك الحيوان وبدون أن

يشعر بدا يقفز فرحا ويصدر أصواتاً ليست جميلة على كل حال ولكن لها إيقاع يساير الحال والقفز ويعبر عن حالته النفســـية وفرحته وهى عبارة عن همهمة وقفزات عالية ثم جاءت الموسيقى فى حياة الإنسان الأول حين وجد نفسه سائراً وحيداً يلعب بأصابعه فتعطيه فرقعة الأصابع إيقاعاً منتظماً متنوعا وصار يكرر هذا الايقاع وينسجم إليه بمفرده ثم طور هذا الايقاع بالضرب على الأيدى مع المجموعات للتعبير عن الفرح مصاحبا الرقص الجماعى حين اصطاد حيواناً ، أو العائلة حين تجد وليمة أو حيواناً ، أو تعبيراً عن اللقاء والعودة إلى المنزل أو المكان الذى اختارته للقاء فيه.

لقد حاولنا أن نعطى صورة عن بداية الفنون مع بداية الانسان الأول ، ولا بد الآن علينا أن نتتبع تطور هذه الفنون فى السودان عبر التاريخ بعد أن انتظم الإنسان فى مجموعات وتطورت حياته البدائية لحياة اجتماعية لها قوانين ونظم وذلك خلال مسيرة الإنسان على النيل حتى وصل إلى الحضارة الفرعونية ثم المسيحية والإسلامية .

نود أن نضيف نظرية أخرى للفن وهى أن الفن تعبير عن إمكانيات الطبيعة والمجتمع.

إستعمل الانسان إمكانيات الطبيعة التى حوله فخلق منها الفن الذى يمكن أن يأتى من تلك الامكانيات ...

فلو نظرنا فى ظروف الحضارات التى قامت حول البحر الأبيض المتوسط وهى الحضارة الفرعونية والاشورية والاغريقية والرومانية لوجدنا أن أعظم ما خلفته تلك الحضارات لا تتعدى عن إمكانيات الطبيعة ، فقد وجد الانسان الأول على النيل الامكانيات المساعدة لتشييد العمارة والنحت من حجارة الجرانيت

الذى يساعد على النقش الغائر وكذلك نجد الجير الأبيض وأنواع عديدة من الحجارة فى كل منطقة .

فقد وجد الانسان على النيل مواد حجرية مختلفة استغلها كلها بما يناسب إمكانيات تلك المواد للاعمال الفنية مثال ذلك حجر الجرانيت الأحمر ذى الحبيبات الخشنة لصنع التماثيل الكبيرة التى لا تحتاج لصقل وشكل ملمس ناعم واستغل الجرانيت الأسود ذى الحبيبات الصغيرة للتماثيل الصغيرة وذلك لجعلها ملساء رقيقة على اليد وإمكانية صقلها فى أشكال صغيرة مختلفة . . . واستغل حجارة الجير لرخاوتها وإمكانية صبغها بالألوان واحتفاظها بتلك الألوان

توفرت مثل هذه الامكانيات للانسان على النيل فى حين لم توجد مثل هذه الامكانيات فى منطقة الحضارة الاشورية التى كانت تقيم مبانيها من الطين وقد ساعدتها ظروفها الاقتصادية وإمكانياتها المادية على استيراد هذه الأحجار لتماثيل من خارج منطقتها ولذلك ساعدت سلسلة جبال الألب وغناها بالأحجار المختلفة على قيام التماثيل وعمارة الأعمدة عند الاغريق والرومان .

أما فى السودان فقد هيأت الظروف المنطقة الشمالية فى السودان قيام مثل تلك الفنون من نحت وعمارة وذلك لغناء تلك المنطقة بسلسلة جبال تحيط بمجرى النيل مما يساعد على بقاء تلك الآثار القديمة عبر التاريخ واحتفاظ تلك الآثار الحجرية بتاريخها عبر التاريخ رغم الخراب البشرى والطبيعى الذى تعرضت له .

أما إذا سرنا جنوب المنطقة الشمالية فنجد قلة الجبال التى تصلح لبناء عمارة كالتى قامت فى الشمال وكذلك التماثيل الأمر الذى جعل أثر هذه المنطقة خلال العصر الفرعونى غير معروف .. ولكن هذه المنطقة استغلت إمكانياتها الطبيعية

وهى (الطين) ، لبناء المعابد والتماثيل من الصلصال وصنع الفخار الأمر الذى جعل آثار هذه المنطقة قابلة للتلف بواسطة الإنسان والطبيعة مما جعلنا لا نعثر على آثار كافية لتلك الحضارة التى نشأت فى مروى القديمة قرب الدامر وذلك لاعتماد عمارة وفن تلك المنطقة على بنـــاء قلاعها ومعابدها من الطين وتماثيلها وأوانيها من الصلصال .

وقد امتازت أرض السودان وجباله بالمعادن كالذهب والنحاس والحديد الأمر الذى ساعد الحضارة الفرعونية لاستغلال هذه المعادن فى التماثيل والأوانى والزينة إلى أبعد حد ..

وقد برع الفنانون فى تشكيل تلك المعادن وإخراج تماثيـــل غاية فى الجمال والروعة وقد احتفظت لنا منطقة البركل (نباتا) ببعض هذه التماثيل الذهبية كما تضم المتاحف الأوربية ومتحف القاهرة الكثير من آثار تلك الحضارة التى قامت فى السودان من المعادن والذهب والأحجار .

وهنالك إمكانية أخرى وهى النباتات الطبيعية من أشجار ونبات نبت على ضفاف النيل استغلها الانســـان فى كثير من حاجياته اليومية وقد ظهرت المصنوعات الخشبية ضمن الآثار المعروضة فى متحف القاهرة وإذا ابتعدنا عن النيل نجد إمكانيات أخرى استغلت نفس الاستغلال لحاجة الانسان للجمال وهى المصنوعات المصنوعة من جلود الحيوانات المختلفة والطيور والأشجار وقد اختص جنوب السودان بنوعين من المصنوعات الفنية وهى المصنوعات الخشبية. وذلك من الأعشاب القابلة على التشكيل كما استغل الأبنوس والعاج وظهرت فى غرب السودان المصنوعات الجلدية للحيوانات والزواحف والطيور والنباتات وفقدت تلك المنطقة المصنوعات الحجرية والصلصال وذلك لطبيعة الأرض الرملية ولقلة الأحجار الصالحة لهذا الفن إن كان للعمارة أو النحت .

تطور هذه الفنون :

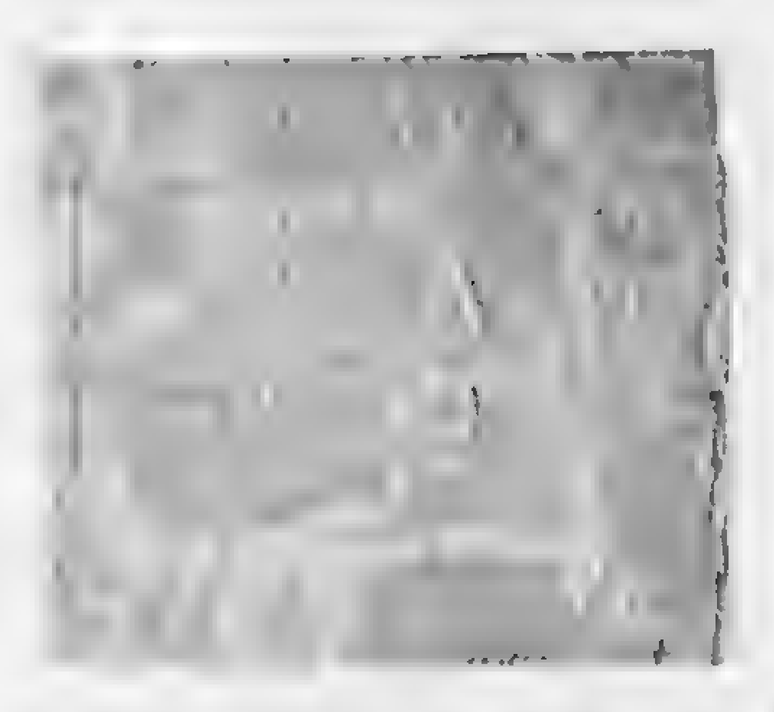
هذه فكرة عامة عن نشأة الفنون عند الانسان وتنوع هذه الفنون فى السودان باختلاف الأماكن والامكانيات الطبيعية لأن تلون الفنون وتنوعها جاء نتيجة تلون واختلاف الامكانيات الفنية .

فالانسان عنصر واحد متساوى فى كل الامكانيات البشرية الخلاقة ، وما يظهر هذا التنوع هو الطبيعة أو المادة الفنية المصنوع منها الفن ومظاهر الطبيعة نفسها توحى بالمن وبما كانه . لأنه لا يعقل أن يرسم سكان غرب السودان أو النيل الد . النطبى أو الحيوانات البحرية والقطبية كما لا يجوز أن يصنع الانسان فى الجنوب مصنوعاته الفنية من المرمر والأحجار الصالحة للفن وهى غير موجودة بحوزته ولا يدرك الامكانيات التى أعطتها له الطبيعة كالعاج والأشجار وجذورها والحيوانات ومخلفاتها والطيور ولا يعقل أن لا يصنع الفيل والتمساح والطيور المتواجدة بجانبه بكثرة ويفكر فى صنع الجمال الصحراوية والخيل والحيوانات التى لا تقطن المناطق الاستوائية .

من الامكانيات التى حول الانسان ومن مظاهر الطبيعة خلق الانسان فنونه وبدأ بطورها بمرور الزمن والعصور وإن كنا لم نعثر على آثار قديمة لسكان النيل قبل الحضارة الفرعونية فلا يعنى ذلك أن تلك الفترة التى سبقت الحضارة الفرعونية لم تخلق فناً ولكن الأمر يرجع إلى أن تلك المصنوعات لم تقاوم مقدماتها الطبيعية كل هذه القرون بجانب المناطق الأخرى التى لم تتوافر لها مثل هذه المواد الحجرية القابلة على البقاء والتى كانت مصنوعاتها من الطين والصلصال ومخلفات الحيوانات من عظام وجلود ومن أخشاب الأشجار وثمارها .

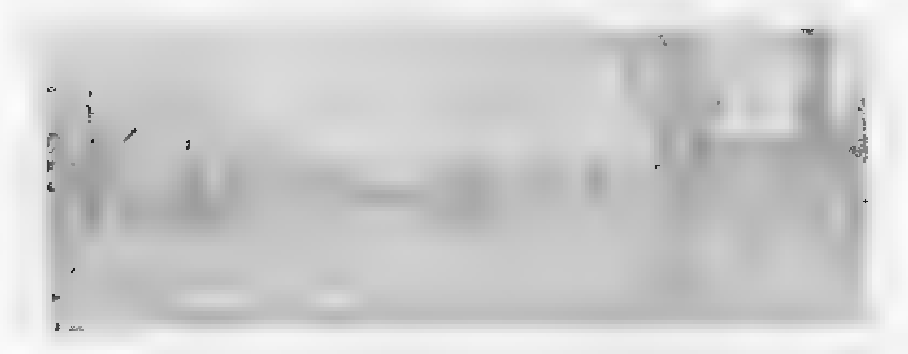
ظهر الفن فى شمال السودان ذلك الذى خلفته لنا آثار الأسرة الثانية عشر



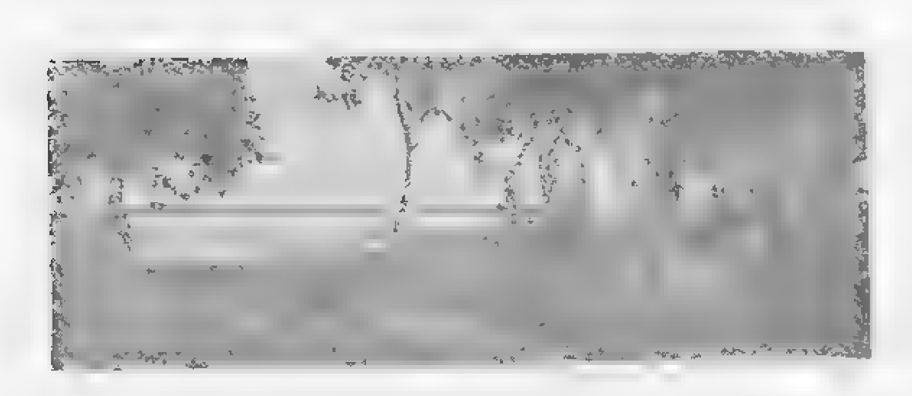


[illegible]
[illegible]
مروى من جمال وروعة .





غابات النيل الازرق طيبه سهلة تختلف عن غابات الجنوب . وفرت المرعى الماشية واتاحت للانسان ان يرتادها و يستفيد منها



الطبيعه على النيل الازرق طيبه بسيطه فى تركيبها اتاحت للانسان الذى عمرها امكانيات لا تحد

الطيبيه (٢٧٥٩ — ٢٩٦٣) ق . م وكذلك ظهرت آثار هذا الفن الفرعونى فى منطقة النوبة وأسوان قبل هذه الأسرة فى عهد الأسرة السادس الأسوانية (٣٦٠٣ — ٣٢٩٩) ق.م.

لم يظهر الفن فى السودان بظهور الحضارة الفرعونية فى القرن الأربعين قبل الميلاد إنما ظهر الفن قبل ذلك بآلاف السنين واستخدمت نفس المادة التي استمر صنع الفن منها بعد ذلك فى عصر الفراعنة ولكن ما ظهر فى هذه المنطقة هو التأثير الفرعونى وتوظيف هذا الفن لخدمة العبادات واستعمال الانسان لبعض الأدوات الفنية التى تستعمل للنقش والنحت على الحجر ، أما نوع الفنون قبل التأثير الفرعونى والأغراض التى كان يستعمل من أجلها فهى لاشك فى معظمها محاكاة للطبيعة وربما أغراض دينية وثنية أيضاً لم نعثر على آثار لها ولكن بما لا شك فيه أن المجتمع على النيل داخل منطقة النوبة وجنوبها قد انتظم وعرف النظم الاجتماعية الأولى وترقى فى هذا السلوك الاجتماعى الأمر الذى أتاح له ان يجد الوقت لصنع الأشياء الجميلة وتقليد الطبيعة والكشف على مقدارته الخلاقة كما اكتشفت من قبل مقدرته على خلق مجتمع مستقر مستقر منتظم وعلى كسب القوت والسكن وحاجياته الطبيعية للحياة.

إن ما تعطينا له الآثار عن أثر الحضارة الفرعونية يجب أن لا يوقف تصورنا عن وجود آثار قديمة اندثرت بفعل الطبيعة أو بفعل الانسان أو بفعل الحضارات المتعاقبة . وعلينا أن نضع فى اعتبارنا إن الاستقرار وتنظيم الحياة المعيشية وضمان سبل العيش من العوامل المساعدة للاستقرار الذى من داخله تأتى الأشياء الخلاقة وتتفتح فى ظله المواهب الانســانية الرقيقة ويقود لتهذيب السلوك والأخلاق التى ينعكس أثرها فى الفن .

إذن هنالك فن نشأ على النيل قبل قيام الحضارة الفرعونية يختلف باختلاف

إمكانيات النيل الطبيعية وذلك بسبب ما أعطاه النيل للمجموعات التى عمرته من خيرات وعيش مضمون من زراعة وحيوانات وماء ... الخ ...

كانت الحضارة الفرعونية قفزة فى حياة المجموعات التى سكنت النيل وذلك بسبب بسيط وهو تسخير كل إمكانيات الناس فى أيدى فئة قيمة من الملوك والكهنة الأمر الذى أمكن استغلال كل تلك الإمكانيات البشرية لخلق الحضارة التى قامت على القسوة والسخرة على حياة الأفراد العاديين.

عرف الفراعنة فن النحت والنقش وأبدعوا فيه وانتقل هـــذا الفن إلى لسودان بعد أن وصل إلى أعلى مستوياته فى عصر الأسرة الثانية عشر الطيبية قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد والتى وحدت الحياة فى مصر من جديد وعادت طيبة من جديد عاصمة الدولة المصرية التى مـــدت نفوذها إلى السودان حيث اكتشف الذهب فى السودان الأمر الذى حتم ضم « إثيوبيا » أى « بلاد النوبة» إلى المملكة المصرية الفرعونية وانتشار الفن الفرعونى . وقد كان الذهب من العوامل المساعدة لنقل الحضارة الفرعونية للجنوب والاحتفاظ بالأراضى التى تصل إليها وذلك من أجل المزيد من الذهب للمعابد وتماثيل الآلهة والملوك والزينة والأدوات المنزلية . .

وساعد وجود الذهب بأراضى السودان لانتقال العمال المهرة من مصر والفنيين لتنقية الذهب وصبه فى سبائك ونقله إلى مصر وانتشر فى السودان صناعة التماثيل الصغيرة للآلهة والحيوانات المقدسة كما أن استخراج العديد من المعادن نشر صناعة الأوانى وآلات النقش كان لأرض المعدن الغنية بالذهب أثر كبير لاهتمام المصريين بالأراضى الجنوبية .

الرقص :

يصعب تحديد نوع الرقص القديم الذى عاش على أرض السودان ولكن بعض

اللوحات الاثرية وما وجد من آثار فى مصر يستطيع بساطة أن يعطينا صورة عن نوع الرقصات التى كانت سائدة على النيل إذا أعتبرنا أن ظروف المعيشة على النيل تكاد تكون متاشبهة رغم أختـــلاف الظروف الاجتماعية تحـــت النظام الفرعونى والمملـــكية فى أرض النوبة والنظم الأخرى المنتشرة جنوبا التى لاشك لها تأثير أيضا على الرقص ، وقد خلفت لنا الحضارة الفرعونية العديد من الرسومات بما مهد لتقديم دراسات طيبة عن حال الرقص عنـــد المصريين ونحن سنحاول أن نقترب من تلك الدراسات واضعين فى اعتبارنا الاختـــلاف الذى سيطر نتيجة الظروف المعيشية والمناخية والاجتماعية . .

وقد أظهرت اللوحات التى وجدت بعض الرقصات لاهالى الجنوب والنوبة والزنوج بآلاتهم الموسيقية وحركاتهم . . .

وقد ضم كتاب الرقص المصرى القديم لايرينا لكسوفا دراسة جيدة للرقص المصرى كما تضمنت السبعة والسبعين لوحة التى جمعها الكتاب أنواع الرقص وأوضح اشتراك بعض أهـــل جنوب مصر فى بعض الرقصات وبعض آلاتهم الموسيقية انتشار معظم تلك الرقصات فى أرض السودان بعد أن انتقل إليه بعض الحكام المصريين فى عهد الاسرة الثانية عشر . وإذا أردنا أن ندرس الحركات التى تسيطر على الرقص على النيل فى مصر والسودان والتى مازال جزء من تلك الرقصات والحركات باقيا حتى الآن لبقاء نفس الظروف المعيشه بالنسبة لعامة الناس وهى حركات تشبه حركة الرجل الذى يعصر والذى ينظف الذره والقمـــح بالريح ثم حركات الرجال على المراكب ثم حركة غرس الزرع والبذرة . .

بعض الرقصات هادىء وبعضها مثير كرقصات النساء وقد كان مجمل الرقصات

يشتمل على الرقصات الاستعراضية مثل رقصات القوة ، ثم رقصات الافراح ثم رقصات الطبقات الخاصة والموائد والقصور ورقصات الزرع والحصاد والرقصات البهلوانية وكثير من هذه الرقصات كانت تفرضه الظروف الاجتماعيه التسمية الاغنياء والمـــلوك والطبقة الخاصة التى كانت تحتفظ بالعبيد والراقصين من الجنسين . . . ثم كانت الرقصات الدينية داخل المعابد وخارج المعابد .

وقد ظهرت فى بعض الصور الرقصات الزنجية ومعها الطبلة الافريقية فقد كانت إمكانيات العصر الفرعونى وبلاطه تستطيع أن تستورد كل ما تريده من أدوات اللهو والمرح وبذلك أعطت للفن المصرى إمكانيات لأحد له باستجلاب كافة الفنون والرغبات التى يرغبها أهل البلاد إلى مصر لتعيش فيه وبذلك غذت الفن المصرى بفنون جديدة عليه استفاد منها شعب وادى النيل . .

أما فى المناطق الأخرى البعيدة عن النيل فقد كان فنها لاشك يختلف عن فن سكان النيل نسبة لاختلاف الظروف المعيشية والبيئية إذ عادة ما تأتى رقصات الشعوب من حركات العمل أو مشابهة لها فى كثير من الأحيان .

وإذا أردنا أن نجد منطقة غنية بالسكان فسوف نجد منطقة البحر الأحمر حيث سكنت قبائل مختلفة وحيث لم نجد آثارا تنبىء عن حضارة هذه المنطقة وتكشف لنا إمكانياتها السابقة إلا إننا نجـــد فى بعض رقصاتهم اليوم ما يساير ظروف معيشتهم فى التنقل والجرى وصيد الحيوانات البرية كالأرانب والطيور وحركات رقصهم فى مجملها تعبير عن القفز والوثب والحركة الحربية السريعة بما فيها المبارزة التى هى أحدى رقصاتهم .

الموسيقى:

عرف سكان وادى النيل مجموعة كبيرة من الآلات الموسيقية مازال كثير منها باقيا حتى الآن وقد كان للحضارة الفرعونية وما صاحبها من عبادات وثنية وطقوس دينية تحتاج لموسيقى مع وجود طبقة خاصة مرتاحة تبحث عن اللهو والمرح شجعت الفنون والموسيقى من أجل متعتها الخاصة وأتاحت خلق فن عام وفن خاص لهذه الطبقة فى مناسباتها المختلفة .

وقد انتشرت الآلات الموسيقية بانتشار الفن ، فى البلاط وفى المعابد وفن الطبقة الخاصة وفن عامة الشعب وقـــد استعملت آلات موسيقية مثل الجنك والكنارة والطنبور والجيتار ، المزمار ، الدف والصفقة على الايـــدى والطبول . . .

وقد أهتم بالاحتفال بالأعياد ، كعيد الحصاد وفيضان النيل والاحتفالات الدينية وقد انتشرت هذه العبادات فى السودان بعد تمركز الحضارة الفرعونية فيه بعد القرن السابع والثمن قبل الميلاد وبعد أن دب الخلل فى الدولة الفرعونية وأمتدت إلية أثار حضارة جديدة من الشرق ومن شمال البحر الأبيض المتوسط وبقيام دولة نبته السودانية لتحكم السودان ومصر وتطرد عنه خطر الاشوريين والليبيين .

وقد كان لثراء مصر الفرعونية أثر كبير فى إستجلاب الآلات الموسيقية من أماكن بعيدة وأحضار المواد التى لم تتوفر محليا وهذه الآلات التى كانت تستجلب ولا توجد موادها محليا كانت للخاصة والبلاط والمعابد . أما عامة الشعب فقد كانت المزامير وهى من البوص والطار المصنوع من جلود الماعز والربابة الات يمكن صنعها من المواد المحلية بواسطة عامة الشعب . .

وقد كانت الالات الرئيسية للموسيقة قد انتشرت فى السودان كالربابة والطار والطبلة الافريقية وهى الالات التى يمكن صنعها من المواد المحلية من نباتات وحيوانات . وقد كان للطبقة الحاكمة فى نبتة ومروى نفس الفرق الموسيقى التى كانت لفراعنة مصر نسبه للامكنيات المادية ولمكانه المعابد والطقوس الدينية بجانب البلاط الملكى وأهمية هذه الطقوس الدينية التى كانت الموسيقى عنصرا هاما فيه .

فقد عرفت الطبقة الحاكمة والخاصة أنواعا شتى من الفنون والموسيقى والرقص لم تكن متاحة لبقية سكان لنيل كما كانت للمعابد موسيقاها الخاصة وللاعياد التى حافظ حكام السودان عليها فى ظل الحضارة الفرعونية على التمسك بها مثل تقديس النيل وأعياد الحصاد والفيضان والافراح وهى عادات مازالت أثارها باقية حتى اليوم .

العمارة :

كثيرون يسألون عن حضارة السودان وأثارها بعد منطقة البركل شمال السودان فلا يجدون إلا بعض الاثار البسيطة التى لاتفيد كثيرا ولاتعطى صورة حقيقية عن نهضة تلك الحضارة. وقد فات على البعض عن إمكانيات الطبيعة ومواردها لحفظ أثار تلك الحضارة .

فقد اختصت المنطقة الشمالية من السودان بنوع خاص من الاحجار صالح لبناء المعابد والقصور والاهرامات لاتؤثر فيه الطبيعة من رياح وأمطار ولا تتأكل سريعا بفعل العوامل الطبيعية الامر الذى ابقى لشمال السودان الكثير من أثار تلك الحضارة رغم عبث الناس وتحطيمها بواسطة الأفراد والجماعات وإستغلال تلك الاثار لاغراض كثيرة عبر التاريخ أما المنطقة التى تقع جنوب مملكة سوبا

المسيحية قرب ملتقى النيلين حيث قامت حضارة وعمارة عظيمة لم تترك لنا الايام منها الا بعض الاثار البسيطة فيرجع ذلك إلى المواد التى لا تستطيع أن تحافظ على نفسها الاف السنين لان معظم العمارة التى شيدت فى مروى وسوبه المسيحية كانت مصنوعة من اللبن والاحجار التى لاتحتمل تغييرات الطبيعة من رياح وامطار وجفاف لتبقى آلالف السنين .

ونحن إذا حاولنا أن نبحث عن إمكانيات هاتين المنطقتين مروى القديمة وسوبه المسيحية نجد الطبيعة هنا أعنى من شمال السودان حيث هنا الأراضى الزراعية أكبر مساحة وأخصب والمراعى لاحدود لها الأمر الذى اتاح لهاتين المنطقتين من الخيرات الطبيعية من نباتية وحيوانية ما يجعلها غنية تنفصل عن شمال الوادى وتجلب منه ما تريد . . إلا أن مناخ هذه المنطقة كان له أثر مباشر فى اندثار آثار تلك الحضارة التى قامت فى منطقة الخرطوم وسوبة .

* * *

الالهة عند الفرس

كان الفرس يتبعون عادات وتقاليد أعرف منها مايلي : — لم يكن لديهم أية صورة أو تماثيل للالهة ولا معابد ولا مذابح — إذ كانوا يعتبرون استعمالها علامة من علامات الحماقة . وأظن هذا راجع إلى عدم أعتقادهم بأن طبيعة الآلهة من طبيعة البشر ، كما كان يتصور الاغريق ، ومع ذلك كان من عادتهم يصعدوا إلى قمم الجبال ويقدموا الذبائح لجوبتر وهو الاسم الذى يطلقونه على المجموعة الكونية كلها كما كان من عادتهم أيضا أن يقدموا الذبائح للشمس وللقمر وللارض وللنار والماء وللريح . هذه فقط هى الالهة التى توارثوا عبادتها من اسلافهم منذ أقدم العصور الغابرة .

أعظم يوم يحتفلون به هو يوم عيد ميلادهم من بين أيام السنة.

ذكرنا هذا لاتصال حضارة الفرس بالحضارة الفرعونية بعد أن وهنت الأخيرة وخرج ملوك السودان فى القرن الثامن الميلادى من منطقة البركل لصد أثر الفرس عن مصر وعدم احترامهم لديانة الفراعنه التى هى ديانة ملوك نبته إلا إن بعد عاصمة دولة نبته عن طيبة وحدود الفرس حال دون استمرار انتصار دولة نبته العظيمة ووقف خطرها على عبادات وادى النيـــل حيث حاولوا الاستهجان بها وعدم تقديرها واحترامها بعد مادخلوا مصر .

هيرودوت

تأليف أ . ج أيفانز

جولة فى متحف الآثار المصرية

«المقابر الملكية بجهتى بلانه وقسطل ببلاد النوبة»

(العصر البيزنطى)

فى عام ١٩٣١ قرر أعضاء بعثة مقابر بلاد النوبة تحت إشراف مستر أمرى أن يفحصوا بالتفصيل الكثبان الكبيرة الممتدة على جانبى النيل بالقرب من قريتى بلانه وقسطل على بضعة أميال إلى الجنوب من أبى سمبل وشمال حدود السودان مباشرة . وقد تبين أنها كانت تغطى مقابر العصر البيزنطى وتشبه ما سبق العثور عليه فى حماى وفركه ووادى وجزيرة سناى وكلها فى السودان إلى الجنوب من وادى حلفا وهذه المقابر محفورة فى الرواسب الغرينية وتتكون من طريق طويل منحدر طويل يؤدى إلى حفرة كبيرة بنيت فيها حجرات من اللبن الاحمر .

وعندما كان يوضع الملك أو الأمير المتوفى الذى من أجله أقيمت المقبرة فى حجرة الدفن وعليه ملابس من الجلد كانت تودع أمتعته الشخصية والأطعمة والنبيذ فى غرفة مجاورة ثم يغلق الباب الخشبى المكسو بلوحات كبيرة من البرونز مسمرة عليه ثم يختم ويبنى عليه جدار من اللبن .

وكان يؤتى بخيول صاحب المقبرة إلى هذا الطريق المنحدر وقد طهمت سروج رائعة واقم من الفضة (توجد تماثيل لهذه الخيول رأيتها محفوظه ليست للعرض الآن) وعدد مزركشة بألوان تختلف بين الأحمر والأزرق ثم تقتل فى مكانها بضربات الفئوس (وفى الخزانات فأسان منها) وتدفن لترافق سيدها

فى الآخره وعلى مقربة من هذا المكان دفن العبيد والخدم بعد خنقهم بحبال معقودة وهؤلاء أيضاً كان يراد بهم خدمة سيدهم بعد الموت وفضلا عن الخيول فقد عثر على طائفة أخرى كبيرة من الحيوانات كالجمال والأبقار والخير كما عثر كذلك على سلحفاة وقد ضحيت جميعها لنفس الغرض .

أما الكثبان التى أهيلت وسط المقبرة فتتكون من كميات هائلة من أتربة نقلت من الجهات المجاورة ويختلف حجمها تبعاً لأهميـة المتوفى وقد بلغ ارتفاع بعضها إثنى عشر متراً ... وفى هذه الكثبان عثر على عدد من الآثار الهامة المعروضة بالمتحف ومن بينها الصندوق المزين بألواح من العاج ورقعة اللعب والدروع والحراب وبعض قطع فريدة من الحلى كالأقراط المصنوعة من الفضة وحجر الجمشت والاساور الفضية المرصعة بأحجار نصف كريمة .

الملاحظـــة

١ — يوجد أوان ومباخر من الفضة من ضمن الآثار المسيحية التى يرجح أنها نهبت من الكنائس)

٢ — إناء من الفضة عليه رسوم يمام (أو نعام وأسماك ويبدو أنها رموز مسيحية نهبت من أحد الكنائس .

٣ — صحن من الفضة صـور الإلهة (أبوللو هومس تحيط به رموز خاصة بمعبودات أخرى منها اسكريبوس وهرقل ومارس وديونيسوس وفولكان . تبين أثر الفن الاغريقى والرومانى .

صورة أبوللو ممسكا بيـــده عصا مزركشه ويمد قطعة من التفاح أبو النضج

إلى الثعبان أمامه وعلى شماله الفرس المجنح ذو المنقار والأرجل الحيوانية والمعز. وفأس ومقبض ووجه أسد فى شكل تجريدى :

٣ — مباخر وموائد صـــغيرة وملقط شعر وقطعة على هيئة صقر ووجوه الحيوانات على شـكل غريب مرعب الأوانى غاية فى الدقة والترف . . وخنجر على شكل ثمرة الاناناس .

٨ — (١) قطع من البرونز والعاج والفضة وألواح من العاج فى صناديق . .

ملاحظة :

العاج يظهر فيه أثر الفن الافريقى .

(٢) إصلال من الفضة من تاج ملكى وزرار وأقراص من الفضة كانت تزين ملابس من الجلد .

توجد قطع حديدية على شكل فأس وأسوده .

وليس هنالك ما يدل على حقيقة هؤلاء القوم إذ لم يعثر فى مقابرهم إلا على النادر القليل من الكتابات ويرى على كثير من جرار النبيذ الكبيرة والأوان المعدنية بضع كلمات باليونانية وربما كانت هذه الأوانى مستورده من الإسكندرية وقد عثر على رمح من الحديد وإناء عليها نقوش مقتضبة جداً بالخط المروى ذى الخطوط المستقيمة كما أن الكثير من الأوانى الفخارية والأشكال من الأشكال التى تتميز بها المملكة المروية وإذا أضفنا ذلك إلى أن هذه الطرز لم يعثر على مثيل لها شمال قسطل لاستنتجنا بأن هؤلاء القوم كانوا على صلات وثيقة بمروى .

ويظهر أن أهالى بلانة وقسطل استمروا دهرا طويلا بعد دخول المسيحية إلى

مصر وهم يعبدون المعبودات المصرية كحوريس وبس وايزيس كما أن بعض الالهة المختلطة وجدت مرسومة بكثرة على احناء السروج ولوحات الفضة .

وقد أمدتنا هذه المقابر بكمية وافرة من الاثار مختلفة الاثار مختلفة الانواع وقد عرض منها مجموعة كبيرة كاملة التمثيل ولعل أجدرها بالملاحظة ذلك الصندوق المزخرف بلوحات عاجية عليها صور لاتكاد تبارى فى دقة وتهذيب — وتلك التيجان الفضيه المرصعة باحجار حسنة اصبح ثم الطوق الفضى ذا النقوش البارزة واللقم الفضية الخاصة بالاجمة ووقايات أيدى الرماة ثم الاثار المخروطية الشكل وهى أن كانت ذات صلة بالرماية إلا أن طريقة استعمالها ماز الت غير معروفة ومما هو جدير بالذكر أن بعض القطع البرونزية عليها شارات مسيحية وهى أما أن تكون قد سلبت أو أشتريت من العشائر المسيحية أو الكنائس ويلاحظ أن من بين المنسوجات عينات صنعت من الحرير .

ويرى على كثير من الجثث أثار واضحة لاصابات حصلت فى ميدان القتال ويشبه أشراف بلانه وقسطل الزنوج إلى حد كبير وإن لم يكونوا من الزنوج فهلا أما خدمهم وعبيدهم فكانوا من أجناس نوبية مختلطة ، وخلاصة الاحتمالات أن هذه الجهات كانت لجنس من النهابين الميالين للقتال يعرفون بالبيميين الذين كانوا حتى القرن الثالث بعد الميلاد لايزالون تحت سيطرة مروى .

وقد هاجم البليميون الحدود الرومانية أول مرة عند أسوان عام ٢٥٠ م ثم مرة ثانية ٢٦١ م ثم عادوا عام ٢٦٨ م فاجتاحوا مصر حتى وصلوا إلى كيتوس فقط وبتلمايس .

وقـــد دعا الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) بعض قبائل النوبة (النوباديون) الذين كانوا يقطنون الصحراء الغربية ليستوطنوا فيها بين بـــلاد

البيميين وأملاك روما وبالرغم من هذه الحيطة فان البيميين احتاجوا الواحة الخارجة حتى عام ٤٢٩م ويظهر ان طرد البليميين النهائى حدث فى أواسط القرن السادس عندما اجتاح سلكو ملك النوباديين الذى كانوا قد أعتنقوا المسيحية إذ ذاك بلاد البليميين ومن بعد ذلك لم يذكر التاريخ عنهم شيئا .

وقد قام مستر امرى بالنشر عن هذه المقابر ووصف أقوام البيميين فى مؤلفة To. Entery The Roval Tomps of Bauana and Bustol

(وهو الكتاب المطبوع بالمطبعة الأميرية بدلان (بعثة حفائر بلاد النوبة ٢٩ — ٣٤) .

٢٩) أكواب وجرار وقوارير من الفخار بعضها ملون وبعضها محلى بزخارف مسارح وأباريق وأوان واوعية للطرح وحوامل — ويسهل ملاحظة ماق الكثير منها من تأثير الفن المصرى القديم على الفن اليونانى والرومانى .

تمثال من البرونز يشبه كوبين . أغريقى الفن — تمثال من البرونز يمثل إليه يحمل شمعدان.

١٥ — جلب لحفظ السهام وبقايا حقيبة للحلى وأدوات للزينة ومعها قمها وقطع ملابس ونعال وأجزاء من لجام وكلها من الجلد — ثم قطع من سلال من القش وخرز متضود فى خيوطة الاصلية ونموذج من الحجر الرملى لمائدة قربان من الطراز المروى .

١٦ — نماذج من الاقمشة المختلفة والجبال التى كانت تستعمل فى اطقم الخيل . ملاحظة النسيج ممتاز ودقيق . . . وسميك . . وبعض أنواع الشمل . . من صوف الماعز والضأن وخلافه كانت تستعمل لكساء الخيول . . .

والانسان . الاقمشة تشبه لحد كبير نوع الاقمشة هـــذة الايام رغم جوده صنع القديم .

١ ـــ الفخار كبير . . تستعمل الماء وحفظ الاشياء . . فى شكل برام وحلل وزجاجة . . وبخمه . . يوجد من نفس النوع مصنوع من النحاس والبرونز من والفضة .

١ ـــ أدوات الزينة موجودة . . وقد عثر معها على أصباغ الوجه .

ودلاية (مقبض) من الحديد من الطراز الرومانى أمشاط من العاج الملون على زهرة . . دقيقة الإسنان . . ومكحلة من الخشب على هيئة الالهة . (رع) وجه قريب من وجه البومة .

لوحة للعب مطعمة بالعاج وزواياها ملبسة بالفضة وجدت فى الركام فى الكوم الذى يعلو المقبرة وكان باسفله حقيبة من الجلد بها قطع اللعب والزهر .

المعادن المختلفة التى استغلت فى صناعة هذه الأدوات تكشف لنا إمكانيات تلك الحضارة ومقدرة الأنسان جنوب نهر عطبره لاستخراج المعادن وتوظيفها فى حاجيات الحياة اليومية .

شواهد شكلها

موائد وقرابين

من العهد المروى

هـــذه الموائد كانت توضع عند مدخل المقابر وكلها تقريبا مستطيلة الشكل وبأحد جوانبها بروز به قناة تنصب منها السوائل أما فى الوسط فيغلب أن تكون عليها رسوم أوان خبز منقوشة نقشا بارزا وكذا بعض مناظر من الاساطير المصرية أما الكتابة التى حولها فتبدأ دائما بدعاء موجه إلى أحد الالهة إزيس أو يا أوزريس ثم بعد ذلك أسم المتوفى وأوصافه وتكتب بعبارة الترحم عليه . ويذكر فى أوصافه أنه كان طيب كريم الأصل . . . الخ . . ويلحق غالبا باسماء والدية .

ملحوظـــة :

وربما بمزيد من الاكتشافات التى تجرى فى منطقة مروى القديمة جنوب نهر عطبره نستطيع أن نعثر على المزيد من الوثائق والآثار التى يمكن أن تعطينا صورة كاملة عن تلك الحضارة التى قامت جنوب نهر عطبره وتكشف لنا عن حدودها جنوبا ومدى سيطرتها وعلاقتها بالقبائل التى سكنت أرض الجزيرة وقبائل الشمال خاصة والمجموعات الأخرى التى سكنت السهول

حضارة السودان الفرعونية

رغم قلة المعلومات لدينا عن حالة الحضارة قبل دخول السودان تحت تأثير الحضارة الفرعونية فى عصر الأسرة السادسة الاسوانية (٢٦٠٢ — ٣٣٩٢) ق.م. بانتقال السلطة فى الوجه البحرى إلى الوجه القبلى إلا أننا بتطور حالة مجتمع على أرض النيل وما وصل الينا من رقى يمكن لنا أن نقيس حالة لمجتمع جنوب مصر من جراء تشابه الظروف الطبيعية والاجتماعية .

فالمجتمع هنا زراعى كما فى الشمال . . مجتمع مستقر تطور من المجموعات الصغيرة إلى الممالك الكبيرة . . .

فقد عرف سكان السودان الحكم النظامى شبيه بالنظام الملكى فى مصر إلا أن . . تدخل كهنة الدين الملكى فى مصر جعل إمكانيات وطاقة شعب مصر فى يد الكهنة والملك حتى تطور ذلك النظام باستغلاله لطاقة شعب مصر إلى أقصى إمكانيات الاستغلال ، حتى تطور ذلك المجتمع من الوجه الحضارى فى استغلال إمكانيات شعب مصر لبناء السفن والعمارة وخضوع هذا الشعب لسلطة ورهبة الكهنة الأمر الذى لم يعرف فى السودان حيث لم يصل الدين إلى ما وصل إليه كهنة آمون .

باستقلال الناس فى السودان عن سطة الكهنة وبذلك وتحرر إمكانياتهم من سيطرة الملك ، جعل المجتمع السودانى على النيل جنوب الحضارة المصرية مجتمع ءالك ، أقل ثروة ، وأقل سيطرة على أفكار الناس حيث كان يعتمد النظام المصرى على السيطرة الروحية ، وتقديس الكهنة ، ثم الملك بما خلق طبقة معينة ، منفردة بالحكم لم يحد من قوتها إلا بتوسع مصر ، وتوسع أعوانها بخلق جيش عظيم هو جزء من السلطة حتى وصل الشعب فى بعض الظروف إلى حالة التجنيد

واجبارى ، وبذلك استطاع أن ينتقل من حالة العبوديه والطاعة والاستغلال إلى مستوى الجندى المحترم المنطوى تحت نفوذ القصر والمعبد .

ولبعد المجتمع السودانى من هذا التركيب الاجتماعى ، وتحالف القصر والمعبد عاش النظام الأول للملكية فى السودان باحترام جميع الافرادفى التجارة والملكية والعبادة حتى ظهرت الحضارة الفرعونية جنوب النوبة فى عهد الاسرة السادسة السودانية ، وحاولتها اخضاع أراضى النوبة وضمها اليها ، أو الاستيلاء على خيراتها وعمالها ، لبناء الحضارة الفرعونية الجديدة . التى كانت فى حاجه إلى كل يد عاملة ، وإلى كل امكانيات مادية لدعم هذا العمل الذى خلده النيل .

وقد غار حكام الوجه القبلى على أرض النوبة ، وزنوج السودان وبعدما أنهم توغلوا بعيدا عن أرض النوبة وكرمه لحاجتهم للعمال وخيرات النيل بعد انشقاق الدولة إلى قسمين ومحاولة مملكة الوجه القبلى (أسوان) أن بسط نفوذها على كل الممالك التى حواليها وإخضاعها لسيطرتها وليس هناك مجال لبسط نفوذهم غير جنوب النيل ولذلك كان طبيعيا أن يمدون نفوذهم إلى الجنوب ويستولوا ويخضعوا الممالك السودانية التى كانت قائمة على أرض النيل .

ولنا أن نتساءل هل كان هذا الاخضاع إدارى فقط.أم أنه امتد إلى اخضاع حضارى بأدخال العادات والعبادات الفرعونية على الاراضى الجديدة . . . . وهذا كان يتوقف على نوع السلطة الادارية التى أقامها حكام أسوان على جنوب النيل . .
ونحن لانعرف على وجه التحديد هل أنابوا عنهم فى هذه المناطق الحكام المحليين أم فرضوا على تلك الممالك حكاماً مصريين ، عن طريقهم يمكن أن تدخل مظاهر الحضارة الفرعونية مما لاشك فيه فى الحالتين أن سكان السودان

عرفوا بعض العادات والتقاليد الفرعونية من جراء حملات الجيوش المصرية وبقاءها مدة طويلة لأخضاع جزء كبير من أرض السودان كانت فى أثنائه تؤدى الشعائر والعادات المصرية كما إن إستجلاب عدد كبير من السكان المحليين إلى مصر ليعملوا فى الجندية أو كعبيد والاستفادة منهم فى أوجه النشاط العمرانى المختلف قد شبع هؤلاء بالتقاليد والعادات والديانات الفرعونية التى بدورهم كانوا سفراء فى نقلها إلى الجنوب بما فى ذلك العلوم والفنون والعبادات والتقاليد .

أننا يجب أن ننظر إلى هذه الفترة من التاريخ بفترة مليئة بالحركة والنشاط والتوسع حتى يمكن لنا أن نتصور حالة المجتمع القديم.

وقد خضعت أرض النوبة مرة أخرى فى عصر الأسرة الثانية عشر الطيبية (٢٩٦٣ - ٢٧٥٠) ق م ويبدو فى هذا العصر ظهرت دولة أثيوبيا عند الشلال الرابع ، ويبدو أن مملكة أثيوبيا كانت قائمة منذ قديم الزمن ، ألا أن سيطرة الأسرة السادسة لم تصل إليها .. ويبدو أن هذه المملكة الأثيوبية كانت تبسط نفوذها على الأراضى جنوب أبى حمد وكانت غنية وكانت ذات صلات تجارية فى حاصلات السودان مع مصر مما شبعها بآثار الحضارة الفرعونية ، ومصنوعاتها حتى جاء زمن كانت فيه هذه المملكة وريثة للحضارة الفرعونية لما لها من إستعداد وتقبل ومالها من امكانيات ونفوذ على أراضى شاسعة ،

وقد ظلت أرض النوبة متمردة على مر الزمن على النفوذ الفرعونى ويعزى ذلك لالرفض هذه الشعوب للعادات والحضارة الفرعونية ولكن لما كان يفرض عليها من ضرائب والتزامات من جانب تلك الدولة المتوسعة القوية وهذا يكشف لنا انفراد السلطات المحلية بالحكم وعدم توظيف حكام مصريين على هذه الشعوب مما جعل تمردها سهلا . . . ولكن امتداد الحدود المصرية حتى حلفـــا فى

عهد الاسرة السابعة عشر الطيبية (١٩٨٣ - ١٧٠٣) ق م . . . . .

فقد وصلت الجيوش المصرية حتى المملكة الاثيوبية عند الشلال الرابع .. وربما يجعلنا نعتقد بقيام الدولة الأثيوبية فى زمن بعيد هو محاولة ممالك الوجه البحرى الفرعونية أن يصلوا إليها ويستولوا على خيراتها . وزواج (اموزيس) ١٧٠٣ ق م من إبنه ملك أثيوبيا يدلنا على إن هذه المملكة كانت قائمة وكان لها شأن عظيم كما إن هذا الزواج كان يعبر عن تشابه التقاليد الاثيوبيه والمصرية حتى سمح بزواج هذا الملك من تلك الاسرة المالكة عند الشلال الرابع وهذا يكشف لنا أيضا انتقال الديانات والعلوم والفنون الفرعونية لهذه المملكة فى عصر قديم .. وربما تكن هناك بعض الدماء المصريه فى هذه الأسرة وربما لاتكن ولكن هذه الدولة الأثيوبية كانت صديقة حميمة لدولة طيبة وعبادة أمون والحفاظ على عبادة الآلهة المصرية حتى كان عهد الاسرة الحادية والعشرين (١١١٠-٩٨٠ق م) وتوحدت دولة طيبة وأثيوبيا ومدت نفوذها حتى سنار والحبشة ناقلة مظاهر الحضارة الفرعونية إلى تلك المناطق .. وهذا يفسر لنا قوة شأن هذه المملكة التى لم تصل إلينا وثائق تكشف عن إخبار ملوكها وحضارتها إلا إنها كانت ذات علاقات طيبة بملوك طيبة :

من هذا الرد تكشف لنا الحقائق التاريخية أن دولة أثيوبيا كانت قائمة قبل ثلاثة ألف سنة قبل الميلاد ولكن أخبار هذه المملكة لم تصل الينا ونكاد لانعرف شيء عن حياتها الداخلية وحضارتها الا فى القرن الثامن قبل الميلاد بظهور ملوك عظام استغلوا ضعف الحالة فى مصر وبسطوا نفوذهم شمالا إلى فلسطين وبلاد فارس :

<u>(٥٠٠٤ - ٣٠٦٤) ق : م (الاسرة الأولى إلى العاشرة):</u>

(١) الاسرة الاولى حكمت ٢٥٣ عاماً (الاسره الطينية ٩ ملوك)

أول حكومة ملكية حكمت مصر بعد الكهنة .

أول ملوكها مينا : قلل نفوذ الكهنة .. أسس القوانين والشرائع ظهر فى عهده علم الجراحة والطب وواسطة الملك (تيتا بن مينا) أشهر ملوك هذه الحقبة

الاسرة الثانية العربية (٤٧٥١ - ٤٣٤٩) ق م

أول ملك : بمعاير

خلفه كاكاو .. وعم عبادة العجل « أبيس » .

بينوتيرس : أول من سن القوانين وأباح للنساء تولى الملك

زعم أن الملك نائب الآلهة وابن الشمس ظهرت عبادة المصريين لملوكهم درجة تصل إلى الإلوهية :

الاسرة الثالثة المنفية ٤٣٤٩ - ٤١٣٥ ق م (المنفية) نسبة إلى مدينة منف

أول ملوكها نخروفيس : حاربهم الليبيون

خلفه توزرتروس كان عالما بالطب وكتب فيه وذهب بفن قطع الاحجار ونحتها حد الكمال

آخر ملوك هذه الاسرة سنفرو ، أول فرعونى ، وجدت له آثار .. ظهر فى عهد هذه الاسرة تمثال أبو الهول فى الجيزه وهو تمثال حيوان ضخم له جسم أسد ورأس انسان اشارة إلى القوة والعقل :

الاسرة الرابعة المنفية (٤١٣٥ - ٣٨٥٠) ق م

تحسنت أحوال الادارة والتنظيم فى عهد هذه الاسرة .. أوقفوا هجماتهم على عرب الصحراء شرقا والليبيه واهتموا بالاصلاح الداخلى . توسعت المملكة شرقاً واستولت على خيرات أراضى سينا

أعظم ملوك هذه الاسرة خوفو أو خيوبس الذى بنى الهرم الاكبر فى الجيزة وسماه خوت .. ويقال أنه سخر المصريين فى بنائه ثلاثون عاما — كان يستخدم منهم كل ثلاثة أشهر حوالى ألف شخص

وتولى أيضاً فى عهد هذه الاسرة « خفرع » أو « الافرن » . .

كان عهد هذه الاسرة قاسيا على الرعية فى تسخيرهم لتشيد هذه المبانى الضخمة مما قاد لموت الكثيرين وغضب الشعب . وبلغ الغضب الشعبى ضد هذه المملكة أن الجماهير بعد أن ضاقت بالتسخير أن أخرجت جثتى هذين الملكين وحطموا تابوتيهما .

وجاء بعد ذلك منقرع بانى الهرم الاصغر المجاور الهرمى «خوفو» و«خفرع» وقد سماه «حور» أى الاعلى وكان عادلا رحيما بالرعية . فأباح للناس التفرغ لشئونهم الخاصة بعد عهد السخرة التى عمت فى عهدى « خوفو » و « خفرع » ... وارتقى الفن والنحت والعمارة فى عهد هذه الاسرة شأواً بعيدا .

الاسرة الخامسة المنفية (٣٨٥٠ - ٣٦٠٢) ق م

أول ملوكها اسكاف .. كان محباً للعلم وعطوفاً على الرعية سن لها القوانين وبعده « نفرار كارع » ، ومن أشهر آثار هذه الحقبة الاثار التى وجدت فى مقبرة سقارة وقد بنى هذه المقبرة « ن » صرر الملك عزمم سابع ملوك هذه الاسرة وقد اهتمت هذه الاسرة بالحياة الداخلية وقل اهتمامها الخارجى مما قلل دخلها وانحط فى نهايتها الفن لانشغال الناس بأعمالهم وعودتهم الحياة الطبيعية بعد حياة التجنيد والتسخير .

الأسرة السادسة الاسوانيه (٢٦٠٢ — ٢٣٩٩) : ق م

ظهور النوبة فى التاريخ القديم :

ظهر اسم النوبة لأول مرة فى عهد هذه الأسرات وبذلك يمكن أن نؤرخ دخول أرض النوبة والسودان بخضوعها للآثار الفرعونية والعبادات والفنون من هذا التاريخ . . ولاشك أن هذا التدرج الذى قاد الأسر الفرعونية من الشمال إلى الجنوب جاء بعد صراع مرير وأخضاع لتلك المنطقة الجنوبية فقد إشتركت شعوب جنوب منطقة أسوان (النوبة) فى عمارة الأسرة الرابعة والخامسة واستخدم سكان تلك المناطق كعمال لبناء الأهرامات والمعابد لحاجة العمران الأيدى العاملة . ويبدو أن شعوب أرض سيناء وليبيا قد تمرسوا على القتال وأصبحوا فى حالة طيبة للدفاع عن أراضيهم . . . ولاشك أن تأثير الحضارة على شعوب شمال النيل والدلتا والتجارة بين شعوبهم قد أثمرت فى تنظيم الادارة فى جنوب النيل ورغم أننا لم نتحصل على وثائق تثبت حالة الادارة فى أرض النوبة والسودان قبل هذا التاريخ إلا أن التدرج الطبيعى لحياة الاجتماعية المستقرة على النيل قد خلق نظاماً اداريا يكفل الامن والنظام بين شعوب النيل جنوب أسوان . فقد انتقلت تلك الشعوب من حياة الأفراد إلى المجموعات فى الممالك الصغيرة التى نشأت على النيل وسارت فى نظامها الادارى الملكى بخلاف ماكان فى شمال الوادى حيث لم تخضع هذه الشعوب للآلهة والكهنة مثل ما خضعت شعوب الدلتا ووسط مصر .

فى عهد الأسرة الاسوانيه انقسمت مصر إلى قسمين الدلتا يحكمها ملك من منف والصعيد ويحكمه أول ملك من الأسرة الأسوانية . ويبدو إن مملكة الصعيد كانت اقوى من مملكة الدلتا للفتوحات الجديدة التى خطتها فى أراضى النوبه والسودان والخيرات الكثيرة التى جاءت إليهما حتى تمكنت الأسرة

الأسوانية فى عهد « بيبى مرينرع » ، ووحد المملكتين الدنيا وأسوان وجعل العاصمة أسوان وبذلك إنتقلت تلك الحضارة إلى الجنوب وانفتح بذلك السودان لمؤثرات الحضارة الفرعونية فى عهد هذه الأسرة واكتشفت المعادن فى السودان فى هذه الفترة وجاء بعد « مرينرع » الملك فيوبس ، الذى حدثت فى عهده ثورات كثيرة منها تمرد النوبة والزنوج . ويبدو أن هذا العهد توسع الملك فى الشمال بعيداً داخل أراضى السودان لذكر إسم « الزنوج » بجانب النوبة فى هذه الفترة . ثم خلفه « مرينرع » الثانى ثم خلفته أخته « نيتوقريس » ذات الحسن والجمال كما قال « مانيثون » المؤرخ الاغريقى .

الأسرة السابعة إلى العاشرة (٣٢٩٩ – ٣٠٠٦٣) ق . م

حكمت هذة الفترة أسرتان من منف والأسرتان الأهناسيتان بعد إنقراض الأسرة السادسة الأسوانية ويبدو أن تمرد الجنوب وإستردادة سلطته إضعف إسرة اسوان مما جعل إسرة منف تعود للسلطة من جديد ونقل العاصمة من أسوان إلى (إهناس) وفى هذه الفترة بعد أن خضع السودان والنوبة للمؤثرات الحضارية الفرعونية وتمكن من الاستقلال عنهما خضع لذلك للديانات المصرية والحضارة الفرعونية بعد إن فرضت عليه فى عهد الأسرة الاسوانيه .

الأسرة الحادية عشر الطيبيه (٣٠٦٤ – ٢٩٦٣) ق م

يبدو اهتزاز الملك بين الأسرات السابقة وانتقال السلطة وإنشقاق الدولة وانتقالها لأسوان ثم إلى إهناس كان فى عهد وصلت فيه السلطة المصرية دورا من التدهور مما قاد إلى هذا التغير السريع والتنقل . . وإذا كان هذا التنقل

وهذا الانشقاق قد كان كارثة على الدولة المصرية لكنه كان له فضله على الجنوب فى دخوله تحت تأثير هذه الحضارة فى عهد الأسرة الاسوانيه التى نقلت الحضاره للجنوب والنوبه والسودان . . حتى بات السودان بعد إنتقال السلطة للشمال مره أخرى ذات سيادة وحضارة ذات طابع فرعونى مستقلة كل الاستقلال ولا يمكن أن يكون لتلك الحضارة التى انتقلت للسودان فى عهد الأسره الاسوانيه من لرقى ما كان فى الدلتا ووسط مصر ولكنه كان بلاشك بدايه جديده فى الرقى والحضاره والتفكير الدينى ونظام الدولة .

ويمكن لنا أن نؤرخ تلك الفترة بفترة النهضة الأولى التى حدثت بعد إنتقال الأسرة من أسوان وإنزال تلك الحضارة عن الشمال .

وبعد إنتقال الحكم فى الجنوب إلى الشمال مرة أخرى بدأت الحياة تدب فى الدولة المصريه مره أخرى فى عهد الأسرة الطيبيه (نسبة إلى طيبه) وظهر فى عهد هذه الأسره « منتوحتب » الرابع لنزع الدلتا من ملوك أهناس ووحد مصر تحت سيطرته وعمر البلاد ووسع مملكته حتى سينا وفلسطين ثم جاء بعده ملوك لم يكن لهم شأن يذكر . انحصرت على يديهم اصلاحات هذا الملك .

الأسرة الثانية عشر الطيبيه (٢٩٦٣ - ٢٧٥٠) ق م

وفى عهد هذه الأسرة التى حكمت مائة وثلاثة عشر عاماً عادت لمصر مرة أخرى وحدتها وعادت طيبه مرة أخرى عاصمة الدولة الموحدة .

وبعد أن استتب النظام لهذه المملكة الطيبيه ووحدت السلطة الداخليه ورأت المستعمرات القديمة التى تمرد عليها وفكرت فى اعادة أرض (النوبة وأثيوبيا)

مرة أخرى . وقد ظهر اسم اثيوبيا هنا لأول مرة وقد كان يقصد به جنوب النوبه . . فقد كانت النوبة واثيوبيا وبهذه تطلق على الأرض جنوب مصر .

وقد خضع السودان مرة أخرى لسلطة هذه الدولة الطيبيه ويبدو هذه المرة أن جنود هذه المملكة قد ساروا داخل السودان وكان ذلك فى عهد الملك (امنحتب الأول) الذى عرف بالحكمة والحزم وحين حانت وفاته دعى ابنه وقال له هذه الوصية :

(يابنى لقد أصبحت حاكم الأقاليم الثلاثة) الوجه البحرى ـ القبلى ـ النوبة (وهذه أول مرة تصبح النوبة جزءاً لايتجزأ من المملكة الفرعونية) وقال : (فاقتد بأحسن ما كان يفعله أسلافك وحافظ على نظام الرعيه ولا تمكن فى معزل عنها ولا تعجب بنفسك ولا تقتصر على مصاحبة الغنى دون الفقير . . ولا تسرع بتقريب الوافد إليك فأن ضمائره خافيه عليك) .

وفى عهده استخرج الذهب من أرض النوبة وقام بغزوات عديده لها ورجع بالكثير من الغنائم والسبايا وأخضع كذلك لنفوذه خلف أراضى النوبة .

ثم جاء بعده إبنه (أوسرتيس) ثم جاء بعده امنحتب الثانى أو (سيزوستريس) الذى شاد حصونا وقلاعا فى وادى حلفا وقد وجد على بقايا هذه الحصون (هذا حد مصر الجنوبى وضع فى السنة الثامنه لحكم الملك (أوسرتس) .

الأسرة الثالثه عشر الطيبيه (٢٧٥٠ - ٢٥٦٦) ق . م :

وكذلك يبدو أن حدود مصر إمتدت ابعد من حلفا فى عهد المملكه وكذلك آثار هذه المملكة وغزواتها كانت تذهب بعيدا عن حلفا وربما كانت الرائضب

تحو من ملوك الممالك السودانيه جنوب حلفا وفى عهد هذه الاسرة توسعت فتوحات المملكة المصرية للجنوب حتى وصلت الشلال الرابع شرق كريمه . . .
وربما خلف المصريون على هذه الاراضى الجديده التى اخضعوها بعض الامراء الوطنيين أو بعض المصريين ولكن هذا الامتداد الجديد للجنوب قد نقل الحضارة الفرعونية إلى داخل السودان ونقل معها الديانات والنظام الادارى - وربطت هذه الممالك بحركة الدولة المصرية التى كان عليها أن تحافظ على هذه الحدود .

وجد بمدينة بوهين بقايا مدينة قديمة بها معبدين وقلاع من الأسرة الثانية عشر زارها شامبليون وروسيلينى ونقلوا آثارها إلى فلورنسا . أخذ تمثال أمون من قاعدته التى وجدها كابتن ليونز وارسل الى فلورنسا يرجع تاريخه إلى الاسرة الثانية عشر . وكان على أمراء هذه الممالك أن ينتهزوا فرصة أى ضعف فى الشمال ليعيدوا استقلالهم وكان أهالى السودان أكثر يقظة للبحث عن ضعف فى الدولة الطيبيه وفى نفس الوقت كانوا يحاولون أن يتقربوا للممالك المصرية واعتناق دياناتهم والاستفادة من نظامهم ومدأهنتهم . . . وهذه حال الشعوب والممالك .

والأسرة الرابعة عشر والخامسة عشر (٢٠٦٦-٢٣٨٢) (٢٣٨٢-٢١٤٣) ق . م :

حكمت مصر فى هذه الفترة الاسرة السخاوية أودولة العمالقة والرعاه . . وهم من قبائل الشام انتهزوا فرصة الشقاق فى مصر . . وقد كان العمالقة من العرب العاقلة .

الاسرة السادسة عشر الصانيه (٢١٤٣ - ١٩٨١) ق . م .

ظهر فى عهد الأسرة الصانية التى جعلت صان عاصمة لهم أيضاً من العرب

ومنهم (أبوفيس) الذى لقبة العرب (بالركبان بن الوليد) أنتزع ملوك هذه الاسرة الوجه القبلى من فراعنة مصر . . . وفى عهد هذه الاسرة ظهر سيدنا يوسف عليه السلام ومن قصة سيدنا يوسف عليه السلام تبدولنا صورة المجتمع فى تلك العصور وحالة الشعب والرعية ورهبة الفراعنة واستبدادهم وتحكمهم فى مصائر البشر كما تكشف لنا عن انتشار السحر والشعوذة سلطة الملك وحوله مجموعة من دجالى الدين الذين احترفوا الشعوذة والسحر وارهبوا الناس . .

الاسرة السابعة عشر (١٩٨٣ - ١٧٠٣) ق‌م

من تاريخ هذه الاسرة يظهر لنا أن الصعيد كان قد أنفصل عن الشمال حتى اضطرت لاعادته وبذلك تكون الممالك السودانية قد انفصلت واستقلت ادارتها عن الشمال والسبب عدم استقرار الملك على ارض النيل هو توسع هذه المملكة شرقا وجنوبا وغربا مع جعلها تخضع اجناسا مختلفة كما فعلت الدولة العثمانية فى العصور الوسطى مما سهل انفصال هذه الشعوب عن المملكة المصرية واعادتها مرة أخرى وبذلك أصبحت تخضع للعادات والتقاليد الفرعونية ثم تعود مرة أخرى لتقاليدها المحلية . . وفى تاريخ هذه المملكة التى حكمها الرعاة ٣١ عاما لاشك قلت فيه نهضة الحضارة الفرعونية ودخلت عليها مؤثرات جديدة .

وفى نهاية هذا العصر ظهرت الدولة النوبية الاثيوبية فى أرض النوبة .

وجد بمنطقة بوهين مع التمثال قائمة بعشرين مدن أخرى بين بوهين ودنقلا .

وتدل القائمة على غناء هذه المنطقة بالذرة والمحاصيل الاخرى

الاسرة الثامنة عشرة الطيبية (١٧٠٣ - ١٤٦٢) ق . م :

يبدو أن سلطة الاسرة الثامنة عشر الطيبية قد امتدت إلى الجنوب اكثر

عما سبقتها من ممالك . . ففى عهد هذه الأسرة ظهر ملوك وملكات عظام على مصر وسعوا حدودها وأخضعوا كل جيرانهم . . وقد ظهر لنا توسع الاسرة الثانية عشر الطيبية إلى الجنوب حتى الشلال الرابع ويبدو أنهم أقاموا مملكتهم الجنوبية هناك وقد تبعت تلك المملكة الجنوبية وصارت تابعة لهم ، أما عن ظهور المظاهر أو الحاكم المقيم . . . ورغم انفصال هذه المملكة عن سلطة مصر فى عهد الأسر المقبلة ولكن زواج أول ملوك هذه الأسرة الملك (امرتيس) الأول من أميرة مملكة أثيوبيا وهذا ما ترجمة بأنه كان يقصد به مملكة الشلال الرابع (كرمه) وليست أثيوبيا الحبشة .

تزوج أموزيس بابنة ملكة إثيوبيا (كرمه) وهذه المصاهرة لا يمكن أن تكون قد قامت بدون مقدمات . . . فلابد أن تكون مملكة إثيوبيا قد بلغت شأوا من التقدم والازدهار حتى تتطاول لمصاهرة ملك الشمال . . . أو أن - هذه المملكة كانت إنحدرت من ممالك الأسرة الثانيه عشر واحتفظت بزعامة إثيوبيا وتعود مرة أخرى بعد إستتباب الأمن فى هده الاسرة الثامنه عشر لتساعدها فى حروبهـا على ممالك النوبه والعرب العملاقة حتى إنتهى منهم بمساعدة دول أثيوبيا . . وهذا الاتحاد بين الجنوب والشمال ، خضعت منطقة النيل حتى الشلال الرابع لمظاهر الحضارة الفرعونية مرة أخرى . . وبهذه المصاهره بين ملك طيبة وأبنه ملك إثيوبيا فقد نشطت التجارة بين الشمال والجنوب وازدهرت العلاقات وأصبحت الممالك النوبية الكثيرة المتمرد محصورة بين مملكين توحدوا بالمصاهرة ضد أعدائها وبذلك قلت خطورة وتمرد الجماعات الصغيرة . وربما تكن فى هده الفترة قد خضعت كل مجموعات النيل لاشراف لدول الاثيوبيه وتم تمصيرها بمظاهر الحضاره الفرعونيه بعد تمرد النوبيين الدين عرفوا بعدم الخضوع لأى تمرد جديد .

ثم بعد وفاته إستلمت وصاية الملك زوجته نفرتارى على ابنه (امنوفيس)

حتى شب هذا الملك وفى عهد وصايتها قويت مملكة إثيوبيا وجاء ابنهـــا وأتم إخضاع الممالك النوبيه وضمها لمملكته . ولاشك أن هذا الاخضاع هذه المره كان كاملا لايتوقف على الجزية والعقوبات ولكن كان طريقة إشمل بتعيين نواب على هذه الممالك وهؤلاء النواب لاشك كانوا من القرات المصريين والاثيوبيين .

ثم جاء بعد إمنوفيس الملك (تحوتمس الاول) مصمما على ضم الشام والنوبة . وبايع النوبة خلفه تحتمس الثانى بلا قتال وهذا يعنى خضوع هذه الممالك لهذه الاسرة والاعتراف بأى ملك جديد تكتشف عن نفوذ وتبعية هذه الممالك النوبية وذلك من جراء الدم الذى تسرب إلى بلاط المملكة الفرعونيه .

ثم جاء تحتمس الثالث الذى استولت أختــه (هاتاسو) على الحكم نسبة لصغر سنه وانفردت بالحكم ووسعت بلادها وتوسعت فتوحات المصريين فى هذه الفترة .

ولما توفت عاد الحكم إلى أخيها تحتمس الثالث إعظم ملوك مصر الذى وسع مملكته وجند شعبه لهذه الفتوحات حتى أخضع الحبشة والنوبة ومعظم أراضى السودان وقد وصلت فيه لأول مرة جنود الحضارة الفرعونية إلى نهر العطبرة . ولكن لايمكن أن تعزل الحضارة قد دخلت إلى هذه السهول والحبشة فقد كان الاخضاع عسكرى وتجارى لم يسمح ببذر بذور حضارة شمال النيل وفى هذا العهد توسعت المملكة المصرية إلى الموصل والعراق واليمن وكردستان وأرمنيه وجزيرة قبرص ثم جاء بعدة إبنــه أمنوفيس الثالث الذى أمكنه أن يخضع السودان لسيطرته حتى النيل الازرق . . وبعد هذا التوسع المنقطع النظير كان لابد أن يتقى كاهل الدولة برقبة الأمن والنظام وهذا يحتم وجود ملوك عظام على مر الزمان .

ولكن ماحدث فى نهاية هذه الاسرة الثامنة عشرة الطيبية ان اضطرب الحكم فى هذه المملكة الشاسعة .. وتمردت الممالك السودانيه هذه المرة التى أشادت لها قلاعا وحصونا على طول النيل وعرفت المعابد المصريه بدخول الجنود المصريين والكهنة ورجال العمارة حتى تعلم أهل النيل هذه الفنون والعبادات وكثرت مظاهر الحضارة الفرعونية من عادات وفنون عند أهل السودان رغم ما عرفوا به من عدم الخضوع لأى سلطة خارجية فقد كانوا كثيرى التمرد والعصيان الأمر الذى قاد لارسال جيوش مصرية عظيمة فى عهد الفتوحات وبناء القلاع المصرية للحفاظ على طاعتهم . ولكن الفتوحات المصرية كان قل تعدادها فى عواصم النيل والنوبة حتى إصبح عدد هذه الممالك مرهون بقوة الملك فى طيبة وإستعدادة السريع لتأديب هذه الممالك المتمرده .

الاسرة التاسعة عشر الطيبيه (١٤٦٢ – ١٢٨٨) ق م

كان رمسيس الاول أول ملوك هذه الاسرة الذى وجد تركة ثقيلة وعاصمة واسعه الارجاء تفككت أوصالها فى الشمال والجنوب والشرق وكانت أمبيا مصدر قلق لهذا الملك .

وعادت الحروب من جديد لاخضاع إثيوبيا والنوبة والعراق والشام وإعادتها إلى حدود المملكة القديمة . . . وتطورت الفنون فى عهد هذة الاسره التى ظهر فيها ملوك عظام مثل تحتمس الرابع ورمسيس الثانى . . ولكن بعد عهد هؤلاء الملوك إختفت مظاهر التمرد والعصيان من جديد . . وتعرضت مصر لهجوم من الشمال من اليونانيين والليبيين وساء حال الحكم فى مصر وذلك لكثرة الجند الذين أصبح فى أمكانهم التمرد وقد كانوا من شتى الشعوب التى خضعت لحكم مصر . هنا تجمع أعداء آخر ملوك مصر لخلعه ووضعوا على عرش الملك رجل من عامة الشعب .

الاسرة العشرون الطيبية : (١٢٨٨-١١١٠)

ظهر رمسيس الثالث فى عهد هذه الاسرة وهو من سلالة أولئك الملوك العظام ولكن حال هذه الاسرة لم يختلف عن الاسرة السابقة فى مواجهة صعوبة الحفاظ على هذه الممالك الواسعة وهذه الشعوب المتمردة ..

الاسرة الحادية والعشرون الصانية(١١١٠ - ٩٨٠)

بعد إنتهاء الدولة الطيبية الثانية إستولت على الحكم إسره من (صاى الحجر) وانقسمت مصر إلى قسمين مصر الوجه القبلى تتبع الكهنة أمون وعاصمتها طيبة والوجه البحرى وكان فراعنتها الصانيين وقاعدتها صان ..

كان سمنوس هو أول ملوك صان وقد حاول إخضاع طيبة فى عهد ملكها الكاهن (حرحور) — . . . . الذى لم يرضى بتغلب الصانيين عليه فأتحد مع الممالك الجنوبية الاثيوبية ووسع مملكته حتى سنار واتحاده هذا لاشك كان مع مملكه كرمة عند الشلال الرابع التى إستطاعت أن تقوى نفوذها وتحتفظ بسيادة جنوب النيل حتى النيل الاز ق . . . . ويبدو إن العنصر المصرى والديانات الفرعونية كانت خاضعة لامون الأمر الذى حتم تطويع هاتين المملكتين فى زمن الشدة ومحاولة الصانيين القضاء على عبادة آمون . . .

الأسرة الثانية والعشرون البسطية (٩٨٠ - ٨١٠)

وقد عاد الاضطراب مرة أخرى لمصر بدخول شعوب كثيرة إليها حتى سقطت مصر فى إيدى الشعوب المجاورة وخاصة شعوب أسيا الذين مهد لهم ملوك الدلتا بالعمل والوصول إلى مراكز عظيمة وإنتقل الحكم فى عهد هذه

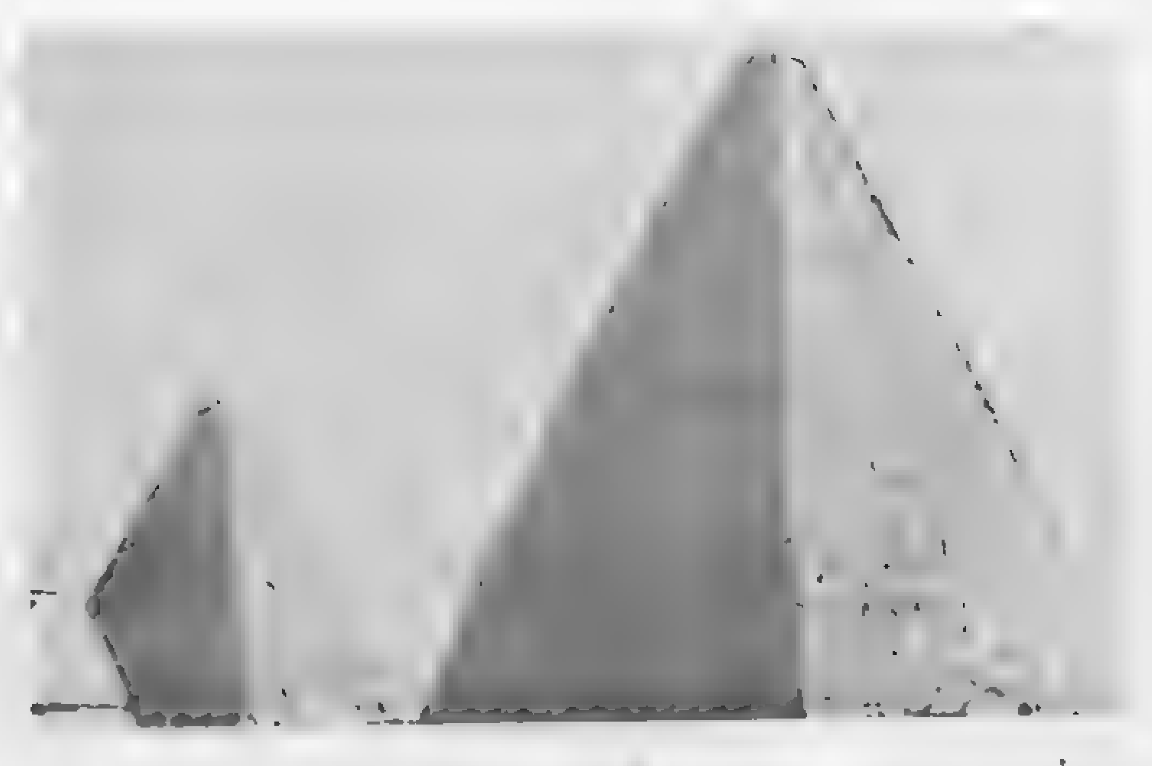
الأسرة إلى مدينة بسطة وهي من الأسرة الطيبية واستولى اشنق على الحكم وهو من العنصر السامي ثم حارب ملوك طيبة وأخضعهم وذلك مهد لانفصال اتحاد مملكة طيبة واثيوبيا واستقلال السودان مرة أخرى ! .. .. ..

ولم يستتب الأمر لأسرة من هذه الأسر المتعددة التي باتت تتربص بعضها البعض ومحاولة إستجلاب الأجانب والجنود المرتزقة للتمرد على الملك وخلعه : ثم ظهرت الأسرة الثالثة والعشرون الصانية .. .. (٨١٠ - ٧٢١ ق . م .) خالعة لأسرة الصانية التي ساعدت على انقسام مصر إلى أكثر من عشرين أمارة وبذلك تفككت الدولة المصرية العظيمة وأصبحت غير قادرة على الحركة في الداخل والخارج بعد أن انهكتها أطماع الأسر المختلفة للملك ..

وقد أغرى هذا الحال مملكة اثيوبيا للتقدم وإستيلاء طيبة حتى عاد الصاويون مرة أخرى لاسترداد طيبة من الاثيوبيين .

الاسرة الرابعة والعشرون الصاوية (٧٢١ - ٧١٥)

ساءت الظروف في مصر وأصبح الملك أمنية كل قادر وأصبحت الأسر القديمة التي ورثت الحكم كل منها تحيك المؤامرات للاخرى حتى خضعت طيبة مرة أخرى لتعود للاثيوبين وذلك لاختلاف ملوك الوجه البحرى ... وقد انتهز الاثيوبيين مساعدة الصاويين لاستعادة ملكهم واستولوا على أرض الوجه القبلي حتى ظهر تفنخت وطلب من الاثيوبيين فرض الشروط التي يطلبونها والاعتراف به ملكاً على الوجه البحرى وكان هذا مؤسس الاسرة الرابعة والعشرين . وجاء بعده (بكوريس) القانوني الشهير الذى قضى سبع سنوات في نزاع مع الاثيوبيين طمعاً في طردهم من مصر ولاشك أنه كان يستعمل الفرائض وتفسير القوانين بعدم شرعية حكم الاثيوبيين وبقائهم في مصر ..



أهرامات مروى شرق معبد الهيكل حيث دفنت ملكة نبتة في القرن الثامن قبل الميلاد.



معبد الأسد بالنجعة .. بناء الملك ناتاكامين (١٥ ق٠م٠ — ١٥ م٠) تابع لمروى القديمة .



[illegible]

ملكة نبتة خلدها مليكها طهرقة العظيم .



كما إستمر الاثيوبين فى محاولتهم لضم الوجه البحرى إليهم ولكن يبدو أن . الدولة الاثيوبية بدأت تدخل مراحل التوسع الذى طرأ على الممالك الاولى وأصبح بعد عاصمتهم (نباتا) على الوجه البحرى حائلا دون توسعهم حتى ظهر الملك (بكوريس) ملكا على الوجه البحرى فحارب الاثيوبيين فى عهد ملك (نباتا) (الملك سبقاون) الذى خلع (بكوريس وأحرقه واستولى على ملك مصر جميعها وانتهى بذلك عهد ملوك الاسر المصرية لتدخل مصر فى حكم شعب الجنوب من القرن الثامن قبل الميلاد ...

الاسرة الخامسة والعشرون الاثيوبية) (٧١٥ — ٦٦٥)

أحب شعب وادى النيل ملكهم سباقون بعد أن قضى على الفتن والمؤمرات للملوك ومعاملاته الطيبة الحسنة للرعية وخط سياسة رشيدة لدولته الجديدة حيث لم تختلف ديانات وعبادات دولة نباتا عن الوجه القبلى وعبادة أمون .. وأعاد الحياه والتجارة بين شمال النيل وجنوبه وتوسع فى مملكته وأشاد المبانى وأعاد بناء القديم وتوسع فى منشآته من المدن والمعابد والقصور ولأول مرة ينعم شعب وادى النيل بالاستقرار ويتفرغوا للعمل والحياة الطبيعية ولكن إطماع هذه الدولة الجديدة الشابة المنتصرة حاولت التوسع جنوبا حتى النيل الأزرق وسهول البطانة والحبشة وإخضعت إواسط السودان وضمته لهذه المملكة وفرضت عليه مظاهر الحضارة الفرعونية التى إنتقل مركزها من الدلتا إلى طيبة ثم النوبه حتى وصل إلى البركل ثم مروى القديمة ...

ومن فضائل (سباقون) انه ألغى حكم الاعدام .. وبعد أن نظم حكم مصر وترك مصر تحت رعاية أمة الملكة (اميرتس) .... وذهب لنجدة ملك الشمال (هوشع) ملك إسرائيل (وحزقيا) ملك يهوذا وأمراء فلسطين

الذين استنجدوا به من ملك آشور الذى هزم هؤلاء جميعاً مما أضطر سباقون للعودة لمصر ووجد أمراء الوجه البحرى قد تمكنوا فى غيابه ولسماعهم بأنهزام جيشه أمام الاشوريين اعلنوا استقلال الوجه البحرى (الدلتا) وحاربوه حتى طيبة حيث أقام إلى أن توفى بها . .

وخلفه ابنه سبيخون ورأى نارالفتنة تدب من جديد بين أمراء الوجه البحرى فأغار عليهم محاولا إسترداد الدلتـــا إلى مملكته حتى تمكن من استرجاعها . . .

هنالك اختلاف حول إستلام ترهاقا للسلطة فبعض المصادر تفيد أنه قتل شبكتو بعد أن استولى على عرش نباتا والبعض تفيد أن شباكو أوصى به له .

ثم إستلم السلطة ترهاقا بعد أن اقصى سبيخون (شبكتو) وفى عهده فاض النيل واستبشر الناس بعهده . . وكانت الدلتا وأرض فلسطين والعراق تضج بالحركة و طامع ملوك أشور لامتداد سلطانه إلى النيل ، وتطلع ترهاقا لبسط نفوذه على ارض الشاميين والفلسطينيين التى كرهت سلطة الفرس وبطشهم . وكان ترهاقا ذكيا فطنا فلم يعمد إلى محاربة خصمه (إسرحدون) ملك أشور مباشرة بل عمد إلى دس الدسائس بين الولاده التابعين لاشور حتى يفكك جبهة القتال التى تقف بينه وبين (أسرحدون) وقد بلغ الاخير محاولات ترهاقا لبث التفرقة بين عماله على فلسطين والشام . . فأغضبه ذلك وتقابل الجيشان وانهزم ترهاقا وتابعته جيوش الاشوريين إلى ما وراء الشلال الاول . . . واستولى الاشوريين على منف ثم عاد ترهاقا واستعادها ثم استردها الاشوريين مرة أخرى وصار الصراع بين الاشوريين وترهاقا على مصر حتى تنازل الاشوريين وعقدوا صلحا مع ترهاقا . . . ومن ثم قلت سلطة الأثيوبيين على الوجه البحرى

بظهور دولة الأشوريين القوية فى الشرق ودولة نباتا القوية فى الجنوب جعلها مصر أرضاً للحرب وميداناً للقتال بين قوتين شابتين حين دب فيها الفساد فأمراءها لايستطيعون ان يقفوا صراحة مع أشور أو مع مملكة نباتا ولايستطيعون أن يعادوا هذه ولاتلك والحرب يوم نصر لهما ومرة لعدوه مما أضعف الوضع فيها وإضعف اعاد حكام يساندون أحد القوتين لتخفيف نصر كامل حتى اقنع الاثيوبيين بطيبة ثم جاء بسماتيك الاول الصاوى على الوجه البحرى واستعان باليونانيين على بناء دولته وتلومها وحفظ ود الاثيوبيين بزواجه بأميرة من بنات الاسرة المالكة الاثيوبية فاسترجع طيبة وضم مصر الجنوبية وعادت دولة إثيوبية إلى قواعدها الاولى حتى جهر قمبيز ملك فارس وأدخل مصر تحت حكمه عام ٥٢٧ ق م وبذلك دخلت مصر عهداً جديداً فى خضوعها لمظاهر الحضارة الفارسية ثم بعد ذلك لمظاهر الحضارة اليونانية والرومانية . . .

اما دولة اثيوبيا فقد أصبحت بعيدة عن سهام الفرس كما إنها اقتنعت بحدودها ومدت نظرها لبسط نفوذها للجنوب حيث كانت تمتد جنوب النيل الازرق قبائل الشلك والعناصر السودانيين التى كانت تسكن أرض الجزيرة الغنية والنيل الأزرق .

دولة نبـــاتا

بعد إنهاء حكم الاثيوبيين فى الوجة البحرى والقبلى وجلاء الآشوريين عنها اعتلى عرش لوجه البحرى الاسرة السادس والعشرين الصاوية وفى عهد الملك بسماتيك الاول الذى استعان باليونانيين على تنظيم البلاد وتكريمهم والاحتفاء بعلمائهم إستطاع بمعاونة اليونانيين من طرد الاثيوبيين من طيبة وجنوب مصر وبذلك إنتهى أثر السيطرة الاثيوبية على مصر وكان ذلك فى عام ٦٥٠ ق م وبعد أن إستتب الامر لبسماتيك ، بدأ إعادة الحياة لمصر وقرب اليونانيين وجندهم وجعل منهم قواده واكرمهم إلى حد جعل جنود المصريين يغضبون عليه ويقصدون إثيوبيا حيث رحب بهم ملك نباتا وكرمهم واستفاد بهم فى تنظيم جيشه وفتوحاته لداخل السودان .

ورغم قلة المصادر حتى الآن عن دولة طيبه بعد القرن السادس الميلادى الا أننا يمكن أن نتصور حال البلاد بعد أن إكتمت دولة نباتا بالانتصارات الداخليه وإمتداد فتوحاتها إلى الداخل وانتشار العمارة والفنون والاستفاده من الجنود المصريين الذى تركوا خدمة بسماتيك الأول الذى بدأ فى ادخال . علوم اليونان وقواتهم ليمهد بذلك لدخول الحضاره اليونانية على الحضاره الفرعونية :

فى السودان يتوسع فى نشر هذه الحضاره الفرعونية جنوبا وتخضع له كل المهالك الناحة على النيل الازرق حتى سنار وتظهر عاصمة ثانية عند مروى القديمة ناحية كبوشية لتتولى اداره البلاد وتتولى نباتا العاصمة ادارة الجزء الشمالى .

كان هذا فى هذا العصر الذى بلغت فيه الحضارة الفرعونية عظمتها ورقيها

فى السودان وامتلأ النيل بالمعابد والقصور والفنون الفرعونية من حلفا حتى أرض الجزيرة ..

وبمرور الزمن دخلت الحضارة الفرعونية فى عصر الركود والخمول من جراء دخول الحضارة اليونانية ثم بخضوع مصر لحكم قمبيز ملك فارس عام ٥٢٥ ق م وتأسيسه الاسرة السابعة والعشرين الفارسية التى نكلت بالمصريين وبعاداتهم وحرمت عليهم عبادة العجل آبيس ، وأبطال الشعائر الدينية الفرعونية ، وكان السودان فى ذلك الوقت ملجأ للهاربين من بطش الفرس والراغبين فى نهضة السودان لإنقاذ مصر من وحشية الفرس ويبدو ان حكام نباتا لم يفكروا فى هذا العمل مرة أخرى بعد هزيمة ملوكهم العظام بعانخى وترهاقا بجانب قوة الدولة الفارسية التى ارهبت العالم ونكلت باعدائها أشد التنكيل هذا كله جعل حكام نباتا لايتقدمون لانقاذ مصر خوفاً من ادخال أنفسهم ومملكتهم فى حروب مع هذه الدولة القوية المرشة التى ربما زحفت عليهم ودمرت حضارتهم بعدما دمرت حضارة مصر واذاقة شعبها مر العذاب وحرمت عليهم شعائرهم الدينية وعاداتهم .. وبذلك انفصل تاريخ السودان من ذلك التاريخ عن مصر ولم يحاول ان يدخل نفسه فى شئونها ودات للضعف الذى بدأ على دولة نبتة وتوسعها وانقسامها الى أمارتين وخصوصاً مع مصر لسيطرة دولة قوية بعيدة دائماً عن ديارها وحضارة السودان الفرعونية .. وربما حفظا على هذا التراث من المؤثرات التى طرأت على مصر وازدهرت فيها واعادت لها الحيوة من جديد

اقتنع السودان بأثار الحضارة الفرعونية التى لم يأتى ملك عليهم ليرفع من شأنها أو يقودها ولم يستتب الامر مع ذلك للفرس فى مصر فاعمالهم الوحشية ومساعدة اليونانيين المصريين لذين كثر عددهم فى مصر وبذوغ دولتهم حرض المصريين للثورة على الفارسيين حتى أنه وهم ولكن ذلك لم يعطها استقلالا نهائيا

وانما كان تمهيدا لإخضاع مصر مرة أخرى للحضارة اليونانية بدخول الإسكندر المقدونى عام ٣٣١ ق م مصر وضمها للامبراطورية الرومانيه بعد إن فتح بلاد أسيا الصغرى وصيدا وصور . . واستمر حكم اليونان فى مصر حتى إعتلى احد قواد الاسكندر بطليموس بن لاغوس عرش مصر ودخلت مصر في عهد البطالسة حتي آخر ملوكها كليوباترة سنة ٣٠ ق م .

وفى هذا الأثناء تطورت حياة مصر العلميه والفنية بانشاء جامعة الاسكندرية وبدخول العلوم اليونانيه كالفلسفة والفلك والعلوم العقلية وأزدهرت حياة مصر العلمية والفنية خلال الـ ٦٠٠ سنة التى خضعت فيها للحضارة الرومانية . ويبدو أن هذه الحضارة بعمارتها وفنونها وعاداتها قد وصلت للسودان وخاصه الفنون .. لان حسن الجوار بين المملكتين كان قائما فلم تحدث أى غارات أو هجوم بين الدولتين خلال تلك الفتره ولم تفكر احـــدى الدولتين فى بسط نفوذها أو مظاهر حضارتها بالقوة على الاخرى وأستمرت الحياة التجارية والتبادل الثقافى والفنون الرومانيه تفد للسودان عن طريق الهاربين والتجار والعمال ولكن هذا الاثر كان بسيطا لتعارض هذه الحضارة وتعاليمها مع الديانات المصرية بالسودان فلو سمح بدخول العلوم اليونانية يعنى ذلك الاعتراف بديانة أخرى غير ديانة الفر عنة والحضارة الفرعونية التى استوطنت السودان .

ويبدو أن السودان دخل فى مرحلة من مراحل الضعف والتفكك فى هذه الفتره فلم يحاول أن يستفيد من العلوم والفنون الاغريقية أو الرومانية على غرار جامعة الاسكندرية أو ارسال المبعوثين أو إقامة الاروقة وذلك لانعدام الصله بين حكام مصر من الرومانيين وبين حكام « نباتا » الذين كانت لهم علاقات طيبة مع حكام مصر من الوطنيين وصلت حد المصاهرة والمعاملات والمساعدات العسكرية .

وظل تاريخ الممالك السودانية الفرعونية خلال تلك الفترة يقبع تحت الاتربة وبقيت بقايا الآثار مبعثرة لم تكشف عن نفسها شيئاً يذكر حتى دخل السودان فى العهد المسيحى ، ولم تحاول الدولة أثيوبية مرة أخرى أن تعاود الهجوم على مصر الا فى عهد أغسطس والى مصر الذى خرج لاحتلال شبه الجزيرة العربية وانتهز حكام « نباتا » هزيمتة وبعــده عن صعيد مصر لاحتلال مدينة اسوان وضواحيها ، وكان ذلك قبل ميلاد المسيح ببضع سنين ، ولكن أغسطس عاد وحارب الأثيوبيين حتى عاصمتهم « نباتا » وأجلاهم عن مصر مرة أخرى وهذا يدلنا على قوة مملكة « نباتا » حتى ظهور المسيح ودخول مصر فى ملك الدولة الرومانية ..

المسيحية فى مصر والسودان :

ولد المسيح بأرض فلسطين بقرية بيت لحم ولما بلغ من العمر سنتين أتت به أمه إلى مصر مع يوسف النجار حيث عاش فيها أربع سنوات ..

ظلت مصر تحت حكم متقلب بين قسوة القياصرة الرومان وعمتها الفتن وعاش الشعب فى ظلم شديد فى آخر عهد القياصرة . وفى هذا الاثناء عمت الديانة المسيحية الشرق ولقى روادها الأوائل الكثير من صور العذاب والاضطهاد وقد لقى رواد المسحية بمصر النصيب الأكبر من هذا العذاب ، من القياصرة الرومان . وقد ظهر بمصر رجالا حملوا عبء هذه الرسالة . وقد كانت الاسكندرية هى المقام الاول لهذه الرسالة . ولكن قسوة قياصرة مصر لم يسمحوا للمسيحين بأعلان إيمانهم بل طاردوهم وجند الجند للقبض على كل من يثبت عليه ايمانه بالمسيحية حتى قادت هذه المطاردة وهذا التعذيب لظهور مذاهب وسلوك رجال الكنيسة فيما بعد .

اضطر الاضطهاد الدينى فى مصر المؤمنين بالمسيح بعد البطش والتنكيل ، أن هجر المؤمنين بالمسيحية المدن القرى واعتصموا بالجبال والوديان وقد عمر وادى النطرون بمجموعة من الهاربين من هؤلاء المؤمنين . كما كان صعيد مصر ملاذا لهؤلاء النساك ، فوجدوا فى ودیانه وشعاب جباله وبعده عن أعين الجند وأعداء الدين أمانا لحياتهم وللعبادة والهروب إلى حيـــاة النسك وقد كانت الواحات والصحارى أحسن الأماكن لاقامة هؤلاء النساك ومنهم الأنباء باقوم الذى تولى الاشراف على النساك فى الصعيد عام (٣٢٧م) وخط فى حياة الكنيسة القبطية مبدأ الرهبنة والعمل الجماعى . . لأن الكنيسة حتى القرن الرابع الميلادى لم تولد وحياه الرهبنة لم تبدأ بعد بالصورة التى نراها اليوم . فقد عاش رجالها يناضلون ضد الظلم والتعذيب حتى خطوا لسالفهم هذا السلوك .

تحمل المسيحيون من الأقباط رسالة المسيحيـــة والاختباء . . . بالواحات والوديان وأوجدوا فكرة الدير .

عاشت المسيحية فى مصر حتى القرن الخامس والسادس الميلادى فى صراع مرير بين الأطراف بينها من الحكام وبين التفسيرات الدينية بين كنيسة الإسكندرية ورهبان وادى النطرون وكنيسة القسطنطينية وكنيسة الامبراطورية الرومانية الغربية . . . وحركة الرهبنة التى ظهرت ووقفت فيها كنيسة الاسكندرية ورهبان وادى النطرون موقفاً مشرفاً فى تاريخ الديانة المسيحية .

نبذة عن ملوك السودان العظام

(كشتا – سباقون)

لم يترك لنا ملوك مملكة نباتا أو الدولة الأثيوبية أى كتابات حتى يمكن عن طريقها كشف التاريخ القديم أو حياة هذه الممالك ونحن لا نستطيع أن نقول أنه لا توجد كتابات أو أنهم لم يخلفوا لنا أى آثار . ولكننا لم نستطيع حتى الآن أن نعثر على آثار قديمة تكشف لنا عن تاريخ ملوك عظام رغم قدم الدولة الأثيوبية وصداقتها لدولة طيبة وتوسع هذه المملكة جنوباً حتى سنار والحبشة والنيل الأزرق .

من أخبار مملكة نباتا نعلم إن كشتا ليس هو مؤسس هذه المملكة ولكن بما خلفه من الآثار نعلم أنه من أول الملوك العظام الذين وصلتنا أخبارهم ، إذ أنقذ مصر من سيطرة الليبيين ومؤامرات الأسر المتعددة للحكم وتطلع الآشوريين للسيطرة عليها . فقد وصلت مصر فى القرن الثامن قبل الميلاد إلى حالة من التفكك والمؤامرات مما جعل استتباب السلطة لبيت أو لملك أمراً مستحيلاً وقد رأينا أسر كثيرة متعددة الأسماء تتطلع إلى حكم مصر حتى تقسمت مصر فى عهد الأسرة الثالثة والعشرين الصاوية (٨١٠ - ٧٢١ ق م) إلى أكثر من عشرين امارة . ومما سهل غزو مصر الدولة العظيمة التى انتهت الى أمارات صغيرة من جراء الفوضى والصراع على السلطة كما أن تدخل الأثيوبيين المستمر فى طيبة والمصاهرة التى قامت بينهم وبين الأسرات الحاكمة جعلتهم على علم ببواطن الامور فى مصر كما أن اشتراكهم واتحادهم مع أكثر من أسرة جعل لهم نفوذاً عظيماً فى مصر تقيدهم بالديانات المصرية جعلهم يحافظون على مصير هذه الديانات حتى وصلت

مصر فى عهد الاسرة الثالثة والعشرين الصاوية لتلك الحالة من التحكم وكثرة المؤامرات فيها وتدخل الليبيين وتطلع الاشوريين للزحف عليها الأمر الذى جعل مملكة نبتة القوية المنيعة حافظة ديانة أمون التحرك لتنقذ مصر وتوحدها وكان ذلك فى عهد الملك العظيم بعنخى .

وأول ملك أثيوبى (سودانى) أعتلى عرش مصر وكون الأسرة الخامسة والعشرين الاثيوبية (سباقون أو كشتا) الذى ثار على بكوريس ملك الوجه البحرى وأحرقه وأخضع جميع مصر تحت سلطته ودانت له دولة تمتد من الدلتا إلى النيل الازرق وتهرقا . .

ولنصف هذا الملك يجب علينا أن نرى الظروف العصيبة التى كانت تعيش فيها مصر والفتن الداخلية وتآمر الامارات على بعضهـــا وطمع كل ذى سلطة قديمة فى الملك حتى أضحى الوصول إلى الملك أو الامارة مغامرة من مغامرات القرون الوسطى التى حدثت فى اوروبا وانجلترا . جاء كشتا الى أرض طيبة والوجه البحرى وشعب مصر يقف معه ويحبه لما أبداه من حسن ونظام وعدل وطرد الليبيين من مصر .

وفى الداخل مازالت أطماع الأمراء السابقين تراودهم ولا يمكن أن . . . يصمت مثل هذا العدد من الطامعين فى الحكم بالهزيمة . هذا فى الداخل أما خارج مصر فقد استجد به هو شع ملك اسرائيل وحدقيا ملك يهوذا وكذلك امراء فلسطين من خطر ملك أشور الذى كان يستعد لضم هذه الممالك الى مملكة آشور .

فما كان من كشتا الا أن جرد جيشه وقاده بنفسه وسار تتبعه جيوش هذه

الممالك الا أن ملك أشور هزم بجيشه العظيم هذه الجيوش المتحدة وفرقها مما اضطر كشتا للعودة الى مصر لاسترجاع قوته واعادة النظر فى خططه لهذا العدو

وفى هذه الاثناء انتهز أمراء الوجه البحرى هزيمة جيوش كاشتا ضد جيوش آشور فاعلنوا تمردهم وانفصالهم عن سلطة كاشتا وتصـــدوا للجيش المهزوم وردوه الى طيبة حيث استقر وأعاد النظام لمملكته الواسعة حتى توفى بها .

• • •

شبكتو : (٦٩٨ — ٦٨٣ ق . م .)

خلف شبكتو عمه سباكوا على عرش نباتا وقد أعتلى العرش وما ذالت أحلام ملكة مصر هى توحيد مصر ، وطرد خطر الاشوريين منهـــا تراود حكامهم ولكن المنيه لم تسمح لهذا الملك أن يستمر فى الحكم الا أنه بحسب درايته عرف من يستطيع من أسرته القيام بهـذه المهمه الخطيره بتوحيد البـلاد وتأديب الأشوريين غير أخيه الاصغر ترهاقا :

ترهاقا : ٦٨٨١ — ٦٦٣ ق . م .)

ظهر ترهاقا وهو يدرك المسئولية العظيمه التى ولاها له أخيه (شبكتو) بالحفاظ على وحدة وادى النيل وطرد الاعداء منها والمحاوله لنجدة شعوب فلسطين والشام التى أخضعها الأشوريين قسرا . . فما كان من ترهاقا إلى أن يعيد الأمل إلى أمراء هذه المناطق ومحاولته إرسال المناديب وتأليبهم على الاشوريين حتى انكشفت خطته قبل أن تأتى ثمارها مما جعل (أسرحدون) ملك أشور يختار له جيشاً لمحاربته . والتق الجيشان على الحدود وأنهزم جيش ترهاقا وفشلت خطته فى أزالة خطر الأشوريين . ولم يترك الأشوريين جيش ترهاقا المنهزم فقط ، بل تابعته حتى الشلال الأول . ولكن الملك الفتى لم يقتنع بالهزيمه فعاود الكره على جيوش الأشوريين حتى إقتنعوا بنفـ وأستمر القتال بين الأشوريين وترهاقا زمنا طويلا مرة ينتصر عليهم ومرة ينتصرون عليه حتى تركه الأشوريين مقابل أتاوة سنوية . . وقد أحييت هذه الحروب أطماع أمراء الوجه البحرى من جديد .

وكان الوجه البحرى مصدر قلق وتمرد للدوله الأثيوبيه . خلال محاولة بسط سيطرتها عليه .

تانون آمون :

إستلم السلطة بعد وفاة خاله ترهاقا وكان تانون كخاله شجاعا ذا أطماع وطموح فى إعادة توحيد مصر وطرد الآشوريين والليبيين عنها فجرد جيشا لطرد الآشوريين وقوبل جيشه عند طيبه استقبالا حسنا من شعب مصر ثم سار إلى الدلتا حتى دانت له ولكن الآشوريين لم يتركوه يهنئ أمراء الوجه البحرى حتى عادوا مرة أخرى بجيوش عظيمه لطرد الاثيوبيين من مصر حتى إقتنع تانون آمون بالهزيمة وعاد لعاصمة نباتا وبعده لم يستطع ملك بعده لاعادة توحيد مصر بعد أن قويت دولة الفرس وأصبح خطرها يهدد دولة نباتا فاقتنعت بالسلام معها وتوسعت مملكتها داخل حدود السودان .

(دولة نباتا ومروى القديمه)

بعد أن تعزز على ملوك دولة نباتا الاحتفاظ بالسلطة على مصر حاولت أصلاح أمورهم الداخلية والرقى بعباداتهم ومنشآتهم فأنشأوا المعابد والقصور وأصبحوا حافظى حضارة الفراعنة بعد أن دخل الفرس مصر واساءوا معاملة سكانها ودياناتها ومعابدها حتى قضوا على معظم معالم الحضارة الفرعونية .

أصبح السودان بعد عودة تانون آمون ملجأ للحضارة والفنون الفرعونية وبذلك أنشغل الحكام فى ازدهار هذه الحضاره على أرض النيل جنوبا وأقاموا مراكز لهم فى جنوب نباتا وفى هذه المراكز الهامة مروى القديمه التى اقتسمت الحكم مع نباتا وأصبحت هى المشرفه على المنطقة جنوب شندى حتى منطقة الجزيرة والنيل الأزرق .

دولة أكسوم المسيحية فى الجانب الشرقى من السودان

تحدثنا عن علاقة السودان القوية بمصر ، وقيام الحضارة العظيمة على النيل فى الشمال وقيام دولة (نباتا) العظيمة لتزحف فى القرن السابع قبل الميلاد لتحرر مصر من الاضطرابات وتبعد عنها خطر الأشوريين والليبيين وتمسك بزمام مملكة طيبة ثم تستولى على الوجه البحرى . . .

وتابعنا قصة الحضارات والإمبراطوريات العظيمة التى ظهرت فى الشرق ودخلت مصر وأبعدت عنها السودانيين . وذلك من قراءة الوثائق والآثار التى خلفتها لنا تلك الحقبة ولكننا لم نتطرق إلى شرق السودان والبحر الاحمر خلال تلك الفترة حتى ليظن أن هذا الجانب من القارة الافريقية . كان ميتاً معدوم الحياة والسبب راجع لا لرغبة المؤرخين فى تجاهل هذا الجانب ، ولكن لفقدان أى دليل يلفت النظر إلى ذلك الجزء من القارة الذى شد إنتباهنا اليه فى القرن السادس الميلادى وإفصاح الوثائق والروايات التاريخية عن حضارة عريقة فى هذا الجزء من افريقيا والبحر الأحمر وعلاقته بالجزيرة العربية وخاصة اليمن .

تحدثت الوثائق التاريخية والآيات القرآنية عن دولة عظيمة لها من القوة والمناعة ما يجعل تصور نشأتها وتطورها إلى عدة قرون قبل الميلاد .

ظهرت دولة أكسوم وملكها ملك الملوك « غالب » الذى كشف تاريخه عن حضارة الحبشة وتقدمها وسيطرتها على هذا الجزء من إفريقيا وفرض سيطرة شعبها عن الامارات العربية فى اليمن .

وتحكى لنا قصة إكسوم وملكها «غالب» ان الاثيوبيين كانوا يقومون بأعداد

كبيرة فى اليمن وأن المسيحية دخلتهـا فى القرن الرابع الميلادى وهى فى أوج مجدها وقوتها وأصبحت هذه الامبراطورية العظيمة على الهضبة الحبشيه قائدة للتبشير المسيحى فى أفريقيا وجنوب الجزيرة العربية وبلاد السودان .

واذا كانت الوثائق لم تكشف لنا حقيقة قيام دولة إكسوم بالهجوم على دولة مروى القديمة وتخريبها ولكن غيرة هذه الدولة على المسيحية ومحاولة بسط نفوذها وقرصنتها عبر البحر الأحمر على العرب تبين لنا إن الباعث الأول كان لتحطيم تلك الحضارة الدينية التى أقامت على الجزيرة العربية والنيل الأحمر الذى قاد لتحطيم تلك الحضارة الوثنيه فى السودان وممالكها وظهور مملكة علوة المسيحية بعد هذا الدمار الذى الحقته دولة اكسوم بمملكة مروى القديمة .

وتروى قصه ملك الملوك « غالب » ملك الحبشة بعد أن تعرض بعـــد الأحباش المسيحيين للقتل باليمن ، أن أرسل قواته لليمن وقتل منها أعداداً هائلة من عباد اليهوديه وبناء الكنائس فى محاولته الجريئه التى ذكرها القرآن بقيادة قائد جيشه ابراها وعبوره للبحر الأحمر ودخوله الجزيرة العربيـة ومكة لتحطيم الكعبة وفرض المسيحيين على العرب وقصة الفيل والطير الأبابيل التى جاءت فى القرآن والامكانيات البحريه العظيمه التى كانت لدى هذا الملك للتحرك فى هذه الحقبة لليمن أو الى مكة تكشف لنا عن مدى تقدمها وقوتها كما تكشف لنا وسائل النقل عبر البحر الأحمر كانت يسيره والسفن تعرف عبر هذا المضيق ولم يكن هناك مانعاً أمام الاوائل بل كانت الملاحة أمراً عادياً .

فشلت حملة ابراها قائد جيش غالب ملك أكسوم عام ٥٧٠ م . وعادت المملكة إلى حالتها الأولى بعد هذه الخسائر ومحاولتها لمحاربة اليهودية فى الجزيرة العربية تكشف لنا عن العلاقات العريقة بين القارة الافريقية والجزيرة العربية

وخاصة اليمن ووجود أعداد هائلة من الأحباش باليمن وكذلك وجود أعداد هائلة من العرب بالحبشة .

هذه المملكة القوية كان لها أثرها على الحياة السودانية فى فرص المسيحية ديناً عليه بقوتها وبطشها ، وربما لولا محاولة مملكة أكسوم وتحطيمها لمملكة مروى لما تقدمت المسيحية كثيراً فى السودان كما يكشف لنا أهمية شاطىء البحر الاحمر وحيويته ونشاطه من قديم الزمن وقيام ممالك قديمة بالقرب منه .

وقد حاول العرب الاتصال بالقسطنطينية لتمدها بالجيوش لتردع جنود أبراها وتنتقم منه بتهديم مملكته فى الحبشة إلا أن القسطنطينية لم تلبى طلب العرب واعتذروا بأن الملك غالب أخ لها فى الديانة المسيحية ولايصح أن تحاربه وتعاون من يحاول أن يحاربه ولم يقتنع العرب بهذا المنطق بل حاولوا الفرس ولكن محاولاتهم لم تنجح .

وأرسل إمبراطور الفرس لينقذ اليهود العرب بجيشه تعداد أربعة ألف جندى واستطاعوا القضاء على كل الحبشة المسيحيين الذين كانوا بالجزيرة العربية وخلعوا الملك الحبشى الذى كان على عرش اليمن وبذلك انتهت المسيحية فى الاراضى العربية لتفتح المجال لظهور الإسلام بتعاليمه الجديدة .

وبظهور الإسلام فى الجزيرة العربية وإسلام اليمن وسيطرتهم على البحر الاحمر ضعفت قوة دولة أكسوم الحربية بعد أن ساءت علاقتها مع جيرانها من العرب : حتى كان القرن العاشر (٩٦٠ م) وقد وصلت حالة من الوهن والتدهور والتطاحن على اتاج الأمر الذى قادها إلى الخلافات الدخلية الكثيرة وشغلها ضعفها هذا عن محاولة الامتداد أو التدخل فى شئون السودان .

وظهر هذا الشقاق بمحاولة الأسر والمتعددة للوصول للسلطة كما سادت حالة الكنيسة وخضوعها للملك وذلك بفرض رئيس عليها من أقاربه دون إعتبار للمكانة العلمية . الأمر الذى جعل علاقة هذه الكنيسة مع كنيسة الاسكندرية ضعيفة وجعل مكانة رؤسائها مشكوك فيه وسرى عليها النظام الذى كان ساريا فى وسط أوربا .

محاولة ملوك أكسوم لإخضاع الكنيسة لسيطرتهم واحتفاظهم بسلطتهم الآلهية القديمة على الشعب جعلتهم يدخلون فى شئون الكنيسة ويسلكون نفس الأسلوب الذى اتبعته الكنيسة الإقطاعية فى أوربا الأمر الذى أقل من هيبة الكنيسة وأحط فى شأنها الدينى والعلمى حتى ضعفت وأصبحت غير قادرة على حماية المسيحية وذلك كان واضحاً فى البعث التى أرسلتها كنيسة علوة من النشريين لطلب العون العلمى من كنيسة الحبشة فعجزت عن تقديم العون العملى لرهبان كنائس سوبة وحاولت الاستشارة بكنيسة الاسكندرية كما جاء فى الروايات التاريخية وإنما هو تبرير للرفض ... وأقرت عدم تقديم العون لهذا التبرير بعدم موافقة كنيسة الاسكندرية حتى اليوم .

السودان بين الركود والعزلة بعد القرن الثالث الميلادى :

آخر الأخبار التى وصلتنا عن السودان هو دخول بعثة التبشير المسيحية الأرثوذكسية وتعميدها ملك علوة وأفراد أسرته وحاشيته ودخولهم فى الديانة المسيحية فى القرن السادس الميلادى وإنتقال ثقل المملكة السودانية من جوار مصر إلى داخل السودان إلى سوبة وبذلك إبتعدت عن أخبار الحياة والنشاط السياسى الذى كان يربطها مع مصر . وتركت مصر التى تنفصل عنها فى أمورها السياسية إلا أن وهنت قواها وكثرت فيها الجيوش الأجنبية وتغيرت الملامح الحضارية فى مصر بدخول الفرس والإغريق والرومان من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن السابع بعد الميلاد . ثلاثة عشر قرنا وهى خاضعة لتأثير حضارات هـــذه الشعوب حتى بعدت الشقة بينهما وبين السودان وأصبحت العادات والعبادات تختلف . وذهبت المملكة السودانية بهذه الحضارة الفرعونية بعيداً عن هذا التأثير الفارسى والإغريقى والرومانى والمسيحى وإنعدمت الصلة الحضارية وانحصرت حضارة النيل القديمة داخل السودان وانمحت آثارها ومظاهرها من مصر ، إلا من هذه الآثار الباقية التى لم تعد تشد إليها روح المواطن المصرى بعد أن فرضت عليه العبادات الرومانية والمسيحية إلا غيرة ملوك السودان التى لم تقف سلبية عن مصير هذه الحضارة الأم . وقد رأينا فى أوائل القرن الأول للمسيحى محاولة النوبيين لاسترداد طيبة والصعيد مرة أخرى إلا أنهم نالوا ما يستحقون من العقاب والهزيمة فى تلك الدولة الرومانية التى يستتب نفوذها وحضارتها على البحر الأبيض المتوسط مما جعل ملوك السودان يوقفون التفكير مرة أخرى فى العودة لمثل هذه المحاولة مع الامبراطورية الرومانية .

ثم ظهرت المسيحية والسودان يتبع الأحداث فى مصر ويشارك فى إيواء المصريين المسيحيين . ثم قبل المسيحية دينا له فى القرن السادس الميلادى وبدأت

الصلاة تقوى من جديد بربط ملوك الممالك السودان بكنيسة الاسكندرية وملوك مصر ، إلا أن هذه البداية لم يكتب لها الاستمرار إذ ظهر عمر بن العاص فى القرن السابع الميلادى وفتح مصر ونشر الدين الإسلامى بين ربوعها وانتشر الجند العرب يحرسون المدينة الإسلامية . . . وصمت السودان إلا من محاولة النوبة وملك دنقلة للوقوف ضد هذا الدين الجديد الذى جاء ليغير ديانة مصر المسيحية بعد أن اعتنق السودانيين المسيحية ولم تمر أكثر من قرن يأتى هذا الدين ليفرض عليهم ديانة جديدة بعد أن عدلوا من عاداتهم الوثنية بالديانة المسيحية مجاراة للتأثير العام الذى حدث فى وادى النيل وأصبحت الديانات الفرعونية غير قادرة على مقاومة تأثير هذه الديانات السماوية .

ووجد العرب السودان الشمالى غير مغرى لبقائهم لضيق النيل فى تلك المنطقة وشراسة أهله غير ملائم لبقائهم ولحياتهم البدوية القديمة فغادروا بعد أن ضمنوا سلامة إقامة الشعائر الاسلامية وعادوا وتركوا السودان المسيحى عن مصر المسلمة المسيحية الوثنية .. فالديانات الوثنية القديمة لم تفرط كلية فى حياة المسيحية حتى ظهور الاسلام ثم عمت المسيحية أراضى واسعة ولم تتمكن من القضاء نهائياً على الوثنية وإذا بالاسلام يظهر على أرض الدلتا والوجه البحرى . فانقطعت العلاقات بين السودان وبين مصر التى باتت تحت أيدى المسلمين العرب وانزوى حكام دنقلة بعد الهزيمة التى منوا بها فى عهد عبد الله ابن السرج فى حين عاشت الممالك الجنوبية فى خوف من وصول جنود هذه الدولة الاسلامية التى نشرت نفوذها على كثير من الشعوب ولم تحاول الممالك المسيحية فى نباتا أومروى محاربة هذه الدولة العظيمة بل قاد ظهور هذه الدولة فى تغيير عواصم الممالك المسيحية السودانية فانتقلت إلى الجنوب وأصبحت سوبة عاصمة الجنوب وسيطرت على أملاك الدولة القديمة على النيل الازرق والجزيرة لخصوبة تلك المنطقة من شمال السودان . الأمر الذى قاد لمكافة سكان منطقة

النيل الأزرق والجزيرة دون غيره من مناطق النيل التى كانت فقيرة فى السكان بعيدة عن بعضها . تعداد سكانها بسيط ومبانيها قليلة وتعاش على ضرائب التجارة أما عطبرة فلم تكن موجودة غير خيام بعض الأعراب فى أوائل القرن التاسع عشر يعيشون على الرعى وفى حالة من الفقر والاعتماد على خدمة القوافل التجارية ثم الدامر مدينة المجاذيب وعيشة سكان هذه المناطق .

يقول جون لويس بوكهارت الذى زار هذه المنطقة سنة ١٨١٤ م ويمكن من وصفه تتصور حالة هذه المنطقة القليلة السكان إلا على ضفاف النيل قبل ظهور العرب المسلمين ودخولهم فى الشمال وتعمير سهول لبطانة وإستيطان النيل يقول « مقرن (نهر عطبرة) وهو الحد بين إقليم رأس الوادى والدامر . ورأينا السواقى على ضفافه الشرقية ترفع الماء من البرك ودلنا ترتيب الحقول هنا ونظامها ، ووجود المساقى الصغيرة على أن الزراعة تلقى من العناية قسطاً لا تلقاه فى الأقاليم التى جزناها من قبل » .

« الدامر قرية أول بلدة كبيرة قوامها خمسمائة بيت من السكان وهى نظيفة تفضل فى شكلها بربر لما فيها من مبانى جديدة ولخلوها من الخرائب وفى بيوتها شىء من التنسيق وشوارعها منتظمة وتنمو فى كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ويردون أصلهم إلى جزيرة العرب وجلهم من رجال الدين أو الفقراء وليس لهم شيخ يتزعمهم بل فقيه يسمونه « الفقيه الكبير » وهو الرئيس الديني والقاضى الذى يفصل فى خصوماتهم . وليس فى البلد سوقاً يومية ولكن فيها سوقاً أسبوعية يعرض فيها كل تاجر بضاعته . وذكروا إن المبيع فى الماشية فيها كثير وأن الحصر الدامرية المصنوعة من خوص الدوم تلقى رواجا كبيراً فى البلاد المجاورة كلها » .

أما شندى فيقول عنها بوكهارت (أكبر بلد فى شرق السودان بعد سنار

وكوبى بدارفور ويقول التجار إنها أكبر من عاصمتى دنقلة وكردفان وتتألف من عدد من الأحياء تفصلها عن بعضها بعض الميادين العامة أو الأسواق ، وقوامها ثمانمائة بيت إلى ألف وهى مبنية فوق السهل الرملى عن نحو نصف ساعة من الساحل الرملى وتشبه بيوتها بيوت بربر ولكنها أصغر منها بالمبانى الكبيرة وأقل منها ضرائب .

هذا جزء من صورة المدينة والجماعة التى سكنت شندى وسنعود لذلك فى فصل منفصل ولكننا لو أردنا أن نتصور حالة هذه المنطقة والمناطق الأخرى من العصر السابق قبل ألف سنة قبل دخول العرب عليها ولتأثير فيها وظهر لنا إعتماد هذه المنطقة النيلية على الزراعة والتجارة فشندى تتاجر مع بربر ودنقلة وسنار وهى أكبر مركز تجارى وسط السودان وكذلك مع شعوب دارفور ووقوع شندى فى وسط السودان وعلى أرض نيلية خصبة وأرضى زراعية أكثر من الشمال جعل لها أهميتها من قديم الزمان . . وهذا ما يبدو أنه يرشح مدينة مروى مدينة المجاورة لها لتحتل هذه المنطقة الغنية بالأراضى الزراعية والصالحة للمرعى المسيطرة على طرق التجارة .

ونعود مرة أخرى إلى حالة الركود والعزلة التى عاشتها السودان فى القرن السابع الميلادى إلى القرن العاشر الميلادى وقد رأينا تأثير الأحداث فى مصر فى العصور الأولى كان له تأثير مباشر على السودان وكانت الممالك السودانية القديمة تحاول أن تكون عاصمتها قريبة من حدود المملكة المصرية ولكن بعد إنفصال مصر ودخول العرب الإسلام وإن قامت الممالك السودانية داخل السودان وذلك بعدت عن حدود مصر ومشاكلها . . وقد أدى هذا الركود والعزلة إلى ضعف الممالك المسيحية القديمة وإنقسامها إلى دويلات عديدة داخل السودان الأدنى وفككت وحدة الدولة القديمة التى كانت تقود الفتوحات . وهذا التفكك الذى لاشك نتيجة لتوسع أفراد الأسر المالكة خلال

الفترة المسيحية ، مما ساعد على ضعف سيطرة الملوك على سكان السودان نتيجة للخلافات الداخلية بينهم . فقد كانت ديانات وثنية فرعونية حتى القرن السادس الميلادى تجبر الأفراد على عبادة الملك وتجعله ابن الآلهة آمون وكانت للملوك سلطة روحية على هذه الشعوب فجاءت المسيحية تحرر العقول من هذه السلطة الوثنية وعادت للناس حرية العبادة الأمر الذى كان له أكبر الأثر فى تفكيك الدولة الوثنية بفقدانها سلطاناً روحياً قوياً على الناس وبذلك قل ولاء الناس المطلق للملك وللعبادات الوثنية . كما تدخلت الكنيسة فى كشف جانب كبير من الحياة الروحية والعقلية لهذه الشعوب منها حياة الدير والرهبنة وسماعهم لأول مرة مثل هذه الآيات المسيحية :

(١) بالحقيقة نؤمن بالرب . .

(٢) الله الرب ضابط الكل . . .

(٣) خالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى . . .

(٤) نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور . . .

(٥) الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا . . .

(٦) الذى ليس لملكه إنقضاء . . .

(٧) نؤمن بالروح القدس الرب المحى . . .

(٨) وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى .

(٩) ونعترف بمعمودية واحدة لمغفر الخطايا .

مثل هذه الآيات الكريمة من الانجيل كان لها ولاشك تأثير بليغ على التفكير العام عند الناس . فقد كانوا يؤمنون بالاسطوره وألوهية الاصنام والبشر وإذا بهذه الايات تفتح لهم آفاقا جديدة فى التفكير للحياة والآخره وتعيد لهم إنسانيتهم وفرديتهم وحريتهم من التبعية لأى فرد . مثل هذه الأفكار الواردة فى تلك الايات الكريمة . لاشك خلقت نوعا من الانفصال والتمرد وعدم الطاعة وفصلتهم من حياة السخرة لأن طاعة الملك كانت عندهم طاعة الالهة وأرضاءه هو ارضاء الالهة وإذا بهذا الدين الجديد يفتح إذ هانهم لعالم الحق وعبادة صحيحة تذهب إلى اله واحد خالق لكل هذا الكون . . . .

كان تأثير هذه الايات ليس وقفا على عامة الشعب ولكن على الملوك الذين أول من آمن بالمسيحية وأنفتح عقلهم لحقيقة الحياة وإنكشف لهم نور الحق ولاشك إنهم تأثروا حتى إنهمرت ادمعهم للتكفير عن خطاياهم السابقة وتسخيرهم للبشر وإقتنعوا بالايمان بمعاملة الناس بالحسنة واللين ومايرضى الله وقلة مطامعهم فى الدنيا وأنشغلوا بالعبادة ومعرفة أسرار هذه الآيات التى فتحت أذهانهم للحقيقة الكاملة مثل هذه الايات (الذى به كان كل شىء) وأيضاً يأتى من مجده ليدين الاحياء والاموات ، وكذلك مثل هذه الصلاة « محيا البشر الصالح ، سيدى يسوع ، إطلب إليك لاتطرحنى عن شمالك مع الخطاة . ولاتقل ايضا أننى لست أعرفك ، إذهب عنى يامستعد للنار الابدية لا لأنى أعلم بالحقيقة إنى خاطىء » : أمنحنى يارب توبة كى أتوب قبل أن يغلق الموت فاى فى أبواب الجحيم . . . . وهذه من الصلوات الخاصة بالرهبان التى كثيرا ما كان يسمعها أهل الحاشية ولامكانية البيت المالك دخلت المسيحيه عليهم واثرة فيهم قبل غيرهم فى قلوبهم وتفكيرهم حتى شغلته بخطاياهم وأثامهم والتكفير عنها .

دخلت المسيحية وفتحت العقول نحو الحياة الأبدية والخطايا والغفران

وشغلتهم عن مكاسب الدنيا والفتوحات وقل بذلك نشاط الحياة اليومية لانشغال الناس بالعبادة والخوف من العذاب فى الحياة الآخرى مما شجع لصرف الأموال فى سرعة فائقه لبناء الكنائس والاديرة واحترام الرهبان والمتعبدين وشاركت الخزينة العامة بنصيب وافر فى هذا العمل المفيد فى الاخرة .

ملأ الأيمان بالله قلوب الناس والملوك وأصبحوا يتسامحون حسب وصايا الرب فى كل شيء حتى مع العرب النازحين من الشمال بيشائر دينهم الجـديد . وترك لبقية الناس حرية العبادة ولم تفرض عليه الديانة الجديدة وماجاء نقلا عن « جكسن » فى عهـد السلطان عبد القادر الذى خلفه للسلطان عميرة حوالى ١٥١٧ م أن أهالى جبال موبا وشندى ظلوا يقدمون عناه كل عام قرباناً للآلهة كى لاتمنع عنهم المطر وذلك نتيجة للتسامح الدينى الذى جاءت به المسيحيه .

هذا يكشف لنا الوضع العام للحياة الاجتماعية والحرية التى تمتع بهـا الفرد بعد دخول المسيحية ورغم إن السودان كدولة موحدة لم يظهر ويهتم بالاحداث الخارجية إلا أن الحركة التى خلقها العرب والاسلام فى الأراضى المجاورة قادت لتدل هذه الحركة رغم تعرض السودان لكثير من المناوشات من الشمال والشرق مما قاد لتدهور الممالك السودانية من ظهور ممالك إسلامية جديدة لم تستطيع إخراج السودان من عزلته وتفاعله مع الأحداث نتيجة للاضطراب التى عمت الشرق وأفريقيا وسنحاول أن نتتبع الحيـاة قرنا بقرن حتى يستطيع نملأ هـذا الفراغ الذى أوجدته الكتابات التاريخية .

دخلت المسيحية السودان وفن الحضارة الفرعونيـة فى السودان يتدهور بتدهور الدولة وضعفها ، وإنقسامهـا وانفصالها عن أرض طيبـة وأصبحت الحضـارة الفرعونيـة معزولة عن أرضهـــا الأولى وذهبت تجوب أرض

السودان حتى وهنت قواها ووقفت حركة البناء والتشييد التي هي عماد العبادات الفرعونية وحضارتها .

كانت العبادات الوثنية الفرعونية هي الحافز الأول لازدهار الفن بهذه الحضارة الفنية وهذه التماثيل الضخمة وهذه المعابد الضخمة . عرف الإنسان الأول الفن كأجمل شيء يمكن أن يؤثر ويريح الفرد وتطور هذا الفن بعد أن أصبحت الآلهة قطعة فنية . وكان لزاما على الفنان الإبداع في خلق هذه الآلهة في أبدع صورة فنية . وكان التسابق للفنانين لإرضاء الآلهة والفراعنة والكهنة هو الدافع الأساسي لهذا التطور الذي أدى إلى ملأ الفن وفاق حد التصور في تلك العصور البعيدة حتى تطور وفاق كل الأعمال الإنسانية الأخرى .

نشطت حركة الفن في تلك العصور من جانب مواهب الإنسان الأخرى ولكن الآلهة كانت هي أسمى ما يتمناه إنسان النيل . أن ترضى عنه الآلهة .. وكانت منية الفنان أن ترضى عنه الآلهة ليصنع لها ويضع لها تمثالا أو يرضى عنه الملك أو الكهنة باعتبارهما يمثلان الآلهة ورضاهم جزء من رضاء الآلهة . وكان الإبداع ضرورة أوجدها هذا الحافز وهذا الحب وانتشر الفن في كل أرجاء النيل وأصبح عمل التماثيل الكبيرة والصغيرة هواية وأمنية لكل فنان . وهذا تكشفه لنا الأعداد الهائلة من التماثيل الصغيرة للآلهة التي خلفتها لنا تلك الحقبة من الحضارة .. وقد قال المؤرخ الإغريقي هيرودوت الذي زار مصر في القرن الرابع قبل الميلاد أن المصريين يتمسكون بدينهم وعاداتهم بدرجة بالغة ويحبون المراسيم أكثر من أي شعب .

هذا ما قاله هيرودوت الذي رأى المصريين وحبهم لعباداتهم وهو تصور بسيط للحالة التي كان فيها الإنسان على النيل . فقد كانت العبادات تدفعها

عبادة الآلهة والملك والكهنة هي القوى المسيطرة على طاقة سكان النيل وكان سكان النيل عجينة طيبة في يد الفراعنة والكهنة لتسخيرهم هذا التسخير وتقديم آلاف الضحايا لتقيم نقل الأحجار الضخمة في ذلك الوقت الذي لا توجد فيه الرافعات الحديثة والإمكانيات التي لدى الإنسان الآن .

ظلت الآلهة هي القوى المحركة والمسيطرة على طاقة الإنسان وكان الفن هو خضوع للآلهة فأبدع إنسان النيل ليرضي هذه الآلهة وقامت المعابد في جبانة و بوهين والبركل . وبقيت آثار البركل تكشف لنا روعة فن النحت والبناء الذي يكاد لا يوجد عند إنسان عصرنا بل يكاد فن النحت لا يوجد عندنا الآن لا تملك الروعة ولا بأقل منها لا بعطاء هذا الفن من عصور سحيقة قديمة منذ ظهور المسيحية التي وحدت الحضارة الفرعونية قد وقف نموها في مصر وعاشت بعدها الحضارة الرومانية وحتى محاها إلا من الجدران المعابد القديمة والذين حافظوا على عباداتهم الوثنية وسكن رعاية الملك لها وتسخير إمكانيات الدولة لم يعد للرقي بها قد وقف . وكذلك الحال في السودان بعد أن سقطت حضارة الفرعونية في مصر تحت إقدام الحضارة المرسية والإغريقية والرومانية التي تقدمت نحوها ، توقفت عنده حركة التقدم الفني ، وأصبحت المعابد القديمة كافية لقضاء العبادات وقلت حمية الناس للعبادات بعد أن سقطت مدن آلهة عباداتهم تحت تأثير عبادات أخرى كما قلت نتيجة لذلك التسخير للناس والتعمير حتى قلت الأيدي الماهرة . وضعفت عند الناس الرغبة في صنع الآلهة منذ الخامس القديم حتى جاءت المسيحية منهية عبادة الأوثان ، وهي التي تمسهم الحديث إيقاف صناعة التماثيل والمعابد ومات فن النحت في السودان ، وانتشرت الأديرة على طول النيل وانتشرت تعاليم المسيحية تحرم عبادة الأوثان وبذلك وقف فن النحت في السودان ويمكن أن نؤرخ لبداية وقوف هذا الفن من القرن السادس الميلادي بأيام ملك دوقة بالمسيحية ، وبإيمان المسيحية فقدت

العبادات الوثنية ممثلها وهو الملك والذى كان يجبر الناس على إنشاء التماثيل وقيام المعابد . . .

وربما ظل بعض الأفراد على عباداتهم الوثنية يصنعون تماثيلهم الصغيرة ولكن هـــذه الحالة لم تكن كافية للاحتفاظ بالفنون التى نشأت فى حضن العبادات الوثنية .

جاءت المسيحية ولم تؤثر فى الحياة العامة كثيراً مثل تأثيرها على إيقاف تطور الفن جاءت المسيحية وعادات أهل السودان القديمة ما زال منها بقية حتى الآن ولو نحن تابعنا ما قاله هيردوت الذى وصل إلى جنوب مصر فى القرن الرابع الميلادى وما سجله عن عادات وأخلاق أهلها التى لا تختلف فى كثير من عاداتها عن عادات أهل السودان على أرض النيل .

عادات أهل مصر فى العصر الفرعونى

إن معظم اخلاقهم وعاداتهم مناقض تماما لاخلاق وعادات غيرهم من البشر فتؤم نساءهم الاسواق ويتاجرون ، بينما يمكث الرجال فى البيوت أمام الانوال وبينما يتبع بقية العالم فى النسيج أن تكون اللحمة فوق السـداه فأن المصريين يجعلونها أسفلها . كما إن النساء يحملن الاثقال فوق اكتافهن بينما يحملها الرجال على رؤوسهم . ويتناول المصريون طعامهم فى الطرقات خارج بيوتهم ويأوون الى بيوتهم للأغراض الخاصة وحجتهم فى ذلك أن العمل غير اللائق والضرورى فى وقت واحد يجب أن يتم فى سرا أما الامور الخالية من أى شىء غير لائق والضرورى فيجب أن تحدث فى الطرقات علنا ومحظور على المرأة الاشتغال باعمال الكهنة سواء للآلهة أو الربات فى حين يقوم الرجال بوظيفة الكهنة لكليهما، ولا يلزم الابناء بكفالة والديهم الا باختيارهم — أما البنات فلازمات بذلك سواء كان هذا برضاهن أو على كره منهن .

يطيل كهنة الدول الاخرى رؤوسهم أما كهنة المصريين فيحلقون رؤوسهم ومن العادة فى جميع بلاد العالم أن يحلق الناس شعورهم حداداً على الاقارب اما المصريون الذين من عاداتهم أن يحلقوا رؤوسهم فى الحالات العادية فيتركون لحاهم وشعورهم ورؤوسهم تطول عندما يموت قريب لهم ويعيش الناس فى البلاد الآخرى بمعزل عن الحيوانات ولكن المصريين يعيشون دائما مع الحيوانات وتتغذى الشعوب الاخرى بالشعير والقمح بينما يعتبر المصريون ذلك عارا أى عار ويتغذون بالذرة الهندية التى يطلق عليها البعض إسم زيا ويعجنون الدقيق بأرجلهم أما الطين فيخلطونه بايديهم كما يحملون القاذورات والتراب بأيديهم ايضا وهم الشعب الوحيد فى العالم الذى يعرف الختان ومن يعرفه من الشعوب الآخرى

فقد تعلمه من المصريين ويلبس رجالهم ثوبا من قطعتين إما ثوب النساء فمن قطعة واحدة كما يلبسون الخواتم ويربطون حبال الأشرعة من داخلها بينما غيرهم يربطونها خارج الشراع ولا يكتبون كالاغريق من اليسار إلى اليمين بل من اليمين الى اليسار ورغما من هذا يصرون على أنهم يتجهون نحو اليسار ويتخذون نوعين من الكتابة ويطلقون على أحدهما اسم « المقدس » وعلى الثانى اسم « المادى » .

ويتمسك المصريون بدينهم الى درجة بالغة ويتلون المراسيم اكثر من أى شعب آخر ويتبعون هذه المراسيم - يشربون فى أقداح نحاسية .

ويجلونها كل يوم ولا يشذ عن هذه العادة أحد قط ويلبسون ثيابا من التيل يحافظون دائما على أن تكون منسوجة حديثا ويزاولون الختان بقصد النظافة مفضلين اياها على حسن المظهر . ويحلق الكهنة جميع جسمهم كل يومين حتى لا يعلق به القمل والاقذار الاخرى وهم يقومون بخدمة الالهة . وثيابهم كلها من التيل وأحذيتهم من نبات البردى ولا يصلح لهم أن يرتدوا ثيابا أو أحذية من مادة أخرى غير هاتين ويستحمون مرتين يوميا بالماء البارد ومرتين فى كل ليلة وعلاوة على هذا العادات لهم الاف من العادات الأخرى .

وقد استرعى هيرودوت عدم تعفف الفلاح المصرى فى سكنه مع أغنامه ، وجمع روثه بأيديه والاستفادة منه وخلط الطين بأيديهم كما قال أنهم الشعب الوحيد الذى يعرف الختان وهذه العادات التى مرت عليها الاف السنين تكاد نجدها عند الفلاح المصرى . وعند معظم سكان السودان الى كان خاص بالختان الفرعونى الذى ما زلنا نحتفظ به فى الاقاليم أو غيره . وهى لا ندرى ما هو تاريخه أو ماضيه .

بقاء معظم هذه التقاليد القديمة ولنا لا أساير التطور ولا تعاليم الأديان.
تكشف لنا عن حقيقة هامة وهي أن إنهزام الحضارة العربية لم تكن إنهزاماً لكل عاداتها وأخلاقها. كما يكشف لنا أن تعاليم الكنيسة التي دخلت قبل الإسلام لم تكن بالتوسع والانتشار حتى تطور تلك العادات والتقاليد وكان يجب أن يحدث هذا. أن تضيف الأديان إلى حضارة الشعوب ثقافة وفكر وبعث، والذنب ليس ذنب المسيحية أو دعاتها أو رسلها الذين دخلوا السودان ولكن ظروف هذه الدعوة في السودان والأحداث الخارجية فبعد قرن من دخولها قبائل السودان وظهر الإسلام اكتسح الكثير من الديانات، وأصبحت مصر دولة إسلامية، وانعزل السودان عن حركة مسيحية في العالم حيث كان لها سند عالمي للنشر والدعوة لها بعد أن استقرت في شرق البحر الابيض واعترفت بها قياصرة الروم.

جاء الإسلام إلى أرض النوبة والمسيحية ما زالت في مهدها في السودان تمارس تعاليمها بصعوبة فائقة، فكتبها باللاتينية والقبطية بخلاف لغة أهل السودان وكتبهم المروية القديمة. وتخريج رهبان من أهل السودان كان يتطلب زمناً ليس بالهين ودخول الدعوة المسيحية عليهم ليس بالأمر اليسير. ولكن رغم ذلك لا يمكن ان نموت دعة وعبوة بالمسيحية، توسعوا في إنشاء الكنائس وأقامت الأديرة بجوار الكنائس. لكن الدير في السودان حسب ظروف دخول المسيحيين لم يجذب الناس اليه كما كان في مصر. فقد اضطهد المسيحيون في مصر حيث دفعهم الاضطهاد لاتخاذ اسلوب خاص في العبادة.. اما في السودان فقد دعى ملوك علوة ودنقلة لهذه الديانة فكان أمرهم أصعب لنشر الدعوة ثم ترغيب الأفراد في أخذ حياة الدير كنوع من السمو في العبادة.

عملت الديانة المسيحية على تحرير العقل السوداني من تسلط الملوك

والكهنة والعبادات الوثنية وفتحت له الحياة من جديد ليأخذه بمفهوم جديد بخلاف ما توارثت عليه الأجيال . ولكنها عجزت أن تقف بجانبه وتسد له هذا الفراغ الكبير الذى حدث فى نفسه بعد عودته لتلك الأوثان والتفكير فيها لم تكن إمكانيات المسيحية بالقدر الذى يتيح له أن يعلم ــس جميعها تعاليمها أو اللغة الجديدة التى جاءت بها الديانة .

* * *



أحد أفراد قبيلة الشكل التي امتد نفوذها في العصور القديمة إلى أرض الجزيرة . .

الزينة كانت من أجمل الأشياء المحببة إليه . . تكشف عن طبع رقيق رغم الصرامة البادية عليه .



[illegible]
[illegible]



استخدام الآلات والجرارات بناحية [illegible] بمديرية [illegible].



الكنيسة وماقدمته للحضارة فى السودان

وقبل الاجابة على هذا السؤال يجدر بنا العودة إلى نشأة الكنيسة فى الاسكندرية ووادى النطرون وعلاقتها بنوبديا ونشأة الأديرة والنظم الكنسية فى مصر والعالم الذى استنار بخبرتهم وتعاليمهم :

بعد الاضطهاد الذى وجده المسيحيون بمصر ومحاربة أباطرة الاسكندرية وقياصرة الروم للمسيحية وقتل كل مايعتنق هذه الرسالة التى تخالف تعاليم آلهتهم وآلهتهم لجأ معظم المسيحيون إلى الجبال والوديان والكهوف للعبادة والتقشف سالكين فى ذلك مسلك المسيح وحياة الوحدة والصوم والصلاة جعلتهم مثلا يحتذى به بين الافراد المسيحيين وأوضح ذلك فى رسالة بولس الرسول إلى الكورنثيين حيث تضمنت رسالته إليهم تفصيله لهذا النوع من الحياة وإن لم يكن أمراً هم ولكنهم كان دعوة لأفضل الطرق للحياة المسيحية كما تصورها حين قال (إنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا (أى أعزب) ولكن لكل واحد موهبته الخاصة من الله الواحد ، هكذا والآخر هكذا ولكنى أقول لغير المتزوجين وللأرامل أنه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا . إذن من تزوج حسنا يفعل ومن لا يتزوج يفعل أحسن .)

وبهذا المفهوم للعبادة خرج المضطهدون فى المسيحية من المدن المصرية إلى الصحارى والجبال ولم يكن فى خلدهم إنهم بخروجهم هذا والتجائهم للوحدة من الظلم والبطش والعيش على الكفاف سيضعون المبادىء العامة للحياة المسيحية ورجال الكنائس فى المستقبل .

وقد كثر عدد الرجال المحتمين بالجبال يؤدون صلاتهم وصومهم وشعائرهم

الدينية كل فى وادى منفرد بعيداً عن الآخر .

وقاد الضغط والارهاب إلى ازدحام هذه الأودية ومنها وادى النطرون وجبل نتريا وسليا وبرية شيهيت والصحراء الشرقية وسيناء والصعيد حتى وجد هؤلاء النساك الزاهدون فى الحياة فى وقت ما أنهم قد ملأوا الأودية والصحارى بعضهم فى النسك والعبادة أن دفعت بالكثيرين الذهاب إليهم لتعليمهم حياة النسك والوحدة والعبادة . وكانت هذه أول خطوة لميلاد تعاليم النسك والرهبنة فى العالم وازداد عدد المسيحيين الهاربين كما راحت سيرة هؤلاء النساك من الذين سبقوا الآخرين فى هذا السلوك وجعلوهم مثلاً أعلا للراغبين الذين التفوا حولهم طلباً للتضحية والارشاد لترويض الجسد على تحمل الجوع والتقشف ونكران الذات والشهوات الجسدية .

وكان وادى النطرون هو أول مدرسة يجتمع فيها هؤلاء التلاميذ حول المشائخ من النساك ليخطوا عالم المسيحية ومستقبلها .

وما يذكر إن القديس أنطونيوس (٢٥١ — ٣٥٦ م) هو المنشئ الحقيق للنظام الرهبانى بعد أن مهد له ماسبقه من النساك .

وقد ذهب الشاب أنطونيوس إلى الكنيسة فسمع الكاهن يتلو من الإنجيل ، ولكن آية واحدة وقعت فى نفسه وملكت عليه فكره وهى (إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع كل مالك وأعط الفقراء وتعال اتبعنى فيكون لك كنزاً فى السماء) فما كان منه إلا أن عمل بما جاء فى الآية وباع ممتلكاته وقسمها للفقراء وخرج إلى مكان قريب من قريته وبنى له كوخاً إلى جوار الشاطئ يدرب نفسه

على حياة النسك والعزلة . . ولكنه لم يقم بهذه المنطقة طويلا لوجود كثير من النساء بالقرب منها . فرحل إلى المقابر ثم فى حصن مهجور فى منطقة بسبير على الصحراء الشرقية على النيل . . وكان يمده بعض الناس بالخبز الجاف ثلاث مرات فى العام دون الاتصال به وجذبت شهرة القديس أنطونيوس كثير من التلاميذ إليه ولكنه لم يقم فى هذا المكان طويلا فقد أشترك فى تشجيع المستشهدين والمسجونين الذين لموا حتفهم حين هدمت الكنيسة وأتى المسيحيين أكبر مخاطر القتل والاستشهاد ثم ارتحل القديس أنطونيوس إلى الصحراء الشرقية . وهناك بجانب الصحراء والوحدة شغل نفسه بالزراعة . ووجد القديس أنطونيوس بعد زمن وجيز أن المنطقة قد امتلأت بالعشش والأكواخ من تلامذته الذين لم يرو أن يبعدوا عنه . . فاضطر إلى الرضوخ لرغبتهم ليزودهم من تجاربه فى حياة النسك والوحدة وهكذا كانت المسيحية فى مرحلتها الأولى هو إكتشاف الأسلوب المناسب لترويض الجسد والروح للعبادة ، فرضته ظروف ظلم والاضطهاد الرومانى للمؤمنين ثم طور هذا النظام الراهب بباخوميوس الذى إشترك فى الحملة التى جردها الامبراطور قسطنطين لإخضاع والى الحبشة المتمرد .
ولما عاد بباخوميوس من الحملة ذهب إلى قرية تبنيسى قرب قرية هنا وما لبث أن أجتمع الرهبان حوله وبدأت لأول مرة حياة الشركة الجماعية للرهبان وحاول بباخوميوس إلى حفظ تعاليم ونظام جماعته . وسمى المكان الذى أجتمع فيه جماعته من الرهبان باسم الدير . وفى داخل الدار وضع لهم بباخوميوس نظاماً دقيقاً لحياة الرهبان وأول هذه الواجبات الطاعة العمياء للرئيس . واتسع هذا الدير حتى وصل عدد الرهبان به إلى الف راهب . عاشوا حياة جماعية لأول مرة فى حياة المسيحية وبدأ التوسع فى الأديرة على نظام هذا الدير الأول .

وقسم الأنبا بباخوميوس الخدمة فى داخل الدير بين جماعته كل حسب قدرته الجسمية منهم الخبازين والطباخين والسفرجية والخدامين والمزارعين

الورعين وبيت للضيافة يشرف عليه راهباً ورعاً يستقبل الراغبين فى حياة الدير وحتى يمتحنون ويثبت صلاحيتهم لهذه الحياة فى فترة أختبار لمدة ثلاث سنوات وجعل لكل دير راهباً مشرفاً مالياً عليه

ودخلت الدير اللغتين القبطية والأغريقية حتى ييسر للمجتهدين الأطلاع والدراسة حتى تؤهلهم لمراكز قيادية فى حياتهم الدينية وتعلمه وظهر كذلك دير النساء وقد تكون من اخوات هؤلاء الرهبان الذين حاولوا ان تشارك المرأة فى هذه الحياه الديرية حتى تسمو بتركها لذات هذه الدنيا من أجل الحياة الاخرى ..

أما الحياه الداخلية للراهب وكان معناها الفقر والتقشف حيث تقول الآية (أنظروا الى طيور السماء فأنها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن فى الاهراء وأبوكم السماوى يقوتها)

ويقول السيد المسيح فى الاغنياء الحابسين أموالهم عن فعل الخير . (دخول جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات) ويكتب بولس الرسول ينصح العبرانيين (لتكن سيرتكم خالية من محبة المال وكونوا مكتفين بما عندكم . لأنه قال لا أهملك ولا أتركك) ولكن هذا [illegible] و[illegible] لم تخلص منه الكنيسة فى العصور التى تدخل فيها الساسة فى أوربا فى ترشيح رؤسائها لكنها دخلت الكنيسة مرحلة الإقطاعيين فى العصور الوسطى كما كانت فى اوربا وكنيسة [illegible] فى السودان ثم تطور الكنيسة هذا الوضع الاقتصادى رغم أنها بدو كانت فى حالة مالية حسنة بالنسبة لعدد الممالك التى قامت فى شمال السودان ومدينة سوبة التى وصلت فيها إلى عدد هائل من [illegible] جميلة ورائعة .

وتقضى الحياة اليومية عند الرهبان وهى الأساس لتطوير الفكر الدينى وتأثيره على المجتمع بالقراءة الآتية: ومن أولها الواجبات الصمت والانعزال والصلوات وتقليل الطعام الذى وضعه القديس مكاريوس الكبير (إذا بلغت الساعة الثالثة (حوالى الساعة التاسعة صباحا) فقف قدام الصليب وأجمع أفكارك فى فهم القراءة التى قرأت واسجد بتخشع لربك بوجع ودموع، لمطلبك فهم من مزمور داود وإذا ابتدأت بالقراءة فلا تستعجل إلى آخر المعرفة الخفية فى المزامير وإذا أكملت صلاة الساعة السادسة كالعادة والقانون الموضوع عن الآباء أقرأ كتاب الآباء إلى الساعة السادسة (منتصف الليل) وأفهم ما تقرأه ثم ضع الكتاب وقم التسبيح وأسجد قدام الصليب وأنظر بعينك إلى يسوع المسيح ومن السادسة إلى التاسعة (الثالثة بعد الظهر) إن كان عندك عمل يدوى فاصنع ما تريد ولا تترك قانون الطاعة والسجود، من أجل عمل يديك لأن الآباء عملوا فى العلاية بمخافة الله من غير شره)

ومن هذا يتضح لنا إن الصلاة والصمت والتفكير والتأمل والانفراد كانت من أهم واجبات الراهب وعدم شغله بالحياة العامة ... إذن التفكر فى الخطية الكبرى ومحاولة نسج حياة تأملية تبعدت الرهبان عن مجريات الأمور خارج عالمهم والمشاركة فيه وشيئا فشيئا أصبح العباد بهذا السلوك وما يعقبها فى هذا السلوك هو التوسع فى التفكير الدينى المسيحى أما عدا ذلك فقد كانت الصلوات والمزامير أفضل منه .. والكتب الدينية كانت أفضل مما دونها من الكتب ولذلك كانت مكتبات الأديرة فقيرة من الثقافة العامة وامتلأت بالكتب الدينية وهذا لا ينفى وجود الكتب التاريخية والأدبية ولكنها لم تكن تجذب الرهبان مثل الصلوات والمزامير إلا للذين أرادوا أن يتزودوا من معارف الدنيا وانشغلوا بأمور علمية داخل الأديرة وشغفوا فى حبهم للعلم للاستقطاع من وقت صلاتهم للاطلاع والقراءة. الأمر الذى أخرج من الكنيسة الأوربية فى

العصور الوسطى، وحالا منها دون فكر ثاقب ثاروا على جمود تعاليمها وخضوعها للملوك أوروبا وثورتهم على موقف الكنيسة من مشاكل العصر حين تعرضت الشعوب الأوروبية لظلم وبطش الأمراء والملوك والاقطاعيين فى أوروبا ورأت الكنيسة أن عذاب الجماهير نوع من الرياضة والتكفير عن الخطايا وأنه مفيد للحياة الانسانية الملوثة بالخطيئة ولم ترى فى جرم الاقطاعيين غير تركهم لعقاب الآخرة ولم تحاول أن تقف موقفاً إيجابيا لايقاف هذا الظلم الأمر الذى قاد لظهور موجة الالحاد فى القرن الثامن والتاسع عشر باتخاذ . . الكنيسة الخاضعة لسلطان الملوك الاقطاعيين هذا الاسلوب السلبى من الجياع والمشردين والمعذبين من بنى الانسان فى حين تعيش هى التى تدعو للتقشف حياة اقطاعية ونسيت الآية التى تقول : (لا تحبوا العالم ولاشيئة مما فى العالم فمن أحب العالم فليست فيه محبة الله) وأسكتوا الجياع والعبيد بهذا المفهوم ولم يحاولوا هم أن يتجردوا من اقطاعياتهم ولم يحاولوا أن يجردوا الاقطاعيين من أملاكهم ويمنعونهم ببطلان الحياة .

المسيحية فى السودان

كان لرهبان وادى النطرون أثر كبير في حياة المسيحيين

كانت الفترة من القرن الاول لظهور المسيح إلى القرن الخامس والسادس فترة خصبة فى حياة مصر بين صراع المسيحية وعداوة القياصرة الرومان وبين اصرار رواد المسيحية الاوائل وتحملهم العذاب والصمود أمام التعذيب والتشرد وضرب أروع الأمثلة فى الإيمان والتقشف والتواضع وسلوك روادها الاوائل الفادى المتواضع جعل هذه الديانة قوة سحرية بين عامة الناس وبين التضحيات التى قدمها أبناء الاغنياء من الامراء الكبيرة ولبسهم الوبر والخيش والصبر على الاكل وتحمل العذاب كل تلك الصور كانت تدفع المسيحية إلى الاراضى التى لم تطهر فيها. وقدم الاقباط فى مصر لهذه الديانة أروع الامثلة وخرج منهم من كان له الأثر الكبير فى انتشار وبقاء هذه الدعوة على أرض النيل.

ظهرت المسيحية فى مصر وهى ترزح تحت بطش قياصرة الروم والمشهور دينهم وحضاراتهم وسلطتهم على أرجاء مصر. ظهرت هذه الديانة والرومان معتزون بمجدهم وحضاراتهم وفنونهم وآلهتهم لقد أثرت هذه الديانة التى جاء بها رجل بسيط. بسيط فى كل شيء فى ثيابه ومسيره وحديثه وأفكاره وأمثلته جاء هذا الذى يشبه الراعى يحطم آلهة هؤلاء المغرورين بدياناتهم وآلهتهم. هؤلاء الذين كانوا يظنون أنهم أسياداً على كل الدنيا وأنهم أفضل المخلوقات ... يتجرأ راعى بسيط ويقيم ديانة جديدة تدعوا إلى آلهة غير آلهتهم ويحرض إلى تحطيم آلهتهم وعدم الاعتراف بها. ومن هنا انطلق صب قياصرة الرومان جام غضبهم وبطشهم على كل من يجرؤ للاقتراب من هذه الديانة الجديدة. ولكن

الرسالة كانت أقوى من بطش القياصرة والإيمان بها كان يسعد بالتعذيب . . كانت مثل هذه القدرة مقاومة صلبة للمسيحية ضد السلطة الإرهابية كافية لخلق أروع أمثلة الاستشهاد والصبر على الأذى ورفع المؤمنين درجة عالية من الإيمان والإعجاب بين عامة الشعب .

احتلت مصر وكنيسة الإسكندرية ورهبان وادي النطرون مكانة سامية في تاريخ المسيحية وكان لهم فضل كبير في حفظ المسيحية بعيداً عن بطش قياصرة الروم في أقصى القرون حتى وضعوا الخالد من التقاليد ما بات منهجاً حتى اليوم وجزءاً من تعاليم المسيحية كما أصبح رهبان وادي النطرون فكرة الأديرة وحياة الكنيسة وأدخلوا دير الرهبان وكذلك لعبوا دوراً كبيراً في الصراع الكنسي الذي قام بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما حتى كان هذا الصراع سبباً كافياً حسب الاتحاد المسيحي وشكل في هذا الصراع لعب دوراً بين كنيسة القسطنطينية التي أدعت أن المسيح على لسان نسطوريوس أسقف القسطنطينية في تعبيه للسيدة العذراء بوالدة الإله وأن المسيح شخصان متباينان يعمل كل منهما مستقل عن الآخر أحدهما إلهي والثاني إنساني فتصدى لنسطوريوس الأنبا كيرلس الأول بطريرك الإسكندرية الرابع والعشرين وأعلن في وثيقته أن المسيح شخصية متكاملة جمع فيها بين اللاهوت والناسوت جمعاً لا اختلاط فيه ولا امتزاج ولا تغيير ووقف بجانب الأنبا كيرلس رهبان وادي النطرون .

وخرج الرهبان من المتعصبين بالجدل والأوديرة مدافعين عن عقيدتهم ... شأن مصر وعلى أيدي رهبانها من كنائس العالم وأصبحت مزاراً للرهبان من البلدان المختلفة وخرج منها رهبان إلى كل الشعوب أثروا في منهج المسيحية وسلوك روادها وابتدعوا لهم المثل الأعلى لعبادة الله وأعطوهم من تجاربهم الكبير .

وقد كان صعيد مصر وواحاتها ملجأ للرهبان من أيدى بطش وتنكيل وظلم الرجال البسطاء العرب المتقشفين بين الصحراء والوديان بين القديسين الثابتة . فكان مظهر هؤلاء الرهبان حافزاً كبيراً لجذب كثير من الأنصار للمسيحية .. وكسب عطف الناس على هؤلاء المساكين ...

لقد كانوا فى حاجة لكل عون إنسانى وقد أحبوا الله فى أجمل صورة .. وبذلك لم يجدوا أى معاملة قاسية من الجماعات التى يمرون عندها أو يقابلونها ووصل منهم البعض لشمال السودان فقد كانت مملكة نوباديا (دنقلة) مركزاً هاما من مدارس الرهبان .

لقى المسيحيون الكثير على أيدى قياصرة الإسكندرية وأبيد المسيحيون بمجموعات كبيرة وكان الهروب هو الوسيلة الوحيدة فهربوا لكل شعب السودان لأنه ذا علاقة طيبة بهم بصفتهم فارين من مجازر القياصرة ومن هؤلاء الملك دوقيوس قيصر عام ٣٤٩ م من مجازر ومطاردة للمسيحيين والرهبان كفيل بأن يضطر هؤلاء الرجال للهروب إلى الوديان والجبال والكهوف حتى أراحهم الله من هذا العذاب باعتناق قسطنطين الأكبر ٢٩٥ م المسيحية وجعلها دين الحكومة بعد بطش الإمبراطور دقلديانوس ٢٨٤ م بأهل مصر لتمردهم وثورتهم عليه فقتل الكثير وأحرق الإسكندرية وأجبر الناس على عبادة الأصنام وعرف باسمه تاريخ الشهداء وهو تاريخ السنة القبطية .

وأثر رهبان مصر فى نشر المسيحية وخرجوا إلى كثير من بقاع العالم بعد أن عمت المسيحية مصر وأصبحت دين الدولة ومن هؤلاء الرود الرهبان الذين تتلمذوا على رهبان وادى النطرون القديس أوغسطين الذى ترك روما عام ٣٨٨م قاصداً شمال أفريقيا ونشر المسيحية فى الحبشة والشاطئ الأفريقى .

وأول من أسسها بمدينة هيبو حيث عين وأنشأ عام ٣٩٦ م خط الحياة الرهبانية وبعث المسيحية بين شعب شمال أفريقيا ونقل اليهم نظام الدير للرهبان والراهبات حتى كان زمن وسيط عمت المسيحية شرق أفريقيا و الحبشة .

وقد ظل السودان بعيداً عن هذه الدعوة إلا من التجأ اليه من المسيحيين حتى ظهرت المسيحية بين سكان النوبة وشمال السودان .

وأخذ الصراع المسيحي يقوى بعد أن أصبحت المسيحية دين الدولة بين مذهب كنيسة الاسكندرية الارثوذكسية ومذهب كنيسة روما . وكان من مظاهر هذا الصراع تنافس الامبراطور جستنيان (٥١٧ – ٥٦٥ م) وبين زوجته ثيودورا التي كانت تتبع للكنيسة القبطية . فما سمعت أن زوجها قد كلف البطريك ثيودوسيوس لنشر مذهب كنيسة روما في أرض النوبة والسودان وحيث كانت الكنيسة القبطية هي صاحبة الشأن في مصر .. عملت ثيودورا بدورها زوجها واتصلت بالاسقف لونجينيوس ليكون أسقفاً على بلاد النوبة وينشر المذهب الارثوذكسي قبل وصول البطريك (ثيودوسيوس) في عام ٥٦٩ .

وقد نجح رسول الملكة ثيودورا في الوصول إلى النوبة قبل صاحبه حيث قفل الطريق أمامه التقدم في أرض النوبة . وقد وجد هذا المذهب الأرض ممهدة لقبول هذه الدعوة فقد كان رواد الكنيسة الاوائل يجوبون هذه المناطق وكانوا يلجأون اليها للاحتماء بها بجانب اخبارهم التي وصلت إلى هذه المناطق واستعد الناس لقبول هذه الديانة الجديدة وهم يرون ديانتهم الفرعونية قد طمستها الديانات الرومانية ثم جاءت هذه الديانة الجديدة بصورة تغير التي ألفوها وسمعوا بانتشار هابين سكان مصر .. فقلت عصبيتهم لديانتهم القديمة وباتوا في انتصار هذه الدعوة الجديدة ... وقد كانت شخصيات هؤلاء الرهبان هي المطابة

الطيبه لهذه الديانة بين هؤلاء القوم الوثنيين عباد آلهة الفراعنة ، وكما يحج أوغسطين فى (بيو) ، وانتشار المسيحيين فى الحبشة يحج هؤلاء عرشهم السودان وقد اعترض حكام المقره لونجينوس مبعوث المذهب الارثوذكسي حتى أضطر إلى الابتعاد عن النيل وسلك طريق القبائل البجاوية فى الشرق حتى وصل إلى مملكة علوة وعمد ملكها وأفراد أسرته وحاشيته عبدا للمسيحيه

أنتشرت المسيحيه فى مصر على أكتاف عامة الناس وقد إشتركت الاقباط فى نشرها وظهور المذهب الارثوذكسي .. وحيث كانت اللغة الاغريقيه لغة الانجيل فقد كان تعلم هذه اللغة ليس متيسراً للكثيرين ولكن إنتشار هذا الدين المسيحى دفع لتعلم هذه اللغة فى حين حلت اللغه القبطية فى نشر هذه الرسالة .. وبهذه الجهة أدخلت المسيحية السودان وأصبح تعم هذه الديانه و لتعمق فيها يتطلب تعلم هذه اللغة واللغة الإغريقية الامر الذى كان شاقاً على السودانيين ..

وكانت مهمة تعليم الرهبان من الافراد السودانيين فيه ، كثير من المشقة ويبدو أن هذه الدعوه لم تقف امامها هذه الصعاب فانشأت الكنائس بعد إعتناق ملك علوة والمقرة وحكام الاقاليم فى شمال المقرة وجنوبها حتى حدود مملكة علوة وأرض الجزيرة وقامت الاديره التى كانت المدرسة الاولى للحياه المسيحية وتخريج رواد صبورين ذاع شأنهم فى الضيق والسهول وظلت المسيحية تتقدم فى السودان وتجد المساعدة من تنافس كنيسة الاسكندرية وكنيسة روما وإرسال المبعوثين من الرهبان وتمسك بطارقتها حتى دخلت مصر فى الفتح الاسلامى بدخول عمر بن العاص إلى الفسطاط عام ٦٤١م ودخل الاسلام منافساً جديداً للديانة المسيحية . فآمن معظم الناس بالرسالة الجديدة التى كفلت حرية الديانه المسيحية وأعطى عمر بن العاص الضمان لبطريق الاسكندرية وعدم التعرض لكنائسه ورعاياها وقدم لهم المساعدات . ولكن هذا الدين المنافس الجديد الذى ظهر فى الجزيرة العربية ووصلت أخباره إلى شعب مصر والروايات التى وصلت عن النبي عليه الصلاة والسلام جعلت عدداً كبيرا من الذين لم يؤمنوا بالمسيحية يميلون إلى هذا النبي الجديد الذين لم يفقهوا الانجيل يميلون إلى هذا الدين السهل البليغ .

كان دخول الاسلام مصر يعنى الحد من نفسم المسيحية والاحتفاظ بواقعها كما يقولون وزحفت القبائل العربيـــة وخرج الرومان من مصر وابتعد شبح الامبراطورية وقلة سيطرة الدولة فى نشر اديانه المسيحية واقام عمر بن العاص جامع عمرو واقيمت الجوامع فى المدن الكبرى ودخلت مظاهر الاسلام على ضفاف النيل وزهد الرهبان فى هذه الارض المقفولة وفضلوا العمل فى أديرة غرب أوروبا وآسيا حيث فقدت المسيحية مساندة الدولة وتعضيدها رغم انها لم تقف معارضة منها .

وبذلك دخل السودان فى المسيحية فى القرن الثالث والرابع والخامس فى شكل رهبان هاربين او افراد لاجئين حتى كان القرن السادس فقبلها حاكم علوة والمقرة .

ولم يمض قرن حتى دخل الاسلام مصر واقفاً أمام توسع هذه الديانة بالدعوة للاسلام والايمان بسيدنا محمد عليه السلام خاتم المرسلين . .

وبدخول الاسلام إلى مصر زحف العرب على النيل وأرسل عمر ابن العاص قائده عقبة بن نافع عام ٦٤١ م لاخضاع النوبة وقد قابلته النوبة بالقوة ولم يستسلموا له حتى عقد الصلح بينهما ولكن عادت النوبة المسيحية مرة أخرى للتمرد على عهد عبد الله بن السرح فزحف جيش المسلمين عليها ولم يكتف هذه المرة بتهديد المسيحيين من النوبة المجاورين لحدوده الجنوبية بل وصل إلى عاصمة النوبة المسيحية دنقلة وحاصرها وضربها بالمنجنيق عام ٦٠٢ م حتى أستسلم ملكها قليدوروت وعقد صلحاً بين الطرفين لم يمس عبادة النوبيين ، كما أنه ضمن سلامة حياة المسلمين الذين يعتنقون الاسلام فى أقامة شعائرهم .

... بعد الانتقال إلى تتبع حياة العرب في السودان بعد ظهورهم في مصر وأنه يقينا يحق لنا أن نلتمس أوجه النشاط الثقافي والحضاري في هذه الفترة وما تركه الحضارة الفرعونية والمسيحية . كما رأينا دخلت المسيحية السودان دون حرب أو فرض عليها وكان دخولها تصاحبه بعض العقبات منها اللغة القبطية واللاتينية لغة الاديرة التي جاورت الكنائس التي قامت بكثرة وسرعة على طول النيل في صادى ودنقلة والدنة ومروى وكورتي وشمال كريمة عند الشلال الرابع وانتشرت المسيحية حتى وصلت مملكة سوبا التي قامت فيها أعداداً هائلة من الكنائس الجميلة الرائعة .

دخلت الأديرة السودان وأحتلت ابنية المعابد الفرعونية القديمة وكذلك قامت بعض الكنائس من بقايا هذه الاعمدة والمباني القديمة التي لم تعد صالحة للعبادة الفرعونية . .

وبانتشار المسيحية ورسالتها في نشر الدعوة وتعليم الناس رسالة المسيحي في الحياة إلا أن الزمن لم يمهل هذه الكنائس أكثر من قرن حتى دخلت مصر جيوش العرب المسلمين وبذلك قضت عليها فرصة تطورها وازدهارها كما كان في الحبشة بل انكمش رهبانها داخل أديرتهم ووقف تطورهم العملي واشتغل الناس منها بالدخول في الدين الجديد الذي بات يناوئهم و أرضها وفقدت الكثير من عطف والمساعدات التي كانت تلقاها من المواطنين وربما فقدت بعض أرضها التي قدمتها لنفسها للعبادة لرهبانها وعمومهم وكملاك لكنائسه كما كان شأنها في ذلك العصر ان تمتلك الكنيسة ارضيها الشاسعة وتستغل دخلها للصرف على الرهبان وأوجه تقدمها وشئونها المالية .

بعض الاثار من مخطوطات التي وجدت قريباً من المساجد التي كانت كنائس

اكتشف أنها مخطوطات من الأناجيل باللغة القبطية كما أن الرسومات التي وجدت على صدارة الكنائس تكشف أن الروح القبطية كانت هي الغالبية على الكنائس وأن لم يمنع ذلك في انتشار اللغة اللاتينية داخل الأديرة والكنائس ولتعرض هذه الآثار بعد الإسلام لكثير من التخريب أضاع الكثير من آثار هذه الفترة إلا أن عمران سوبة وكثرة كنائسها واستمرارها في [illegible] إسلامها حتى القرن الرابع عشر الميلادي يكشف لنا أن رهبان شمال السودان بعد أن قل عدد المسيحيين بالشمال نزحوا جنوباً كما أن خريجي تلك الأديرة وجدوا في حياة سوبة الوادعة وحاجة السكان هنالك إليهم وبعدهم عن العدوان دافع الرهبان للذهاب جنوباً واستمرت المسيحية في كنائس وأديرة سوبة في القرن السادس والسابع حتى قيام دولة الفونج إن وجدت هذه الدولة مسيحية فقيرة من المعلمين والرهبان .

توغلت المسيحية في الجنوب في حين زاد بمرور السنين دخول الدين الاسلامي في الشمال وبعدت كنيسة علوة الارثوذكسية عن كنيسة الأقباط في الاسكندرية التي كانت مركزاً هاماً في نشر الارساليات المسيحية وتعليمها . وتطوير هذه التعاليم والدفاع عنها . وانقطع خط عمله من سوبة بالكنيسة الام في الاسكندرية .

وكانت هناك في الشرق كنيسة الحبشة الارثوذكسية أيضاً التي كانت تابعة لكنيسة الاسكندرية لم يبدأ نشاطها إلا [illegible] من [illegible] كما أن معظم الحكام من المسلمين لم يتركوا [illegible] في [illegible] الكنيسة في أوروبا [illegible] قوة عن طريق الإقطاع مركزاً مالياً عظيماً حتى باتت هي [illegible]

أضاءت الكنيسة للفنون وحضارة الفراعنة الفن القبطى واللغة القبطية والفن الاغريقى واللغة اللاتينية التى لم تخرج عن الاديرة بعيدة وتطور الفن داخل الكنائس والاديرة ووقف نمو الفن والحضارة الفرعونية إلا ان التقاليد الفرعونية لم تزول فى مياه [illegible] وذلك لضعف رسالة المسيحية التى لم تجد المعلمين والاكفاء بالقيام برسالتهم بين المواطنين ومحاربة تلك العادات الوثنية .

ونحن إذا أردنا أن نتبع تطور المجتمع السودانى فى القرن السادس الميلادى حتى القرن الثامن عشر فلن نجد أى مخطوطات غير آثار لم تنطق بعد ولم نكتشف تاريخ هذه المرحلة غير أننا يمكن الاستعانة بما خلفه بعض الرحالة — بعض المؤرخين من مخطوطات بمعرفة الحياة الاجتماعية وسبل كسب العيش وتكوين المدن . نجد ذلك فى مخطوطة ود ضيف الله وهى كشفت لنا حالة الصوفية ونشاط الاسلامى الذى قام على اكتاف لرجال الصالحين والصور الغريبة والروايات المبالغ فيها عن الخوارق التى كان يأتى بها الأفراد . وهى تكشف بصورة عامة عن تدهور العلم حتى استطاع العقل السودانى من جراء الجهل فى قبول تلك الافكار الغريبة وتفسير بعض الحركات المرضية على أنها علامات صلاح كما يصف لنا بوكهارت عن الحالة المستقرة للمجتمع على النيل وحالة القبائل وسط حالة التجارة وجشع حكام المدن على النيل فى بربر وعطبرة والدامر وشندى واعتماد دخل ورؤساء الجماعات على ضرائب التجارة . . .

إلا ان التجارة كانت هى الحياة فى بعث حركة العمل فى نقل حاصلات أهل النيل وواردة وسنار عن طريق شندى سنار ودارفور [illegible] . إلى سواكن أو البحر وعن طريق الاربعين [illegible] هجمات قطاع الطريق مثل [illegible] الذى كان يعيش فى أرض الرباطات فى القرن التاسع عشر وهجومه المتواصل على القوافل وتقسيم أمواله على المساكين [illegible] الدينية ونكشف لنا رحلة بوكهارت

والتونسى أن تعاليم الدين تكاد تكون معدومة أو مجهولة وانتشار السكر والدعارة حتى فى مدينة مثل النامر حيث نشأت بيوت العلم والصوفية وبيت المجاذيب وما لاقاه بوكهرت فى تلك المدينة يكشف عن رهبة رجال الصوفية على جميع المنطقة التى حولهم واحترام الناس لحقوق رجال الصوفية إلا أن رجال الصوفية لم يحاولوا أن يتدخلوا فى حياة الناس العامة أو تقويمها وانتشار بيوت الخمر والدعارة حواليهم كان يكشف عن حالة المجتمع وتفككه .

كما تكشف لنا رحلات التونسى لدارفور فى أوائل القرن التاسع عشر أيضا عن حالة المجتمع القبلى والمعرفى فى غرب السودان وانتشار الجهل والخصومات القبلية والصراع الذى كان يلاقيه العلم حتى من رجال الحاشية والحاشية بنفسه .

القرن السابع الميلادى

قبل الحديث عن الأحداث الداخلية فى السودان يجب علينا أن نطل على الأحداث الخارجية خارج السودان التى كان لها أثر على تطور السودان وسنحاول فى هذا القرن تتبع النشاط الانسانى والتوسع العربى عما كان له أثر مباشر فى الحياة السودانية فقد اعتمدت معظم الدراسات التاريخية بتتبع الحركة العربية فى السودان واستخدام الحوادث اليومية لدخول العرب السودان وأبعدوا هذه الاحداث اليومية عن مجرى السياسة العربية والاسلامية فى تاريخ الدولة الاموية والعباسية والفاطمية وربط هذه الاحداث وانعكاسها على الحركة الإسلامية والتوسع العربى . لانه بدون تتبع الوضع السياسى للدولة الاسلامية فى القرن السابع الميلادى حتى القرن الخامس عشر الميلادى لانستطيع أن ندرك سبب إنتشار العرب والدوافع السياسية والعقائد والمذاهب الدينية التى كانوا يعتنقونها وأثر هذه المذاهب فى تاريخ الدولة الاسلامية ودخول العرب إلى أفريقيا الوسطى .

كان القرن السابع الميلادى هو عصر الفتوحات الاسلامية وانتشار الدين الاسلامى فى الجزيرة العربية حتى شرق إفريقيا . وحين دخول الاسلام إلى مصر فى هذا القرن كان السودان ينعم بميلاد المسيحية وهى فى طور شبابها وازدهارها وبدأت المحاولات العربية لاخضاع مملكة دنقلة المسيحية إلا إنها إكتفت بعقد صلح مع ملك دنقلة قيلدوروث عام ٦٥٢ م . جاء فيه إنه لايحارب المسلمون النوبة وبالعكس وأن يدخل المسلمين بلاد المسيحيين مجتازين غير مقيمين فيها وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين حتى يخرج منها ، وعليهم رد كل آبق دخل بلادهم من عبيد المسلمين وعليهم حفظ المسجد الذى إبتناه المسلمون بدنقلة وكنسه وإسراجه وتكرمته وإلا يمنعوا عنه مصليا وإن يدفعوا فى كل سنة ثلثمائة وستين رأسا من أوسط رقيقهم غير المعيب يكون ذكراً :

هذا الحادث كان من أهم الحوادث التى حدثت فى حياة السودان السياسية والاجتماعية إذ تعرض لاول مرة لغزو من القبائل العربية وهم لم يعرفوها من قبل وخاصة سكان هذه المنطقة إذ لم تسقط مصر من قبل تحت سيطرة العرب إلا فى عهد العرب العمالقة .

وإن لم يأتى هذا الحادث بنتائج سياسية فى حدود الدولة السودانية إلا أنه كان علاقة تاريخية ومراً مأمونا لدخول العرب فى هذه المنطقة ، ووقوف الجامع بين الكنائس وإقامة الشعائر الاسلامية من صلاة وآذان وأدخل على حياة الناس فى تلك المنطقة الشمالية أسلوبا جديدا فى العبادة لم يألفونه ودينا جديدا مباركا جاء ينسيهم دينهم القديم

إما ماعدا ذلك فقد استمرت الحياة السياسية والاجتماعية فى السودان كما هى ولم تحدث حوادث خارجية تؤثر فى حياة السودان فى المستقبل غير الهجرات العربية التى كثرت نحو شرق افريقيا والتى إضطرت إحدى الهجرة لدخول أفريقيا واواسطها والتأثير فى منطقة الفرد وكانم وبرنى والسنغال وتمبكتو .

هذا فى الشمال أما فى غرب السودان فيصعب تحديد الحالة الاجتماعية فى تلك المنطقة لعدم وجود أى وثائق او معلومات عنها ولكن يوجد من العمران والحياة الاجتماعية الملكية التى كانت سائدة فى دارفور ومنطقة جبل مرة حتى القرن الخامس عشر الميلادى . ان هذه المجموعات عرفت الحياة الاجتماعية ونظم الحكم فى فترات بعيدة من درايه وعبادات شعوب تلك المنطقة كانت تختلف عن سائر البلاد مما يدل أنها قديمة وعريقة فى هذه المنطقة الغنية بالخيرات الطبيعية والانهار والوديان التى هى المصدر الاول لخلق التجمع والجماعات المختلفة الاولى .

سيبخون :

بعد وفاة (سباقون) إعتلى عرش طيبة إبنه سبيخون ، وخلف له والده عدواة أمراء الوجه البحرى ومرارة هزيمة الاشوريين ، فحاول أن يعمد هذا الملك إلى سياسة فرق تسد بين أمراء الوجه البحرى إلا أن المنية عاجلته قبل أن يتمكن من اعادة وحدة البلاد كما كانت عليها حتى أعطى فرصة لليبيين للظهور مرة أخرى وتدخلهم لمساعدة أمراء الوجه البحرى لطرد الاثيوبيين

بعنخى :

ومن ملوك الدولة الأثيوبية بعنخى العظيم الذى خلف لنا آثاراً كثيرة تتحدث عن مجده وعظمته وشهرته فقد سمع هذا الملك بمحاولة الليبيين لتجميع أمراء الوجه البحرى وطرد الاثيوبين من مصر فجرد بعانخى جيشا عظيما وأرسله لمصر وخلص طيبة من سيطرتهم ولحقهم عانخى بجيش آخر وطارد فلول المنهزمين حتى تمت له السيطرة على الوجه القبلى كله وإستعد لمحاربة بقايا أمراء الوجه البحرى وإحتفل بنصره فى معبد آمون بالكرنك ثم واصل زحفه على أمراء الوجه البحرى حتى وقف عند حصون منف القوية وقاد الحملة بنفسه حتى كسر شوكة حصون منف وعامل أسراه أحسن معاملة .

* * *

أما فى أواسط السودان فقد كانت منطقة الجزيرة أكثر كثافة بالسكان وخاصة منطقة النيل الازرق وجنوبها قبائل الشلك الوثنيه وقد أعتنقت شعوب تلك المنطقة العبادات الوثنية وبعضها أخذ المسيحية بظهور مملكة علوه (سوبه) فى تلك المنطقة وانتقال الحكم اليها بعد هجوم الحبشة عليها فى القرن الرابع الميلادى وتدمير مروى القديمة .

* * * *

* * *

نشاط الحركة الثقافية في العصور الأولى للاسلام

دون أن نضيف للتاريخ بعض العبارات غير العلمية ودون أن نتصور من أشياء صغيرة حقائق كبيرة تعطينا صورة بعيدة عن الحقيقة ونجعل التاريخ الحقيقى صورة بعيدة عن الواقع بفعل حبنا أو محاولة اعطاء ماضينا شيئا من المجد بأسلوب فيه كثير من العطف والحب . . ولكن الاجدر بنا حتى نقف على الصوره الحقيقية للتاريخ أن نقف منه موقف العالم الذى يفسر الاشياء كما هى دون اعتبار للنتائج ان كانت ترضينا أولا ترضينا .

لو تتبعنا حركة البعث الاسلامى المصاحب لنهضة الفكر العربى نجد بدء إبتداء فى جنوب الجزيرة مع مولد الرسول (صلعم) ثم انتشرت الدعوة للشمال ثم عرجت على شمال افريقيا ثم غرب أوربا المطل على البحر والمحيط .

بدأت الدعوة الاسلامية بحماس دينى شديد ثم انحرفت بحماس للدولة الجديدة التى قسمت المسلمين إلى أقسام كثيرة منهم من تبع حكم معاوية بن سفيان وعائلته ومن عارضه من أسرة على بن أبى طالب الشيعة ثم كان الخوارج عارضوا الجهتين المتنازعتين على زعامة المسلمين .

فى بداية هذا الخلاف داخل الجزيرة العربية وانقسام العرب إلى ثلاث جبهات كل منها تترصد بالأخرى وتعمل للاساءة والإطاحة إنما دفعت بالدولة الاسلامية إلى اتجاه جديد . وهو التركيز على تقوية الدولة الاموية ان كانت أو العباسية عسكريا ، وتنظيم مجال الدولة حتى تستطيع أن تطارد وتقضى على الفئات الأخرى التى تحاول أن تسىء أو تكون للاطاحة بالدولة الاسلامية قائمة

هذا الصراع الداخلى داخل الدولة الاسلامية حد من نشاطها الاسلامى والثقافى بل دفع بكل امكانياتها بل بعضها إلى محاربة الخارجين على القانون ، والمعارضين من العرب بجانب المشاكل الخارجية . . . وهذا هو السبب الذى دفع بالدعوة الإسلامية أن تفقد وحدتها وقوتها التى خرجت بها من جزيرة العرب فى زمن الخلفاء الراشدين .

بدأ الحكم الأموى عام ٢١ هـ — ٦٤١ م واستمر صراع داخلى مرير كلفه كل امكانياته لمحاربة الشيعة والخوارج ، ولا ستتباب الأمن فى الأراضى الجديدة التى فتحها العرب الإسلام ، الأمر الذى جعل الدولة الأمويه تتعاون مع الشعوب الأخرى خائفة من أنصار الشيعة والخوارج ، حتى انتهى الحكم الاموى عام ١٢٣ هـ ٧٥٠ م وكان سبب انتهائه هو هذا الصراع الداخلى الذى واجهه من الشيعة والخوارج مع اتساع رقعة الامبراطورية الاسلامية .

لاشك أن خروج العرب من الجزيرة العربية واتصالهم بحضارة كبيرة كحضارة الاغريق والرومان والفراعنة واخضاعهم لمعظم شعوب هذه الحضارات كان لابد للعرب أن يكونوا فى مستوى أقوى من هذه الحضارات . وقد كان لهذه الحضارات بقاياها الخالدة التى كان لابد للعرب أن يطلعوا عليها وحتى يستطيعوا أن يفرضوا منطقتهم وفكرهم وثقافتهم على هذه المناطق . . . فوجه هذه الدولة الاسلامية سيطرتهم على فكر وحضارة هذه الامم وملاءمة الفكر العربى مع هذا التراث كان لابد للعرب من أن يطلعوا على هذا التراث بعد هذه الفتوحات التى أخضعوا بها هذه الحضارات عسكريا فلابد إذن من اخضاعها فكريا . . . وقد كان لهذه الحضارات سيمتها فى هذا المضمار ولا شك الحضارة الاغريقية والرومانية ، وما تركته الحضارة الفرعونية من آثار وما أخرجته جامعة الاسكندرية من علـــم وفكر .

سقط الحكم الاموى ليبدأ الحكم العباسى عام ٧٥٠م - ١٣٢هـ . ويبدأ الصراع العربى من جديد أكثر وحشية داخل العرب المسلمين أهل الدعوى فى عصبية لحكم أنستهم عظمة الرسالة وهدف الرسالة أنما شهوة الحكم ودعوت بالقوى لكرسى الدولة الاسلامية الامر الذى مزق وحده الامة العربية منذ ذلك التاريخ إلى طوائف وأحزاب .

فى ظل هذا الصراع اتسعت الدولة الإسلامية فى العهد الاموى والعباسى ولكنه اتساع على حساب قوة ومركزيه الدولة الإسلامية وزيادة مسئولياتها وعبء للدولة بجانب هذا التصدع الداخلى المريع الذى طل على الدولة المركزية والحاكم باسم العرب والمسلمين حتى فتح هذا الباب لكثير من الاجناس الاخرى أن تتقدم إلى كراسى العرب المسلمين بفرض المساعدة عند الطوائف الاخرى - أفاد الثقافة العربية والفكر العربى لاشتراك تلك العناصر غير العربية فى مجال الثقافة والفكر والإدارة فى مرحلته الاولى قاد فى النهاية لانقسام الدولة الاسلامية على عدة دول فى حلب وبغداد والقاهره والمغرب .

اتسعت الدولة الاسلامية ولكن ما قيمة ما صرفته فى نشر الثقافة والفكر العربى فى الاراضى الجديده والاسس التى قامت عليها هذه الدعوه فى عالم جديد عن حضارتها ، وأرضها . . . وسنرى القواعد التى قام عليها الفكر الاسلامى لنشر الثقافة العربية فى مصر ثم السودان .

تخطيط العرب لنشر الثقافة والفكر العربى

بعد حكم رومانى قام بعد مقتل كليوباترة فى عام ٥٤ ق م إلى ٦٤١ م . بدخول عمرو بن العاص لينهى سيطرة المسيحية على أرض النيل والرومان عنها وليبدأ عهداً جديداً فى حياة مصر العربية وحياة أفريقيا والنيل .

أنشئت الدولة الإسلامية على أرض النيل وامتدت حتى حدود المملكة السودانية وأرسل عمرو بن العاص فى نفس العام قائده عبد الله بن سعد إلى مملكة دنقلة المسيحية لينهى هجومه على العاصمة دنقلة بالصلح ومعاهدة تبيح للمسلمين اقامة شعائرهم ومساجدهم وضمان حرية مرور العرب .

كان لابد للدولة الإسلامية لتركيز الدولة سلطانها فى أرض النيل أو فى أى بقعة جديدة من اقامة الدولة القوية ثم نشر الدعوة والعلوم الإسلامية بما فيها من شريعة وفقه وحديث وكتاب الله وتفسيره .

كان الجيش هو قوام الدولة الإسلامية وكان الجامع هو المدرسة الأولى لنشر الثقافة الإسلامية .

قامت مدينة الفسطاط بعد فتح عمرو بن العاص فى عام ٦٤١ م بعد أن بسط نفوذ الدولة الإسلامية على مصر ومد هذا النفوذ إلى عاصمة الدولة المسيحية السودانية دنقلة .

إنشاء عمرو بن العاص المسجد الجامع أو جامع عمرو أو كما كان يسمى المسجد العتيق أو جامع مصر أو مسجد أهل الراية .

وإذا انطلقنا من هذا الجامع الأول وهذه المدرسة الأولى لنشر العلوم الإسلامية والثقافة العربية على أرض النيل وتتبع نشاط هذه الجوامع وازدهار هذا الجانب العلمي من الدعوة الإسلامية حتى نتمكن من رصد هذا التطور على الثقافة العلمية في السودان بجانب العوامل الأخرى والمصادر الأخرى .

واستمرت مصر في خلافة الأمويين ثم العباسيين ولم يجد في حياتها العلمية أي إضافة لجامع عمرو لمن كان أميرا أو والى مصر .. وقد كان المسجد هو المنبر الرسمي في المقام الأول ليجتمع الوالي برعيته بعد صلاة الجمعة لإلقاء المواعظة والأوامر والتشريعات الجديدة .. كان الجامع هو المنبر لنشر سياسة الدولة الإسلامية أيام الجمعة .. وكان يقوم بجانب هذا الدور بعقد الندوات والمناظرات وحلقات الدراسة منذ إنشائه ولكن هذا الدور لم يأخذ شكله الواضح ... بل كان نشاطه ضئيلا بالنسبة لوضع الدولة الجديدة التي عاشت في اضطرابات الحكم وصراع الشيعة والأمويين والخوارج لم يتح لها أن تخطط للدراسات والعلوم العلمية لتنمو بجانب الدولة الجديدة ، الأمر الذي جعل من هذه الجوامع كمنبر عام للخطابة الرسمية .

وقبل أن نحكم على هذه الظاهرة يجدر بنا أن نلقى نظرة على المجتمع المصري قبل الفتح وبعد الفتح ثم نلقى نظرة عملية وعلمية لإنشاء جامعة إسلامية تقوم بتدريس العلماء والفقهاء والمفسرين ولتخرج كافة رجال المعرفة تحتاج إليهم هذه الدولة الجديدة .

قبل دخول العرب مصر كانت الإسكندرية هي جامعة مصر تنقل إليها علوم الإغريق وترسل الوفود وتستقبل الوفود . ونحن نعرف أن بعض العلماء الأفذاذ في العلوم قد تخرجوا ونبغوا من جامعة الإسكندرية وقد أنشأت جامعة الإسكندرية ومكتبتها في عهد البطالسة أو البطالمة . وقد عرف أهل أثينا العالم « نكريس » في مفهوم الدولة والقوانين ثم ذاناوس ، الذي أنشأ مدينة أرغوس في قسم المورة ، و« أفلاطون » فيلسوف الحضارة الإغريقية العريقة تتلمذ على كهنة من كهنة عين شمس أخذ عنهم علم مصر القديمة .

ثم « بطليموس » ابن الإسكندرية وأبو علم الفلك والجغرافيا و« فيثاغورس » صاحب النظرية ومطور علم الهندسة والذي رفعه علمه في نظر تلاميذه حتى دعوا أنه ابن الآلهة (أبولون) ثم « بوسيبوس » مؤسسة الفلسفة التي تعرف باسمه والتي تدعو لحرية الإرادة والإيمان بالله والترفع عن المادة وترويض الجسد من الشهوات .

هذه الجامعة التي نقلت حضارة الإغريق والرومان وبعثت الحياة العقلية والفنية من جديد في مصر — بعد أن سكنت الحضارة الفرعونية التي أعطت أقصى إمكانياتها ثم بدأت تذبل لتفسح المجال لشعوب أخرى لتأخذ دورها في التطور .

كان المجتمع المصري يعيش تحت ظل الدولة الرومانية بفنها وفلسفتها بعد أن ظهر المسيح ليفتح آفاقاً جديدة للعقل البشري ليفكر في الله والوجود ويخرج الإنسان من عالم العبث وآلهة الإغاريق والفراعنة إلى دنيا جديدة مليئة بالحق والتضحيات . . . وقد وصلت آثار هذه الحضارة إلى جنوب النيل وعرف

سكان السودان الفن الإغريقى وآلهة الإغريق ولكنهم لم يبدلوا آلهتهم بآلهة الإغريق حيث لم تكن هناك سيطرة لهم على السودان إنما المعاملات التجارية التى كانت قائمة بين المملكة المصرية الرومانية والمملكة السودانية الفرعونية التى عاشت حتى بعد القرن الثالث الميلادى فى حين وقف نمو الحضارة الفرعونية فى مصر من القرن السادس قبل الميلاد .

كان المجتمع المصرى هو مجتمع البلاط الملكى وجنده وحاشيته ومجتمع الفلاحين الذين يخدمون هذا البلاط . . . الفن والفكر للذين يدورون حول القصر أو الذين يسكنون فيه أما بقية الشعب فهم عبادة الآلهة وزراعة الحقول .. ليأكل السادة ويجبون الضرائب ويعيشوا فى عالم آخر قائم على عرق هؤلاء الأشقياء الذين رأوا فيه جنة بالنسبة لحكم الفرس الذين حكموا البلاد بالبطش والإرهاب .

فى ظل هذه الحضارة التى امتدت من شمال البحر الأبيض المتوسط إلى جنوبه حتى عمت النيل ظهر المسيح منافس جديد لآلهة هذه الحضارة .. ومعه الإنجيل الذى حير الفلاسفة وأهل الفلسفة فى معتقداتهم وآرائهم .

إن ظهور المسيح لا يمكن أن يكون حدثا سهلا بالنسبة لرجال الفكر والفلسفة فى ذلك العهد . . فقد جاء رسول بعقيدة تخالف كل فلسفاتهم وأفكارهم . . كما أنهم وجدوا أنفسهم فى مكان إمتحان قاس بالنسبة لبقية الشعب الذين يستفتونهم فى آراء هذا الرسول كما أن موقف الكهنة من هذه

الديانة السماوية الجديدة أمر ليس بالسهل . وأخذ الصراع الطبيعى بين المعتقدات القديمة والديانة الحديثة زمنا ليس بالقليل حتى سادت المسيحيه وأصبحت ديانة الدولة وفرضت نفسها على بقية الشعب وامتدت إلى المملكة السودانية الفرعونية التى أثرت فيها وبسطت ديانتها فى القرن الرابع الميلادى حتى وصل هذا الأثر إلى داخل السودان . إلى مملكة علوه قرب مدينة الخرطوم .

دخول العرب والإسلام السودان

سنبحث بعد الآن في نوعين من المؤثرات على حياة المواطن السوداني أولا دخول القبائل العربية - كقبائل لها عاداتها وأخلاقها وفكرها الذي يختلف عن فكر وعادات وتقاليد المناطق الجديدة التي ارتادها العرب مكرهين أو راغبين وسنحاول أن نتتبع المؤثرات التي خلفوها على الجماعات السودانية في شمال وشرق وغرب السودان كما سندرس أثر الدين الإسلامي كدعوة جديدة جاءت إلى قرى مسيحية وقبائل وثنية . .

دعوة جديدة تدعو لوحدانية الله وعبادته .. وسنرى إلى أي حد كان دعاة هذه الدعوة أو رسل هذه الرسالة توفقوا إلى توصيلها إلى هؤلاء الأغراب عنها، وكيف إستطاعت أن تحل مكان الوثنية ومكان المسيحية في الشمال وفي وسط السودان.

عرفنا أن زحف القبائل العربية بدأ بظهور الاسلام في أفريقيا وأوربا من أجل نشر الدعوة الاسلامية ثم هروباً من العصبيات السياسية من إنصار لدعوه الامويه والعباسيه والفاطميه .

وقد كانت مصر هي نظر أمير المسلمين عمر بن الخطاب حين دخل عمر بن العاص ناشراً الدعوة الاسلامية في أقوى دولة في أفريقيا في ذلك الوقت وفتح الطريق للقبائل العربية لتنتشر خارج حدود الجزيره العربية .

دخل عمر بن العاص مصر عام ٦٤١ ميلادية ولم يكن دخوله إلى مصر دخول

عابر أو احلال دين مكان آخر وعملية التحويل نفسها لا تأتى بالقوة أو بين يوم وليلة أنه تغير فى معتقدات الناس وفى معاملتهم .

وإذا كان دخول عمر بن العاص إلى أفريقيا عن طريق مصر يعنى أولا – عزل أفريقيا عن حضارة شمال البحر الأحمر المتوسط التى سيطرت عليها منذ عام ٣٣٢ قبل الميلاد بفتح الاسكندر المقدونى لمصر ودخول الحضارة الاغريقية لمصر وافريقيا ثم أعقبه الرومان من عام ٥٤ ق.م إلى ٦٤١ ميلاديه .

إذا وضعنا فى إعتبارنا أن المنطقة النيلية التى قامت عليها الحضارة والمبانى الفرعونية تمتد من الاسكندرية إلى النيل الازرق بالسودان لأدركنا أن سيطرة الحكم على الاسكندرية أو الفسطاط يعنى بالتالى أما أخضاع كل هذه الممالك ذات الحضارة القديمة لحكم الشمال او ترقب الجنوب لهذا الحكم الجديد الذى استولى على مقاليد الحكم فى الشمال . . . وستظل الممالك الجنوبية فى ذعر وخوف وترقب تنتظر زحف هذا الحاكم الجديد على مصر أن يغزوها . وإذا لم يحدث الغزو يحدث التفاهم والتآمر ، وهذا ما حدث كان جنوب النيل ليس بموضوع هام للاغريق أو للرومان رغم أن رحلة هيرودوت فى القرن الرابع قبل الميلاد تكشف لنا رغبة للاغريق العارمة لمعرفة منابع هذا النيل ومحاولتهم للسؤال عنه أو استكشافه . هذا يضاف إلى أن قدسية هذا النيل واسطوريته عند الاغريق . وما وصل إلى اسماعهم عنه وتسميتهم لمنابعه بهضاب القمر البيضاء والتى رجح أخيراً انها تعنى هضبة جبال كلمنجارو وشلالاتها .. وهذا يكشف لنا الى أحد هؤلاء المكتشفين الاوائل قد قرب من هذه المنابع أو أن المعلومات قد وصلت اليهم ... أو أن تصورهم قد بلغ هذا الحد لرائع لمنابع النيل .

هذه الحضارة المزدهرة التي كانت قائمة على شمال النيل وكان لها أثر مباشر على جنوب النيل كما جاء سابقاً يمكن أن يكون زوالها بهبوب عاصفة تقضى على القديم وتترك المكان مسطحاً للجديد لمنبت بل العكس إما عملية صراع رغم الغلب الظاهرى الذى امتاز به العرب والاسلام على شمال أفريقيا .

ولكن فرض الثقافة العربية والاسلام والحضارة العربية مكان المسيحية وحضارة شرق البحر الابيض المتوسط وشعوبه لدى أمراءها ويسيراً يتم فى عام أو أعوام بسيطة . أن الجيش الاسلامى ربما يدخل ويفرض الحكم الاسلامى وربما ينتشر الجند فى كل بقاع المملكة ... ولكن الحياة العربية لن تظهر إلا بعد أن يغلب هؤلاء العرب عددياً وعسكرياً وفكرياً على الواقع الموجود . وهذا ما يكشف لنا دخول العرب السودان فى جماعات كبيرة ظاهرة بعد سبعة قرون من دخولهم مصر رغم أن عمرو بن العاص (عام ٦٤١) أرسل عبد الله بن السرح لتأمين الحدود الجنوبية من المملكة المسيحية والقبائل الجنوبية لضمان سلامة مملكته من الجنوب ولمحاولة بعث هذه الدعوة للجنوب . . ولكن لقلة امكانياته للتوسع جنوباً اكتفى رسوله عبد بن السرح بعد أن ضرب دنقلة بالمجنيق بعقد معاهدة صلح مع حاكمها بأن يعترف بالدين الاسلامى ولا يعاديه ... وأن لا يضطهد من يؤمن به .. وهو بذلك ضمن حرية العبادة للمسلمين فى تلك البلاد المسيحية . . كان هذا أهم حادث فى تاريخ السودان الاسلامى . وأن يفرض الحاكم الجديد على مصر على حاكم شمال السودان المسيحى بأن يحترم الدين الاسلامى . . وأن يحترم المسلمين ويتركهم لأداء شعائرهم . . . وقد كان من حسن حظه أن هذه المملكة المسيحية لا تملك من المنعة أو المقاومة لهذا العالم الجديد الذى أذهلت فتوحاته كل ممالك العالم وأصبح يرعب كل ملك ينتظر قدومه .

كانت معاهدة بن السرح هى وضع الراية الاسلامية من قباب الكنائس فى أرض السودان فى النصف الاول من القرن السابع الميلادى .. . وعاد راجعا بعد أن ضمن حرية العبادة المسلمين .. .. ولكن فى الحقيقة لم يكن هنا لك مسلمون فهى دعوة جديدة دخلت عليهم بالقوة .. .. ولكن ظاهرة التسامح والعقد الذى أعطاه بن السرح لحاكم دولة فتح الباب لهذه الدعوة أن تدخل قلوب المواطنين فى أرض مسيحية متعصبة لمسيحتها وربما غاضبة لانهزام مصر المسيحيه أيضا .. .. وسد الطريق أمام هذه الممالك إلى الاسكندرية والأمر الذى كاد يخنق هذه المسيحية فى حدودها وربما عزلها عن العالم المسيحى النشط الذى كان يعمل فى شروق البحر الأبيض المتوسط لتنشيط رسالة المسيح وتدعيم الكنيسة المسيحية وزعامة أورباالنشر الدعوة لمسيحية .

بعد القرن السابع الميلادى خضعت مصر وشمال أفريقيا الاسلام وسيطرة الحكام العرب والقبائل العربية والتكاثر عدد النازحين العرب فى شكل جيوش أو متأخرين يذهبون حيث امتدت دولتهم الاسلامية .. .. فالحكم العربى على هذه البلاد فتح لهم باب الهجرة والتجوال بين هذه الأمم حتى سيطروا عليها وفرضوا لغتهم وأغلب عادتهم

أما فى السودان فلم يحدث غزوا لوضع دولة سلامية عربيه كما حدث فى بقية البلدان التى خضعت للاسلام والحضارة العربية بكل مقوماتها . . . فقد ظل السودان فى شبة سلام من هذا الغزو الاسلامى والحضارى مكتفيا بعزلته المسيحية .

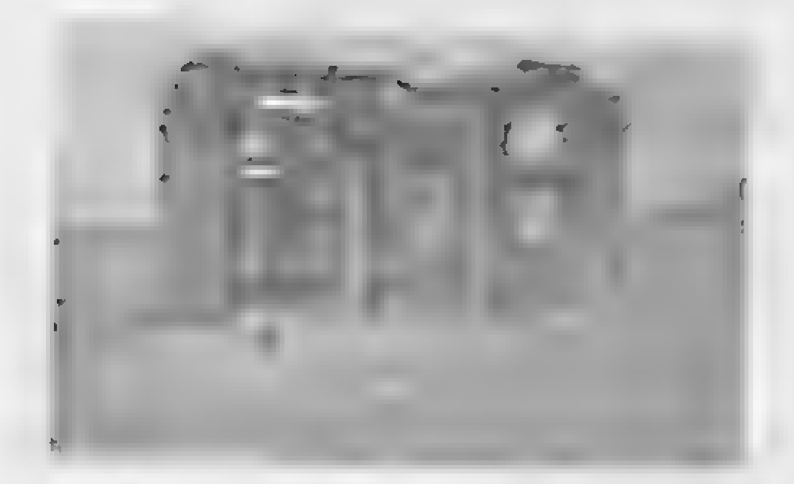
ولكن هل يقف الاسلام والعرب عند حدود مصر ، بالطبع لا . . فقد امتدت

الهجرات العربية لتأمين الحدود الجنوبية لهذه المملكة الاسلامية التى لها وضع إستراتيجى بالنسبة لعاصمة الامبراطورية الاسلامية المصرية وبالنسبة لشمال افريقية وأسبانيا .. وكانت مصر ملتقى مركز هام لهذه الدعوة ولهذا الانتشار العربى .

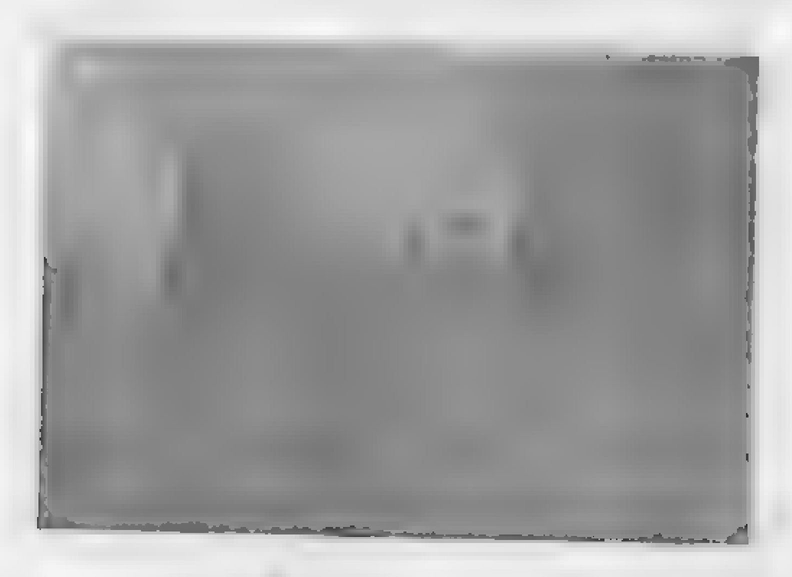
أن ظهور العرب فى أى مكان أو بين أى مجموعات لا يحدث فى لحظة . . . وإذا أردنا أن نتصور أو ندرس التاريخ كما هو ، علينا أن نسأل أنفسنا بعض الأسئلة كيف كان يعيش هؤلاء العرب مع هذه المجموعات . . . أى حرفة كانوا يتكسبون منها قوتهم . . ما نظرتهم للقوم الذين بينهم وما نظرة القوم اليهم .. وما صناعة هؤلاء القوم . . . ما هى العلاقات الاجتماعية بين هؤلاء السكان وما معتقداتهم .. هل وجدوا هنالك تنافراً بين طباعهم وطباع العرب — هل وجد العرب منهم طباعاً تجعلهم ينعزلون عنهم أم وجدوا تقاربا بينهم فى المعاملات والأخلاق حتى سهلت عليهم عملية التعايش والتعامل ... اللغة التى كان يتكلمها هؤلاء القوم قبل قدوم العرب هل كان يعرفها العرب — هذه كلها أسئلة يجب أن نتصورها حتى يمكن أن نتصور حركة التاريخ أما إذا حاولنا ان نبدأ بعد غلبة العرب والاسلام عليهم . . . فستضيع علينا ملامح المجتمع الجديد الذى جاء نتيجة هذا التزاوج والامتزاج .

ولنضرب مثلا أن جماعة العرب التى حكمت أسوان كيف تيسر لها أن تحكم أسوان .. وحتى تظهر لنا فى القرن الحادى عشر الميلادى مملكة عربية كنزية تسيطر على جنوب مصر . . . هل حدث هذا التحكم فى لمحة البصر وأصبح حقيقة واقعة أم هناك تدرجا حدث حتى حدث هذا التغلب .

والصورة تحدث كما يلى . . وهو تغلب العرب المسلمين على مصر ودفع لعرض



[illegible] مكاتب [illegible]
الابيض المتوسط .



[illegible] من [illegible] اثار [illegible]



[illegible]

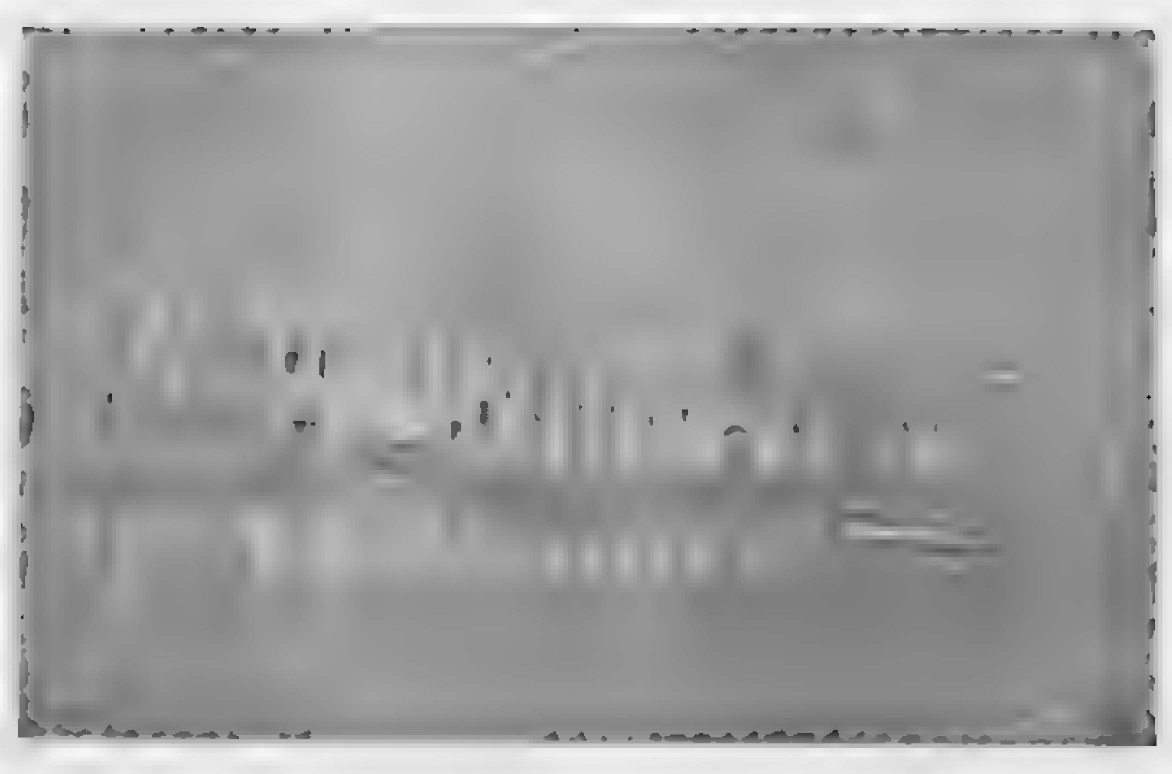
الفن المسيحى والقبطى بالمديريه الشمالية . .

[illegible]

الممثل فى حضارة انسان النيل.



[illegible] متانة البناء والأعمدة [illegible]



أطلال مدينة سواكن ميناء البحر الأحمر فى شرق السودان واجهة الحضارة العربية فى الشاطىء الآخر من البحر الأحمر.



[illegible]
الفن المسيحى والقبطى بالمديريه الشمالية . .
[illegible]
الممثل فى حضارة انسان النيل.

حكام على المراكز الكبيرة ولما كانت أسوان من المراكز التجارية الهامة بين حدود مملكة مصر . . . وممالك النوبة المسيحية وأصلاء التجارية عن طريق القوافل لبيع حاجيات أهل السودان لمصر وحاجيات أهل مصر للسودان . . . وبمرور الزمن وقوة هذه الحامية الجنوبية كثر عدد العرب بها . . . وحينما كثر عدد العرب بها . . . نزح إليها بعض مجموعات القبائل العربية التي كانت تجد في ظل الحكم العربي ضمان وحماية لها من أي منطقة أخرى

وحينما كانت علاقات أسوان بممالك النوبة دائما في تحرش بسبب المدن والقوافل التجارية ... ولهجوم النوبة على حدود هذه المملكة المسلمة . انتهى الأمر بأن تغلبت المملكة الجنوبية الإسلامية على ردع المملكة النوبية المسيحية وفرض دية عليها .

إذا اعتبرنا الفتوحات الإسلامية هي البداية العظيمة لهجرة العرب خارج الجزيرة في مجموعات كبيرة ولو اعتبرنا أن العرب وصلوا إلى حدود المملكة المسيحية السودانية دنقلة في النصف الأول من القرن السابع الميلادي . . . بعد اصطدامات هدمت قباب كنائس دنقلة رجع العرب لحراسة الحدود المصرية وأقاموا في أسوان قاعدة جديدة للحرب.

وفي القرن السابع الميلادي كثرت الروايات عن بلاد النوبة والبجة وبمنسه والسودان في كتب العرب في كتابات قائمة على الرواية والنقل وهو أمر لم يكن معروفا من قبل وظهر اسم القبائل السودانية في روايات كثيرة وارتباطها مع العرب بعد القرن الثالث الهجري الأمر الذي يجعلنا نقف عند أسوان كقاعدة انطلاق للعرب والمسلمين داخل السودان .

شيد العرب بأسوان حصناً قوياً ضد غارات النوبة والبجه وسكنت القبائل العربية فى المناطق المجاورة لاسوان وذلك بعد حكم عثمان بن عفان الذى فى عهده عقد الصلح بين النوبة والعرب على أن يدفعوا جزية سنوية قدرها أربعمائة رأس فى السنة

النوبة :

عرف عرب السودان بأرض النوبة جنوب أسوان إلى ... ملتقى النيلين الابيض والازرق كما أطلقوا النوبة إلى أرض ... وذلك كان سكان السودان عموما بالنسبة اليهم نوبة وقد عاشروهم وعرفوا كرم طبعهم مما جعل النبى (صلعم) يقول من لم يكن له أخ فليتخذ له أخاً من النوبة

وعند ظهور الاسلام على حدود السودان كانت هنالك فى الشمال مملكة النوبة المسيحية وعاصمتها دنقلة .. وفى الجنوب مملكة علوه المسيحية أيضـــاً وعاصمتها علوه (سوبه شرق الخرطوم) ... وهذه المنطقة الشمالية حتى جنوب النيلين كانت تخضع للمسيحية فى حين كانت قبائل البجة المنتشرة فى سودان البحر الأحمر وقرب النيل حتى حدود أسوان طلبا للمرعى وهى قبائل وثنية لا يجمعها ملك بل لكل قبيلة رئيسها وهى قبائل كثيرة منتشرة .

وقد عرف عن قبائل البجة المتعدده إنها قبائل شرسة ميالة للقتال والنهب وقد كانت كثيرة الغارات على طرق القوافل التجارية ولعدم انضمامها ، وخضوعها لحاكم كبير كانت تتصرف هذه التصرفات الفردية التى لا ينفع معها عقد صلح أو معاهدة انما كانت هذه القبائل تتبع طبيعتها الحلوية ... وهذا السبب يكفى حاجتها المادية لخيرات الارض نصيبه مما تنتجه مصر أو أرض السودان .

أما النوبة فقد جاء في معجم البلدان للإمام شهاب الدين بن عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموي المتوفى عام ٦٢٦ هـ (أن النوبة بخلاف ديانتهم المسيحية القبطية (يعاقبة) كانت حالته الاجتماعية متيسرة وكانوا أصحاب إبل ونجائب وبقر وغنم ولملكهم خيل عتاق وللعامة براذين وفي بلدهم الحنطة والشعير والذرة ولهم نخل وكروم ومقل وأراك) .. وهذا الوصف لا ينطبق على شمال النوبة إنما ينطبق على أرض — النوبة عامة التي [illegible] العرب [illegible] أن النوبة كانت لهم ماشيتهم وكان لهم زراعتهم . [illegible] مقيمون [illegible] حضارة ومدينة قديمة ودولة منظمة عريقة لها [illegible] [illegible] دولة حديثة أو مجموعات متناثرة كما في شرق السودان .. .. وهذه الحضارة أحدث لها مراكز داخل السودان حيث امتدت مروى القديمة قرب شندي ثم حين ظهرت المسيحية انتقلت الحضارة إلى الجنوب على ضفة النيل الأزرق عند ملتقى النيلين في هذه المساحات الكبيرة لم تكن مجهولة أو منعزلة أو بدائية بل بالعكس لها قوتها وتنظيمها ودينها واتصالها الخارجي .

أما في شرق فقد كانت عدة قبائل متعددة من البجه . . . [illegible] وثنية [illegible] ملك أو [illegible] زعيمها . [illegible] [illegible] لكن ما كانت هناك [illegible] كانت [illegible] عند القبائل الأخرى [illegible] يخشى بأسها وقوتها . . أما القبائل الصغيرة فهي لا تملك [illegible] مع بعضها البعض [illegible] أو من أجل [illegible] أو من أجل نهب [illegible] الماشية القليلة الحرامة الضالة .

[illegible] الخط [illegible] الإسلام [illegible] . . .
[illegible] مسيحية قديمة [illegible] عريقة [illegible] حديثة [illegible]

قديمة عمرها أربعة عشر قرنا أقدم من حضارة العرب وهي في شمال أفريقيا وأعرق . . . تضم قبائل قديمة أصيلة ذات تقاليد وشرائع جعلتها تحتفظ بكيانها بعيدة عن السيطرات الخارجية التي خيمت على مصر فمهمة هذه الشعوب ليس بالأمر الهين واخضاعها ليس أمرا سهلا لأنها قبائل قديمة عرفت الحروب والقتال ولم تستسلم يوما ما . . . وما كان دخول العرب من النيل ليس أمرا سهلا أمام مجموعات لها دينها وبأسها واستعدادها وحالتها الخاصة .

أربعة عناصر قوية ترجح بدخول العرب والاسلام من النيل . الحكومة القوية العريقة . الشعوب المتمرسة على هذا الصدد والتي لا تخضع بسهولة . واللغة المختلفة عن اللغة العربية . ثم الديانة المسيحية التي بسطت نفوذها على طول النيل .

هذا ما يخص جبهة النيل أما ما يخص الجبهة الشرقية في تلك المناطق البدوية المتعددة المشاكسة . . . فلو كان هناك ملك يحكم هذه القبائل لأمكن إخضاع الملك بالقوة فالمسلمون من قوة وبذلك تمكن إخضاع جميع القبائل . ولكن الأمر هنا أصعب . فمهمة الدولة الإسلامية ليست سهلة . . . فعليها أن تخضع جميع هذه القبائل الواحدة تلو الاخرى .. .. هذه من ناحية السيطرة على هذه المناطق .. .. وثاني عنصر آخر هو اللغة فهذه القبائل لا تتحدث اللغة العربية مما يجعل مهمة التفاهم معها أمرا أصعب ... وتعليم الاسلام أصعب .. .. وهي أعقد المشاكل فكيف يكون التفاهم بين هذه القبائل وبين العرب المسلمين .. .. وكما أن ديانة هذه القبائل هي ديانة وثنية لا يسهل توصيل هذه الرسالة لهؤلاء القوم الوثنيين الذين لا يعبدون إلاها .. . فلو كانوا يؤمنون بالمسيح لأمكن إقناعهم بسهولة وبالجدل . أما أن تخرجهم من الظلمات إلى النور بدون سابق معرفة .. .. أو تمهيد لهذا اللقاء وهذه القفزة فليس بالأمر الهين .

هـــذا هو الخط الشمالى الذى واجه تدخل العرب والاسلام والعناصر التى حدثت من انطلاق العرب والاسلام الى السودان بعد القرن السابع الميلادى كما حدث بسرعة فى بقية بلدان شرق أفريقيا . . . هذا ما جعل العرب يقنعون بأسوان ويقيمون بها لوقت طويل .. ويكتفون بالجزية على مملكة النوبة المسيحية ذات الخيرات والحضارة والتنظيم وتركت القبائل البدوية فى شأنها . ولكن هل استمر الحال على هذا الخط الشمالى ضد تدفق العرب والاسلام أم أن الزمن كان له عنصر مساعد فى ذلك .

بعد القرن الثامن بدأت اعداد القبائل العربية تكثر على شمال المملكة السودانية . واصبح العرب أصدقاء للنوبة وتخالطوا بهم . وتدفقت بعض القبائل بشكل كبير على هذا الجزء منها ربيعة وجهينة وعكرمة على هـــذا الخط الشمالى وبذلك قوت شوكة العرب العددية وأصبح لهم وزن وتخالطوا بسكان وادى النيل وانتشروا على السهول الشرقية وعرفوا القبائل المجاورية . .. ولكثرة هذا العدد تسنده دولة قوية . .. أرهب العرب سكان هذا الخط الشمالى وسمحوا لهم وجعلوهم يعيشون بينهم يشاركوهم فى التجارة وخالطوهم . وبمرور جيرة فى حول بعد ه لاشك تختفى النظرة الغريبة للجانب الآخر فالعرب الأوائل الذين سكنوا بأرض النوبة لاشك كانوا ينظرون نظرة غريبة للنوبيين . فقد عدوا عندهم عبيدا .. كما أن النوبى كان ينظر للعرب كعنصر دخيل عليهم يخافه لدونه ويخالفه ويتحاشاه ولكن أحفاد هذا الجيل الأول حينما يشمون مع بعض يحدون أنفسهم مع بعض تختفى حدة هذه النظرة وبمرور السنين تتقارب الاخلاق والعادات والنفوس وهذا ما حدث ، رضى النوبة أن يسكن العرب بينهم ويسيروا فى ديارهم ويقيموا شعائرهم حتى فى البداية .. .. وصداقة بعد مرور السنين والمكسب هؤلاء المستوطنين كان لابد من أن يتزوجوا منهم .. ..
ولكنهم لا يزوجونهم بناتهم للفوق المسيحى والإعتزازهم بعنصرهم العربى .. ..

ولكن الأجيال الجديدة التي ولدت في الوطن الجديد ولم تعرف شيئاً عن تقاليد وأخلاق الوطن العربي القديم فلم تتمسك بهذه التعرات إذا أسلم أحد النوبيين .

وبتسابق هذه القبائل رويداً الى الجنوب كان اضعافاً للمملكة المسيحية والدين المسيحي . .. وبداية لنهاية الدولة المسيحية — ففي القرن الحادى عشر قامت دولة بنى كنز اشارة إلى كنز الدولة وإلى الحاكم بأمر الله على أمارة اسوان .. .. فقد أقام كنز الدولة دولته العربية عند اسوان وقويت شوكته في حين كانت موارد الدولة النوبية تقل لدخول العرب في الحياة المعيشية ولكثرة عددهم في الدولة وعدم إمكان تحصيل جزية منهم ولمشاركتهم في التجارة — لم يرسل حاكم دنقلة الجزيه لأمير أسوان الأمر الذى قاد لاعادة تأديب هذا العاصى ولاظهار قوة العرب المسلمين من جديد في القرن الحادى عشر .

وبقوة هذه الدولة الكنزيه كثرت القبائل العربية من ربيعة وجهينة كما ذكرنا وأصبحت درعا منيعا لهذه القبائل بأن تتجول وهي واثقة بأن خلفها أمارة لها وزن في الأراضي المجهولة وهذه القبائل المتعددة المشاكسة .... فهي رغم ذلك تخاف القوى الذى في استطاعته أن يبطش بها .

هذا يبين لنا كيف كان دخول العرب من جهة النيل عند النوبة بعد أن أصبحت اسوان أمارة ومركزاً تجاريا هاما في هذه القوة جمع إليه كثافة السكان ، ففيه تجارة مصر ... وبضائع السودان وبضائع العرب .. .. فمن السودان كانت الماشية والعبيد وريش النعام والصمغ والذره والذهب والعاج والبلح .. .. ومن الشمال كانت المنسوجات وبضائع الهند والسكر والودع وما شابه ذلك مما كان ينفع الأهالى في الجنوب والمناطق البعيدة التي يجلب منها من الفيل وريش النعام والصمغ لتبادل السلع عليه .. .. وكان الذهب من

أهم هذه المواد .. وكان السودان مركزا هاما لهذه السلعة .. .. ومما ساعد تكاثر العرب ظهور تبر الذهب فى أرض المعدن ووادى العلاقى شرق أسوان .. .. وكانت هذه المناجم التى يخرج منها تراب الذهب ملكا لرؤساء القبائل البجاوية .. ولكن حاجة الإنسان للعيش وللكسب جعلت القبائل العربية تزحف نحو هذا الوادى .. .. وزحفت القبائل العربية أول زحفها الى الشرق ثم الى الجنوب وكان وادى العلاقى وأرض المعدن هو بداية هذا الزحف وكان ذلك فى القرن التاسع الميلادى .

وكثر عدد القبائل العربية بين هذه القبائل البجاوية .. .. ولاشك أنها فى البداية لم تستطف القبائل البجاوية هذه الهجرة ... وهذا ما حدث أن شنت القبائل البجاوية الغارات على هذه القبائل وعلى شواطىء النيل الأمر الذى أزعج أمير أسوان فأرسل إلى المتوكل على الله فى بغداد يشكوا أمرهم فأرسل اليهم هذا محمد بن عبدالله القمى ، واشتبك معهم وهزمهم ، ثم عقد صلحا معهم ... بعد أن قتل زعيمهم ... وانتدب ابن أخيه ليذهب لبغداد ليطأ بلاط المتوكل على الله :

وكان هذا العقد الذى وقع فى القرن التاسع الميلادى هو جواز مرور للقبائل العربية والسماح للاسلام أن يدخل السودان من الشرق وأن تقام شعائره ولا يؤذى المسلم -- كل هذه الضمانات التى أعطيت للعرب المسلمين كانت هى أشارة دخول للعرب وللاسلام و بذلك كثر تدفق العرب من هذا الجانب حتى وصلت بمرور السنين إلى أرض البطانه عن هذا الطريق .

كانت قبيلة الحدارب (عربية أصلا) وهى من القبائل الكبيرة فى هذا الخط هى أول من عمد للصلح وأسلم بالجوار ومن هذه العلاقة أنيمت

الشعائر الاسلامية وصاهر العرب زعماء هذه القبائل ليأمنوا شرهم . . . وبهذه الوسيلة دخل العرب فى حياة هذه القبائل وتطبعوا بهم ... وانتشر العرب من هذا العراق طلبا للمرعى أو بحثا عن الوحدة أو المرعى الجيد أو خلق زعامة لكل قبيلة عربية بعد أن أصبحت لهم السيطرة العددية والتزاوج مع هذه القبائل البجاوية التى تشاركهم فى نفس المناخ والحياة المعيشية .

وحينما أصبح للقبائل العربية السيطرة على هذه السهول الشرقية حتى ميناء عيذاب شجع هذا الهجرة العربية لكثير من القبائل العربية من جهينة وربيعة منهم من سار حتى النيل من جانب الضفة الشرقية حتى وصل العرب إلى ملتقى النيلين وساروا غرب النيل .

أما من ناحية غرب السودان فقد كان الأمر يختلف عن الشمال .. فقد انتشرت القبائل الزنجية جنوب الصحراء الافريقية قبل ظهور الاسلام . . . عاشت حياة بدائية فى الأول ثم تطورت هذه المجموعات بسرعة أكبر من مجموعات جنوب السودان التى وقفت الطبيعة دون استقرارها أو ربما خيرات الطبيعة للمجموعات الزنجية التى لا تكلف جهدا هى التى عطلت الخلق والابداع ... وقد وفرت الطبيعة للمجموعات الزنجية التى تسكن جنوب السودان كل الخيرات من ثمر وامكانيات طيبة وحيوان بأقل جهد . فالارض خضراء كثيفة بها شتى النباتات والأشجار المثمرة التى ساعدت تلك المجموعات على الراحة . . والطبيعة لم تطلب منها التعب لغرس الحبوب ورعاية الحقول . . . . وقد منحتهم الطبيعة هذه الميزة ليوفر طاقته ووقته للدفاع عن نفسه من الوحوش المفترسة التى تعيش معه داخل الأشجار والحشائش والمستنقعات فلو فرضت عليه الطبيعة الواجب الطبيعى للبحث والتعب والاجتهاد فى لقمة العيش من غرس وحصاد .. الخ

الكانت مكنت الوحوش الضارية من صيده ولما وجد الوقت الكافى والطاقة لمحاربتها والهروب والاختباء منها .

أما فى غرب السودان فالاراضى سافنا تختلف اختلافا مناخياً ونباتيـــا عن منطقة الجنوب وأرض الجزيرة التى كانت فيما مضى كثيرة الأعشاب والاشجار والمستنقعات . . . فالأرض فى غرب السودان رملية . . . وبها بعض الجبال والوديان مما يساعد على الزراعة والرعى وبهذه الحرفة تكون المجتمع الزنجى العربى الاول الذى امتد جنوب الصحراء حتى النيجر والسنغال .

ولكن حال هذه القبائل لم يستمر كما تحب فقد حدث اضطراب سياسى عنيف فى الدولة الاسلامية . . . سقطت دولة الأمويين بعد أن انتشرت على طول شمال أفريقيا بأنصارها وقبائلها لتظهر دولة فتية قوية هى الدولة العباسية .

ولم يكن سقوط الدولة الاموية هو سقوط حاكم واحد أو بيت أو قبيلة انما كان سقوط نظام تمليه عصبية راسخة حادة الامر الذى ملأ النفوس بالحقد والكراهية لكل أنصار الفريق الآخر الامر الذى جعل تدفق القبائل العربية المناصرة لبنى أمية هاربة إلى خلف الصحراء الافريقية أمرا مقبولا ومعقولا حتى فرضت هذه الهجرة العربية شخصيتها وكثرتها على القبائل التى تجاور الصحراء مما قاد لانتشار العنصر العربى فى وسط أفريقيا ولانتشار الاسلام بين القبائل الزنجية واختلاط القبائل بالمواطنين مما قاد لقيام دوليات إسلامية فى وسط أفريقيا فى السنغال والنيجر وبرنو وكانم ووداى ودارفور .

ومن هنا تبين لنا صورة حدود السودان الغربية التى واجهت هذه الدويلات الاسلامية العربية الزنجية التى تمتد من نهر السنغال فالنيجر وتشاد وبرنو وكانم .

وإذا عرفنا أن سقوط دولة الامويين كان فى القرن الثامن الميلادى . . . .
وبدأ زحف هذه القبائل التى تطاردها العصبية القبيلة الحاكمة . . . والعداء المذهبى أن تتوغل فى أفريقيا وقد أخذت هذه القبائل وقتا طويلا لتتأقلم مع المجتمع الجديد الذى واجهته والظروف السياسية التى تحيط بها ولا شك أن موقفها السياسى فرض عليها السكون وطلب الملجأ أكثر من محاولة أثارة هذه القبائل والا أصبحوا محاصرين بعداوة الحكم العباسى من الشمال ثم الفاطمى فيما بعد وهذه القبائل الزنجية فى شمال ووسط أفريقيا . .

وحينما وصل العرب إلى هذه الاراضى لم يجدوها خرابا بل وجدوا فيها نظاما للادارة والحكم والتجارة رائجة . وطرقها سائرة بين الجنوب والشمال والشرق والغرب .

ومن هذه الدويلات القديمة قامت دولة وثنية فى غرب السودان هى دولة دار الفور أو سلطنة دارفور قبل وصول العرب من العنصر السودانى الذى استوطن وسط أفريقيا ثم مهد هذا التجمع إلى ظهور سلطنه الفور الاسلامية فيما بعد .

العرب فى السودان الشمالى بعد حكم الفاطميين :

كما جاء فى دخول لعرب على غرب السودان ببداية زوال حكم الامويين وقيام دولة العباسيين وإ شقاقها بقيام دولة الشيعة الفاطمية على شمال أفريقيا أى بقيام دولة الأدارسة فى المغرب وانتقال عاصمتهم من المهديه إلى قاهرة المعز لدين الله عام ٩٧٠ م .

أستمر حكم الامويين على شمال أفريقيا ومصر حتى عام ٧٥٠ م حتى انتزعت مصر من يد الأمويين الذين لم يهدوا لانصارهم من الاستيطان فى مصر بل كانت فتوحاتهم فى المغرب تتطلب أعدادا هائلة من العرب ولذلك كثر عدد العرب الأمويين ولم يستقر فى مصر إلا عدد بسيط من الجند وصلوا حتى حدود المملكة عند إسوان ليحفظوا حدود المملكة ويجبوا الضرائب من سكان تلك المنطقة ويحافظوا عل عدم غارات النوبيين عليهم

وبأنتهاء القرن العاشر الميلادى وبداية القرن الحادى عشر بدأت لقبائل العربية التى كانت تقيم حوار إسوان وتحرسها فى عهد الأمويين بظهور دولة الشيعة الفاطمية من الهروب إلى الجنوب ودخول السودان بعد أن أصبح الطريق مقفولا أمامهم من الشمال زاد عليهم القبائل التى أتت إلى مصر لمناصرة العباسيين فى حكم مصر ـ وبدا نزحت إلى مصر بعد الاسلام قبائل عربية تناصر بنى أمية ثم هربت هذه القبائل للجنوب . ـ ثم جاء الشيعة إلى القاهرة إنتصارا للعلويين وانشقاقا على العباسيين الذين تنكروا لآل البيت الذين استغلوا الدعوة لهم فى جمع أعداء بنى أمية والاطاحة بهم .

وبظهور الفاطميين على مصر أصبحت مصر ولاية شيعية لا مكان للامويين والعباسيين بها . . . وهنا بدأ توقف هذه القبائل إلى داخل السودان الشمالى .. وحيث كانت القبائل النوبية المسيحية تسيطر على أرض النوبة فلا مجال لهذه القبائل الهاربة فى هذا الطريق وهى تتحاشا الاحتكاك بهذه القبائل خائفة من العدو الذى يسيطر على الشمال .

العرب على النيل

أخضع ماكمايكل ومحمد عوض محمد فى نسب الجعليين مجموعة القبائل ليبية الميرفاب ـ الرباطاب ـ المناصير ـ الشايقية ـ الجوابرة الركابية ـ أخذوا فى نسبهم إلى ابراهيم جعل بن سعد بن فضل بن عبد الله بن عباس بن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ـ اختلفوا فى هذا النسب وهذا الاسم وعدد الأجيال التى جاءت بعد الرسول (صلعم) وفى القرن الذى جاء فيه إبراهيم جعل هذا حتى كون هذه المجموعة الجعلية الكبيرة .

ومن نسب ابراهيم جعل هـذا يظهر لنا نسبة إلى العباسيين . . . ويمكن أن نرجح صحة هذا النسب لحكم العباسيين لمصر فى القرن الثامن الميلادى وانسحاب العباسيين من مصر للشيعة وهروب اتباعهم للجنوب . . . ولا شك أن ابراهيم جعل هذا كانت له المكانة بالنسبة للقبائل العربيه التى هجرت إلى الجنوب وجعلت إبراهيم هذا كبيرها وزعيمها نسبة لانتمائه للبيت العباسى وخضوع القبائل العربيه المحبة لآل الرسول ولاسرته وبذلك جعلته زعيما لها فى مهجرها الجديد حتى بعد أن اختلطت معه فى الطريق بحثا عن مأوى وأرض للسكن . . وبذلك حملت أسم هذا الزعيم حيث ذهبت وجعلته أبا روحيا لها رغم

أنها لا تنتمي إليه في الدم بل بالطاعة والولاء والمذهب السياسي .

وبذلك انتشر اسم إبراهيم جعل على كل القبائل التي هاجرت وسكنت ضفاف النيل وعبرت إلى كردفان كالجموعه والجع والبديرية وجوامعه والغديات والبطاحين في الجزء الشمالي من البطانة .

كل هذه المجموعات انتسبت إلى إبراهيم جعل العباسي الذي هرب لا شك من دولة الشيعة الفاطمية التي قامت في المغرب واستولت على مصر في القرن العاشر الميلادي وبذلك يمكن أن نؤرخ بداية نزوح هذه القبائل للسودان بالقرن الحادي عشر الميلادي بعد قيام دولة الكنوز في إسوان . . .

وبانسحاب كل القبائل التي كانت تنصر مذهب العباسيين بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي استيطانهم على النيل وزحفها إلى الغرب والبطانة حتى كان القرن الثالث عشر والرابع عشر حتى ملأت السهول والوديان وقويت بالرصيد من قبائل النيل لقابليته للتعدد التي لم تجد من هذه المجموعات مضايقة لها في معيشتها فمساحات السودان المتسعة كانت رحبة تزيد من كثافة السكان

سكان غرب السودان ودخـــول العرب

كما [illegible] أن منطقتى كردفان ودارفور أدنا فورنتا بمنطقة جنوب السودان تعد [illegible] أكثر [illegible] للاستقرار ، فالطبيعة عنصرها المساعد للتطور والحضارة فطبيعة [illegible] جنوب الأستوائية [illegible] وأدغالها ووحوشها كانت حائلا دون [illegible] استقرار سكانها وبناء [illegible] حضارة . أما في داخل المديريتين فالأمر يختلف فجنوب [illegible] المديريتين توجد السافانا الغنية ثم سافانا متوسط من الشمال السافانا الفقيرة [illegible] عند الصحراء النوبية .

[illegible] الطبيعى المنوع الغنى بالوديان والهضاب والأعشاب المختلفة الصالحة [illegible] فاذا [illegible] هذه السهول والوديان .

سكنت [illegible] السهول والهضاب والوديان الرملية عناصر زنجية عرفت أكبر مجموعتها [illegible] في شرق منطقة جبل مرة [illegible] الداجو ، أو [illegible] في [illegible] مديرية دارفور « والباجرمى » في الجنوب الغربى ، ثم الفرديت [illegible] والسكنجارة في جبل مرة ، هذا فيما يختص بالاجناس الاصلية التى [illegible] منطقة غرب السودان ، وهى الأجناس الاصلية التى كانت تعمر منطقة [illegible] السودان ، وهى الأجناس زنجية لاصل لها أن تصل [illegible] الهجرات العربية .

وهذه [illegible] الزنجية التى عرفت أواسط افريقيا حتى نهر السنغال . ولاشك أن [illegible] اقصى افريقيا وأوسطها جاء نتيجة لنسال هذه [illegible] سكنت خط الاستواء [illegible] النيل وغرب افريقيا ، ووجدت

نفسها بين الأدغال والحيوانات ، الأمر الذى هيأ للقبائل التى خرجت من خط الاستواء وأعالى النيل أن تتقدم فى عالم الحضارة والاستقرار وأن تخلف المدنيات وتنشىء الدولة بما مهد لهذه الدويلات الزنجية المتقدمة أن تتعامل مع القبائل العربية الهاربة من الاضطهاد السياسى وتمتزج بها وتستفيد من حضارتها ، وعلمها وتخرج تلك المدنيات الافريقية من عالمها الضيق لعالم أرحب والى رؤيا جديدة منحها لهم العرب الرحل بإبلاغهم أن هنالك عالم آخر غير عالم هذه الدويلات المنعزلة المحصورة فى وسط أفريقيا كأن إكتشاف العالم الذى هرب منه العرب كان موضوع تعليق ودهشة سكان وسط أفريقيا إذ سمعوا لأول مرة أن هنالك بلاداً عامرة غير بلادهم وأن هنالك ممالك وحكاماً وهنالك بشر بخلافهم وهنالك جنس آخر غير جنسهم وبشرة تختلف عن بشرتهم .

هذه الأشياء البسيطة لاشك كان لها آثرها فى تفتح ذهن سكان وسط أفريقيا إذا كانوا لا يظنون أن هنالك بشر بخلافهم وأن هنالك إنسان له بشرة غير بشرتهم وأن هنالك عالم فسيح يحتاج الوصول إليه إلى شهور وسنين من السفر بالجمال والقوافل .

سكن « التنجور » و « الداجو » كأكبر قبيلتين أرض دارفور شاركهم كثير من القبائل الزنجية الصغيرة كالقرديت والبرقد والأبادينما والتموركه وفنجرو ورونجة والمساليط والابادوما والكنجارو والشلك فى الجنوب الشرقى . . .
ولكننا إذا حاولنا أن نهتدى إلى القبائل الأولى التى سكنت هذه الاراضى فلا شك إننا لن نجد هذه الأسماء الكثيرة التى ظهرت بظهور سلطنة دارفور لى وصلت الينا عن طريق الممالك التى قامت فى وسط أفريقيا . وعلى هذا علينا أن ننظر إلى سكان السهول قبل تكوين هذه المدنيات والحضارة حتى نصل إلى القرن الخامس عشر الميلادى .

إننا نرجح أن أصل هذه القبائل الزنجية زحف إلى هذه السهول من القبائل الزنجية التي تسكن الأنهار التي تملأ منطقة خط الاستواء وأعالي النيل ، وبخروج هذه القبائل للسهول والشمس وجدت الظروف الطبيعية ملائمة أكثر للاستقرار بل الإستقرار كان هو الحل الوحيد لحل مشكلة العيش قبل أن تعرف مهنة الرعي وتربية الحيوانات التي جاءت أخيراً وتعلمها الإنسان بعد أن عرف كيف يميز الحيوانات المفترسة من غيرها . . حتى كثرت هذه المواشي وفرضت عليه من جديد حياة التجوال . . والبحث عن مرعى أو وادي .

كان جبل مرة مصدر حياة لكثير من قبائل المستقرة في غرب السودان وعرف جبل مرة بتنوع النباتات لارتفاعه وصلاحيته للزراعة في منحدراته ، ساعد على نمو نباتاته طول السنة وذلك لتنوع مناخه ، وجود مياه الأمطار به والينابيع الكثيرة التي تسق الزرع طول السنة .

وهـــذا الجبل وثروته كان يجب أن يكون مصدر قوت لسكانه . . . وأن يستفيد القاطنين به لتطوير حياتهم وفرص شخصيتهم بما لهم من الإمكانيات والثروة على بقية القبائل التي تسكن تحت الجبل أو بالقرب من وديانه ولكن ما حدث أن القبائل التي تسكن هذا الجبل انزوت فيه وحرسته من هجمات القبائل الكثيرة الأخرى الطامعة في خيرات هذا الجبل . وأصبح موقف القبائل المستوطنة لهذا الجبل موقف المدافع على طول الزمن بدل موقف المهاجم يقوى ويبدو أن كثرة القبائل المحيطة بالجبل جعل فرص السيطرة عليهم أمراً صعباً إذ يستطيعون أن يفروا إلى السهول ثم يعودون وذلك يعني نزول سكان الجبل من جبالهم لمطاردة المغير إذا وجد يفتح باباً لقبائل أخرى لتهجم من جهات اخرى وبذلك وصل سكان هذا الجبل موقف المدافع عن ثروتهم الطبيعية دون أن يستغلوا منها وأن يستفيدوا من امكانيات القبائل في جبالهم او حضارة الشعوب الأخرى .

ولم يسمحوا باستغلال هذا الجبل الاستغلال الطيب المثمر المفيد بل إستمدوا منه حسب حاجتهم المعيشية وليس حسب حاجتهم الحضارية التى تطلب منهم بناء دولة ومدنية .

غمر هذا الجبل ، وتدفق المياه منه ووديان دفع القبائل الزنجية التى عمرت تلك السهول للاقتراب منه والتعيش على فيض مائه فى زمن الصيف . كان جبل مرة هو الامكانيات المادية لنشوء [illegible] السودانية التى قامت فى دارفور . فغناء منطقة هذا الجبل كفلت الاستقرار لهذه القبائل بأن تعيش حول هذا الجبل ، أو بالقرب منه أو الوديان التى تنحدر منه . هذه الثروة الطبيعية كانت السبب المباشر لخلق التجمع الأول للانسان الزنجى فى غرب السودان كما كانت ثروات النيل سببا فى نشوء الحضارة الاولى وأرض النهرين . الفرات ودجلة سببا لازدهار حضارة بابل فى تلك المنطقة كما كانت وديان وأنهار شمال البحر الأبيض المتوسط سببا فى قيام حضارة الرومان والاغريق .

إكتشف الانسان أن هذه الخيرات بعد سنين التجوال والبحث حتى أستقر به المقام عندما توفرت له أسباب الاستقرار .

[illegible] المنطقة [illegible] المحيطة بجبل [illegible] كانت سببا فى حياة [illegible] وبلاد التى [illegible] دارفور [illegible] كردفان [illegible] سهول [illegible] بعيدة من الانهار مثل أرض البطانة التى أحسن حالا لوجود ثلاثة أنهار تحيط بها ولكن [illegible] فى وسط [illegible] وجود [illegible] معا قيام [illegible] أسهم [illegible] مع ذلك [illegible] حضارة [illegible] مثلى [illegible] أو مدينة سنار .

إذا حاولنا أن نتعرف على الأجناس الأخرى التي خالطت القبائل الزنجية قبل وصول القبائل العربية وتغلبها على هذه القبائل ، نجد في شمال [illegible] الليبي شمال صحراء أفريقيا ثم القبائل النوبية على النيل ثم قبائل الشلك في الشرق والجنوب الشرقي . . وإذا عرفنا أن قبائل الشلك التي تقطن الآن إلى بحر الغزال إنما كانت تغطي وسط السودان حتى غرب ملتقى النيلين وأنها كانت ذات مناعة وقوة ثم من غرب القبائل الزنجية الأخرى التي خرجت من خط الاستواء لتعمر وسط أفريقيا وتسكن على الوديان والسهول والجبال والأنهار ما ساعد على خلق ظروف ملائمة مثل الظروف التي أتيحت للقبائل الأخرى والحضارات الأخرى . . ولكن كشفت هذه الظروف لا تثبت حدوث متأخراً بالنسبة للقبائل الزنجية بالمقارنة بالأجناس التي سكنت أرض النيل والفرات وشمال البحر الأبيض المتوسط .

إذاً يتساوى مع قبائل غرب الكاو سكان وسط أفريقيا في المستوى الحضاري والاجتماعي بظهور مجتمع القبائل والممالك الصغيرة وسط أفريقيا التي امتدت على الأنهار والوديان والبحيرات . . وتسكن في شمالها قبائل الشلك القوية العريقة التي لا ترغب في الابتعاد عن حوض النيل . . ويبدو أن أحرار قبائل الشلك على الابتعاد عن النيل هو الذي حال دون ظهور ممالكهم حيث قامت على ضفاف النيل ممالك قوية عريقة في القرون القديمة ، كالنوبة ثم الفونج .

إذ منع الشلك تمسكهم بالنيل وقلة خطرهم وأثرهم على غير المنطقة البعيدة حول جبال مرة . والذي حدث هو مساهمتهم في تعمير الأرض كردفان وجنوب دارفور دون حماية القبائل أو النبات في حياة على أرض

حديدة أما فى الشمال فقد كانت القبائل النوبية على النيل ثم العنصر المهى الذى كان له أثر وغارات على النيل والذى دلت الآثار على أن هناك مدنيات عاشت فى الصحراء جنوب النيل على الواحات قبل أن تقضى الرياح الرملية الصحراوية على تلك الوديان والواحات كما أن هذه الصحراء الافريقية الجرداء اليوم لم تكن قبل عشرات الالاف من السنين كما هى بل كانت عامرة بالحياة والحيوانات والانسان مما ساعد على هجرات كثيرة من القبائل الليبية للجنوب وكذلك كثير من القبائل النيلية للجنوب مما ساعد على أنعاش حركة الحضارة والمدنية فى غرب السودان فى عصورها الاولى .

وتذكر لنا دائرة المعارف الاسلامية وماكما يكل وارث ولامبن سمجان وبالمر بعض الحقائق العلمية عن الاجناس التى سكنت وسط افريقيا يجدر بنا اثباتها هنا قبل مناقشتها .

فى هذه القبائل الاصلية التى عمرت أرض دارفور ... من أقدم العناصر التى سكنت دارفور وتعيش جماعات منها فى دار صليح ودار مسيريه فى جنوب غرب كردفان .. وهم أول من أسس ... دارفور وأن التنجور هم الذين أزاحوهم من وسط دارفور إلى مواطنهم الحالية

وهذا الزعم الذى ذهب اليه هؤلاء الكتاب يصيب ... فقد عرفت هذه المنطقة العمران منذ زمن بعيد إذا أدركنا أن العرب ... دولتهم الاولى من زنوج تمبكتو فى القرن الحادى عشر الميلادى ولم يصل العرب فى ذلك الحين إلى هذه المناطق كما أنهم لم يكتبوا عن هذه المنطقة ... الاوائل الذين كتبوا عن الممالك الاسلاميه فى غرب أفريقيا ... الا وهم على

أساس ولا تستند فيه إلى روايات تاريخية حيث لا توجد أي آثار مدونة عن التاريخ القديم لهذه الأجناس إلا التصور المحلي أما محاولة هذا الزعم فلا تسنده أي حجة علمية . إذا عرفنا أن هذه الأرض كانت آهلة بالسكان قبل الميلاد ووجود الشكل على النيل والأرض التي حواليه يثبت هذه الحقائق

التنجور : —

يذكر أهل البلاد أن الداجو أول من أسس دولة في منطقة دارفور وتلاهم التنجور ثم الفور . . ويزعم ماكمايكل أنهم من النوبيين ومن علوة وأنهم هاجروا إلى بلاد النوبة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي واشتهروا هناك باسم التنجور وأسسوا دولة لداجو في جنوب جبل مرة . ثم بسط التنجور سلطانهم على وادي غرب دارفور .

فأدى ذلك إلى إضعاف سلطانهم في دارفور خاصة ولما انتزعته منهم أسرة من الفور تسمى أسرة « كيرا » . واستمت سلطنة دارفور من التنجور جماعته موزعة بين دارفور ، ومروای وكانم وبرنو :

ويبدو أن الذين جاءوا بهذه الآراء اعتمدوا على روايات في زمن متأخر من أناس لا يدركون معنى آرائهم العلمية . في حين يصعب إثبات روايته علمية لا تدل هذه المجموعات إلا فيما يختص بالقبائل العربية أو النوبية التي أتت حديثاً إلى هذه الأراضي .. ولكن هذه الأجناس هي التي عمرت هذه الأراضي دون أي مؤثرات خارجية كبيرة من النوبيين أو الليبيين وربما يكون هناك تأثير كبير على هذه الأجناس أكثر من أي عنصر آخر .. البلد الذي لا يمكن أن يصل إلى هذه نتيجة كما أنهم لم يحاولوا أن يتصوروا

شأن العمران الذي يحدث في بداية الحياة الحضارية ولا انقسام القبائل في قبيلة واحدة إلى عدة قبائل بسبب التشاحن والاختلافات العائلية والزعامة مما يدفع إلى أهل البيت الواحد إلى النزوح إلى أراضي جديدة لتكوين حياة جديدة لهم في خلق قبيلة بمرور السنين بهذا الانقسام والانشقاق .

البرقو : من سكان وادي [illegible] ، انتقلت جماعات منهم إلى دارفور حيث عرفوا مع غيرهم من الجماعات الوافدة من وادي باسم المراريت وبعضهم يسكن شرق ووسط دارفور .

التكرور : شعب من الزنوج يسكن معظمهم منطقة السنغال وتعيش شعبة منهم فيما بين النيجر وبحيرة تشاد ولاسيما في [illegible] ، وربما يكون تكرور هي الاسم الذي كانت تعرف به في وقت من الأوقات مدينة بالقرب من مصب السنغال والمملكة التي كانت عاصمتها هذه المدينة وموضعها الآن قرب [illegible] ، ثم أطلق اسم التكرور على جميع بلاد السودان التي دخلها الإسلام وهي الممتدة من المحيط الأطلسي إلى حدود وادي النيل وأصبحت كلمة تكروري في عرف العرب مرادفة لكلمة سودان .

الفرتيت أسم أطلقه العرب على القبائل التي تسكن أقصى جنوب دارفور وشمال غرب بحر الغزال وفي أقليم وادي ويزعم هؤلاء بأنهم سكان جبل مره الأصليين وأزاحهم الداجو ثم التنجور والعرب من مواطنهم الأصلية في جبل مره إلى الجنوب والفرتيت قبائل ستة منها رونجه وبندلا ، وشالا ، وبنجا وقراوجيه .

البرقو : من سكان وادى وبرنو أنتمت جماعات منهم إلى دارفور ، مع غيرهم من الجماعات القبلية الوافدة من وادى باسم المرريت ومعظمهم يسكن شرق ووسط دارفور .

وفى هذا التعريف تظهر لنا القبائل التى حملت شتى الأشياء والتى تشبه بعضها البعض أو التى امتزجت مع بعضها رغم اختلاف الأسماء فى وسط أفريقيا من دارفور حتى التحور ولسعان . وهى قبائل الداجو والتنجور والتكرور والأنهار المتشابه فى طبيعتها ونباتاتها وحشائشها ومناخها .

ظلت هذه القبائل الزنجية صافية العنصر إلا من بعض الهجرات الليبية والنوبية والتشكيل التى ساعدت فى تطور مدنية هذه الجماعات وظهور بعض الممالك حوالى حين مرة قبل ظهور العرب المسلمين فى أفريقيا ووضع تلك الجماعات المجاورة يسمح منطقيا بالهجرة .

وظهر العرب كما سبق كمهاجرين وفاتحين بظهور الإسلام فى النصف الأول من القرن السابع الميلادى ودخول عمرو بن العاص إلى مصر عام ٢١ هـ .

وقد انتشر العرب على طول شاطىء أفريقيا الشمالى فى عصر بنى أمية حتى جاء [illegible] ، وسقطت دولة الأمويين لتبدأ دولة العباسيين . هذا الانتصار للعباسيين على الأمويين بعد سنين من الحقد والتربص والكيد شحن النفوس والثأر والانتصار بشتى المشاعر والكراهية السياسية التى غلبت على رسالة الدولة الإسلامية الجديدة وحتى قادت لتمزقها كما سنرى فيما بعد .

ويتغلب الدولة العباسية على الدولة الأموية فى القرن الثامن الميلادى تمكن

أن نؤرخ بداية زحف القبائل العربية على الأراضي التي احتلتها في أفريقيا من قبل لتفسح المجال لانتصار الدولة العباسية ليحتلوا مكان تلك القبائل هذا الزحف كان تمهيداً على الشاطئ الشمالي لأفريقيا ودعوا أن القبائل العربية التي جاءت إلى مصر زمن الأمويين لم تستقر في مصر بالنسبة للحاجة العسكرية التي كانت تطلبها الفتوحات الإسلامية في شمال أفريقيا والأندلس لذا نلاحظ أن القبائل العربية التي استوطنت مصر لم يكن لها شأن حتى القرن الثامن الميلادي إنما جاء ذلك بعد القرن الثامن الميلادي واستيلاء العباسيين للسلطة فيهم بدأ استيطان القبائل العربية بأعداد كبيرة في مصر لأن عصر الأمويين كان عصر فتوحات وانتصارات لم يسمح للقبائل العربية صاحبة الدعوة بالراحة والاستجمام بل كان جهدها الدعوة ونشرها حيث أمنت قوة الدولة الإسلامية الأمر الذي جعل أعداداً عديدة من هذه القبائل تنتشر على شمال الشاطئ الأفريقي.

انتصار العباسيين على الأمويين بدأت حركة قتل عند القبائل المناصرة للأمويين وبدأت حركة تتحرك من أرض الدولة الخلافة. وبدأ أبي العباس السفاح في تعقبهم ومطاردة آخر ملوكهم وأرسل جيشه خلف مروان بن ولحقه قائد جيش العباسيين عبدالله بن علي بالسلم ثم طارده حتى حاصره في قرية بوصير بمصر. وقتله وأرسل رأسه لعبدالله بن علي الذي بعث به إلى أبي العباس السفاح الذي كان ابتهاجه برؤية رأس خصمه عظيماً أن كبر سجد لله وأنشد قول الشاعر:

لو يشربون دمي لم يروا شاربهم   ولا دماؤهم للغيظ ترويني

وما فعله السفاح بضيف بجسده سليمان بن هشام بن عبد الملك حينما اغتاظ أحد أنصار العباسيين لوجود هذا الأموي بينهم أنشد.

لا يغرنك ما ترى من رجال　　　إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع السوط حتى　　　لا ترى فوق ظهرها أمويا

وهذا يكشف لنا المظاهر الانتقامية الذى ساد على خلفاء العباسيين والحقد المكبوت عند انصارهم للأمويين الذين أذاقوا العلويين والهاشميين من العذاب والتنكيل ، الامر الذى انعكس على سائر سياسة الدولة فى معاملة جنودها وأنصارها لعمال الدولة السابقة وأنصارها .

وقد عمل عبد الله بن على بالشام ماجال بصدره من حقد وكثر القيود وطارد الاحياء .. وأخرج العظام من القبور وأحرقها ..

بنى أميـــة قد أفنيت جمعكم　　　فكيف لى منهم بالأول الماضى

يطيب النفس أن النار تجمعكم　　　عوضتم من لظاها شر معتاض

هذا ما فعله العباسيين فى بدء الأمر بالامويين حتى أجلوهم من ديارهم وهربوا إلى الأندلس وكان من وجد الفرصة عند دولة الأندلس البعيدة عن سيطرة العباسيين وهرب من الأعراب من هرب إلى داخـــل أفريقيا طالبا للاستقرار وضمانا لحياته .

رغم التماسك الظاهرى الذى بدأ على الدولة العباسية قبل أن يظهر دعوة العلويين وإنشقاقهم وتكوينهم دولة الفاطميين بالمغرب الامر الذى زاد الحال سوءا بالنسبة لأنصار الأمويين . فإن كان العباسيون غلاظاً منهم وأكثر حقداً فالشيعة دائمون ثائراً وحقداً على قتلة آل البيت .

وبقيام دولة الادارسه بالمغرب الاقصى مناصرة الشيعه إنتهى عصر الأمويين وانقسمت الدوله العباسية ، ظهرت عوامل التناقض التى دعت الجميع للقضاء على حكم الامويين واستلام السلطه ونسيان آلة البيت فى هذا الحق الذى جمع العباسيون حوله العرب والفرس للقضاء على دولة الأمويين . . .

وفى نهاية القرن الثالث الهجرى (العاشر الميلادى) ظهرت دولة الفاطميين الشيعية بعد أن مهد لها الادارسه فى المغرب الاقصى وزحف الفاطميون على مصر عام ٩٧٠ م بقيادة جوهر الصقلى فى عهد المعز لدين الله وبنى القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية الجديدة معلناً بذلك قيام دولة شيعيه قوية فى افريقيا منفصلة عن كل نفوذ من أرض الرسالة الجزيرة العربية وبذلك أصبح العرب سادة شرق أفريقيا ، وأصبحت الأرض ممهدة لانصار الشيعه الذين كانوا يحلمون بدوله آله البيت ، ونصرة دعوتهم وعودة الحق إليهم ، قد تحققت على يد الفاطميين تيمنا بفاطمة الزهراء . . . وانتقلت الدعوة من المهديه بالمغرب إلى أرض النيل وكان قيام كل من الدولتين له أثر على دخول العرب على غرب أفريقيا وعلى السودان الشمالى كما سترى فيما بعد .

ويبدو أن الاضطهاد السياسى بقيام دوله الادارسة بالمغرب أدى إلى هروب أعداد هائلة من أنصار الأمويين إلى داخل أفريقيا حيث لا يوجد حكم يساند العباسيين يخشى من غدره ، رغم اتجاه البعض إلى الاندلس . لكن الاعداد الكبيرة التى وازنت الامور وجدت الامان المطلوب هو فى هذه الارض الجنوبية وبذلك سارت القوافل داخل الصحراء والوديان والجبال وأنتشرت على غرب افريقيا حتى وصلت السنغال والنيجر ووسط أفريقيا ، ووجدت الطبيعه تلائم حياتها وطبيعتها البدوية فعاشت هذه القبائل العربية فى سلام . لم يقل من عددها عدو أو حرب ، وتكاثر عددها بمرور السنين حتى ضربت فى

عام ١١٠٠ م دولة تمبكتو المسلمة على نهر النيجر وحملة لواء الرسالة الجديدة بين هذه الشعوب التى لم تعبد آلهة من قبل ودخلت الدين الاسلامى فى يسر ومكنت للعرب والاسلام من أن يستقروا فى وسط أفريقيا . . .

لاشك أن قيام دولة « تمبكتو » لم يمكن قيام دولة اسلامية لها قوة القاهرة أو بغداد بل كان بداية تكوين لخلق نظام للجماعات المسلمة التى تكاثرت على نهر النيجر . . وخلقت أول بذرة لدولة المسلمين بين الزنوج ولتغلب العنصر العربى على زنوج وسط أفريقيا والانصهار فيهم . . .

ظهرت دولة تمبكتوا وقبائل وسط أفريقيا تعيش بقانون القبلية ، وتطور بها الزمن حتى ظهرت دولة برنو وكانم وودای ودارفور على نفس الخط مالئة وسط أفريقيا بدويلات صغيرة لم تعرف الاسلام فى بدايتها ولم يستطع العرب المتجهين إلى أفريقيا التجرؤ على سلب مملكة تلك الدويلات أو التى عاشوا بجاورين لها أحسن جوار مسالمين محاولين الابتعاد والتحرش بهذه الجماعات قدر أستطاعتهم . فهم فى موقف لايحسد عليه وأخبار دولة الفاطميين وبسط نفوذها على كل الطرق مازلت تصل اليهم وقفل طريق العودة لذا رفضوا الدخول فى مشاحنات تضرهم إلى الالتجاء إلى أعدائهم الشيعة .

وبذلك كثر عدد الاعراب حول قبائل جبلية مرة لآتية من ليبيا وعاشوا مع آبائهم ورعيهم على الوديان مبتعدين قدر المستطاع عن هذه الدويلات الزنجية وعمروا السهول الشمالية . . .

وحيث لم تكن لهذه الدويلات سلطة واسعة تجاههم فلم يستطيعوا طرد

هؤلاء الاعراب ، حيث لم يفكر هؤلاء الاعراب فى مضايقة هذه المجموعات فى أراضيها ورزقها حيث كانت الأرض واسعة لمجموعات أكبر . وما زالت تلك السهول كافية لمجموعات أكبر ولأعداد هائلة من المهاجرين . . .

وقد أدت مشكلة التزاحم على الاراضى والثروات التى لو وجدت لخلقت صراعا عميقا بين هذه القبائل المستوطنة وبين القبائل المقيمة حول الجبال والوديان والانهار . . .

وبدا ظهور العنصر العربى على حدود دارفور الشمالية ولم يذكر لنا التاريخ أى شىء عن العلاقات الاولية وأثر هؤلاء العرب على العناصر الزنجية فى تحكم دارفور . . . إلا روايته المعقود التى يرجع اليه أملاء دولة دارفور وادخال الدم العرب على البيت المالك .

ظهر الاسلام فى منطقة دارفور وكردفان ، بظهور العرب على الحدود الشمالية على هاتين المديتين ، وتوغلهم داخل هاتين المديرتين مما جعل السلاطين الحاكمين على شعوب هذه المناطق من المتأثرين بين هؤلاء العرب وزعمائهم الذين أوجدوا علاقات ما مع علماء القبائل السودانية .

وما تحكيه الروايات التاريخية أن السلطان سوليج هو مؤسس سلطنة الفور الإسلامية فقد إقتسم سليمان سوليج حكم كردفان ودارفور مع أخيه المسبع أخذ أقليم كردفان . وأخذ هو أقليم دارفور وأن السلطان سليمان سوليج والذى تدعى بعض الروايات انه حفيد أحمد المعقور من بنى هلال الذى عقره أخيه فى طريقهم إلى المغرب ففر بعيدة إلى دارفور وشارك بعلمه فى تنظيم سلطنة الفور حتى زوجه سلطان الفور من إبنته وبذلك دخل الدم العربى على الدم

الزوجى . ومعه دخل الاسلام . وهذا التاريخ غير واضح المعالم وبداية هذه السلطة غير مؤكد ، ولكن بدأت الروايات فى القرن السادس عشر الميلادى لأن سليمان سولينج حفيد المعقور حكم سلطنة دارفور عام ١٦٤٠ ويرجح أن يكون بداية هذه الأسرة العربية الهلالية فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى وبهذا التاريخ يمكن لنا أن نؤرخ دخول سلطنة دارفور تحت الأثر العربى الذى لاشك إن صحت رواية المعقور قد مهد له العرب المجاورين لسلاطين الفور منذ زمن بعيد حتى يجد المعقور الأرض ممهدة ليعمل فى خدمة سلطان الفور .

ويحكى عن سليمان سولنج أنه بدأ اصلاحات كثيرة على سلطنته وشن غارات عديدة بلغت ٣٣ غارة على العرب والقبائل لاخضاعها تحت طاعته وقد حكم سلطنة دارفور من عام ١٦٤٠ م إلى ١٦٧٠ م فى خلالها نظم شئون هذه السلطنة وأرسى قواعدها لتستمر فى دارفور ، وفتح المجال للقبائل العربية داخل إقليم دارفور وكردفان حتى تتغلب عليها وتنصهر فيها بمرور الزمان

وبظهور السلطان سليمان سولنج يمكن أن نعتبر بداية سيطرة العرب على القبائل وسيادتها على أقاليم واسعة من إقليم دارفور وكردفان وسنعود إلى أثر هذا السلطان ودخول الاسلام فى غرب السودان . . .

العرب فى شرق السودان :

وربما يكن قد تأخر دخول العرب إلى داخل السودان وظهورهم كوحدة متماسكة وكمجموعات لها شأنها والاسلام كذلك شأن وجودهما إذا ادركنا أن تأسيس المملكة الاسلامية الكبيرة تم فى القرن السادس عشر الميلادى فى سنار بين العبدلاب وعمارة دنقس .

وإذا اردنا أن نتتبع تاريخ هذا الجزء من السودان سنجد أن العلاقة فى هذا الجانب الشرقى قديمة جدا إلى ماقبل الميلاد بالاف السنين . . . . . فلو وقفنا عند قصة اهل الفيل ومقدم الحبشة وهجومهم على الكعبة يريدون هدمها بالقبيلة وحدوث المعجزة وظهور الطير ورميه بحجارة من سجيل لاستطعنا أن نتصور مكانة شعوب هذه المنطقة فى القوة والمناعة حتى تحاول أن تدخل إلى الجزيرة العربية لتحتلها . لاشك أن هذه العلاقة بين الشاطئ الافريقى والشاطئ العربى اليمنى كانت قديمة وأن الاتصال كان قائما وربما كان من أهم اتصال تم بين هاتين المملكتين العربية والحبشية وهذا يؤكد قدم الكيان العربية التى سكنت الهضبة الحبشية والامارات الاسلامية التى عاشت داخل الدولة المسيحية والصراع الذى حدث بين المسيحية والاسلام واضطهاد الاول للمسلمين الأمر الذى قاد لنزول كثير من هذه القبائل المسلمة العربية إلى داخل السودان وانتشاره بين قبائل النيل الازرق ومنحدرات جبال البحر الاحمر والهضبة الحبشية .

فقد ظهرت على هذه المنطقة أول دولة إسلامية فى السودان لها كيانها العربى على البحر الاحمر عند مدينة سواكن وهى مملكة البلو . هذه المنطقة

التجارية الهامة من قديم فقد نشأت قبل ممالكة البيلو دولة وثنية لم تتأثر بالمسيحية التى تنتشر على هضبة الحبشية يؤكد هذا تاريخ ارتيريا ... ويبدوا أن انتشار نفوذ العرب والمسلمين على العالم وانفصال الكنيسة الحبشية جعل هذه المنطقة مفتوحة للمسلمين ونشر دعوتهم ...

ظهرت ممالكة البلاد الاسلامية فى القرن الرابع عشر الميلادى لتحل محل الممالكة الحبشيه التى عاشت فى هذه المطقة وهذا يؤيده وثنية الجند نوره وعدم مبادئهم لدين .

فقد واجهة هذه المنطقة اندفاعاً عربياً من ثلاث جبهات من جهة الشمال من العرب الوافدين على أرض المعدن للعمل والتعدين حتى تسربوا إلى داخل أرض البطانة والنيل ومن جهة البحر للعلاقات التجارية التى كانت رائجة بين منتجات السودان والجزيرة العربية وآسيا والآثار الخزفية التى وجدت عند ميناء عيذاب أخير كشفت عن اتصال هذه المنطقة بمنتجات وصناعات آسيا والصين ... ومكانة هذه المنطقة ......

والفخار الثمين الذى وجد فى الحفريات الاخيرة كشف غناء هذه المنطقة ورواج تجارتها لان الفخار الذى وجد كان عالى الثمن من اجود أنواع الفخار الذى كان يستعمله اغنياء القوم .

فقد عرفت ميناء عيذاب منذ القدم وجاءت الكتب العربية القديمة ومؤرخين العرب وكانت ميناء تجاريا هاما .

ثم واجهه هذه المنطقة نزوح القبائل العربية من بنى عامر من أرض الحبشة من الجنوب الشرقى حاصدة البجة بين الهلال والوديان فاتحة من أبواب التأثير على سكان المناطق الاصلية فى ثلاث جهات .

دخول الاسلام فى المنطقة الشرقية :

لو قدرنا مكانة شرق السودان وربطه بالحضارة العربية والآسيوية وحضارة البحر الابيض المتوسط لاستطعنا أن نتصور دور هذه المنطقة فى نشر الثقافات المختلفة على هذه المنطقة العريقة فى المدنية والعمران .

فقد عرفت التجارة بين العرب وبلاد آسيا وأفريقيا من عصور قديمة فى الجاهلية العربية وغناء افريقيا بخيراتها وغناء بلاد آسيا ورواج هذه التجارة ونشاط العرب فى نشاط هذه التجارة ونقلها عبر البحر والسهول من شمال الجزيرة العربية والبحر الابيض المتوسط إلى أفريقيا وإلى الهند والصين ورواج منتجات هذه المناطق فيما بينها منذ عصور قديمة وقيام العلاقات التجارية بين شعوب هذه القارات وأثر هذه التجارة فى حضارة كل منطقة من هذه المناطق ...

لو أدركنا حيوية هذه المنطقة التى حققتها حركة التجارة وإذا اضفنا إلى ذلك موقع مكة والمدينة وقرب أسوان وعيذاب من أرض النوبة وما يحدثه موسم الحج من حركة ورواج للتجارة لوجدنا تمام استغلال سكان شرق السودان لهذا الموسم وحاجتهم للبضائع والمأكولات ورواج المصنوعات شعوب كثيرة وموقع عيذاب وسواكن كمنفذ لشكان هذه القارة المسلمين بعد أن انتشر العرب على

أرض أفريقيا لاستطعنا أن ندرك استجابة هذه المنطقة وسكانها لثقافة العرب والمسلمين وما يعرضه موسم الحج من رواج للدعوة الإسلامية وتنشيط للثقافة الاسلامية وعدم تأثر هذه المنطقة بالدعوات الصوفية التى جاءت من المغرب والعراق إلا بعد ظهور الدعوة الوهابية فى الجزيرة العربية فى القرن الثامن عشر الميلادى . . . وإرسال السيد محمد عثمان الميرغنى فى القرن التاسع عشر مبعوثاً لها للسودان ليعمل لمحاولة لتعويذة من الدين التى انتشرت بين الطرق الصوفية وإقامة مبعوث الوهابيين بالسودان بعد أن جاب السودان وكون له أنصار .. بنى عليهم دعوته كما سيجىء فيما بعد للحديث عن الصوفية ودخولها للسودان ..

حركة التجارة النشطة على ساحل البحر الاحمر وقرب مكة والمدينة وحركة المسلمين فى البحر الاحمر ساعدت نشر الثقافة العربية والاسلامية على هذا الشاطىء وهذا ما تكشفه مبانى سواكن وحفريات عيذاب .. أما كلما بعدنا عن الشاطىء وتجاوزنا تلال البحر الاحمر لقبائل البجاوية والعرب الذين نزحوا من الشمال نجد وجوداً كبيراً فى الخلو للثقافة والحضارة وبعد هذه القبائل البدوية عن حركة العلم والشعوب وبعدها عن مقر الدعوة ونشاط المسلمين ولذا يمكن أن نقول أن عيذاب وسواكن وسكان شاطىء البحر الاحمر الذين يشاركون فى التجارة والعمل بالشاطىء واتصالهم بحركة التجارة .. والحجاج قد أوجدوا ثقافة عربية وإسلامية قريبة من الدعوة الاصلية ومواكبة متناسقة وحضارة عربية .. .. وكانت مراكز نقل الثقافة العربية بداخل السودان عن طريق القوافل التجارية ومواسم الحج لأن حركة التنقل بين الاقاليم كانت محدودة جداً وأغراض أهلها خروج عن حدود القبيلة أو ديارهم كان أمراً شاذاً .



الفن العربي ظهر واضحاً على شرق السودان والبحر الاحمر .
وبقايا بوابة سواكن مازالت شاهداً على تغلب الحضارة العربية على شرق السوان .



... تختفي من سطح الأرض
و... لما تنتظر المزيد من الاكتشافات الجديدة ...



السوق . . . بأرض الجزيره يكشف عن حاجة الانسان للتعامل مع الغير وتبادل الخيرات . . وللنساء دور هام فى البيع والشراء



دار الفونج شرق ارض الجزيره

شارك سكان الفونج فى سلطنة سنار فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

فالقوافل التجارية التي تسير بين وسط السودان من بربر وشندي والشرق والشمال والغرب والجنوب كانت مستمرة منذ القدم .. .. وكانت هي الوسيلة الوحيدة لنقل الثقافة والحضارات الاجنبية ... وكانت هذه القوافل ليست بالكثير حتى تحقق التأثير العظيم بل كانت تسافر مرة في الشهر أو اكثر من هذه المدة في مجموعات كبيرة مختلفة من جميع الجهات المختلفة لان .. . كان في تجمعهم قوة واحدة خوفا من قطع الطرق .. وأهوال الطرق الوعرة الموحشة وصعوبة السفر بلا دليل هذه المسافات الطويلة وخوف المجموعات الصغيرة من طمع القبائل المنتشرة عبر هذه السهول التي كانت لاتعرف إلا قانون الاقوى .

* * * * * *

الظروف الخارجية التى ساعدت على ركود السودان:

بعد القرن السابع الميلادى وظهور العرب فى أفريقيا ظهرت الفتنة بين المسلمين ومحاولة معاوية لاستلام الخلافة من آل البيت ، وظهور الخوارج فى هذا النزاع ضد الطرفين حتى نجا معاوية من خطة اغتيالهم المدبرة وأعتلى السلطة ومنذ ذلك التاريخ أخذت الدولة الاسلامية طابعاً آخر غير الطابع الذى عرفته فى عهد الخلفاء الراشدين الذين أمرهم بينهما الشورى ولم يرق المسلمون من يصلح لهم .

قامت دولة الأمويين بين سخط آل البيت وبين معارضة الخوارج وانشق الصف العربى الاسلامى ، وتقسمت الوحدة العربية إلى مذاهب ، واستعمل معاوية كل القوة ليبسط نفوذه على دولة المسلمين ويقترحها . وقد كانت مهمة أعسر مهمة يواجهها رئيس دولة واشد . منذ الأسلام فى أن أبناء على بن أبى طالب رضى الله عنهم مازالوا يعيشون يحيط بهم أنصارهم ، يدفعونهم لطلب السلطة والتمرد على معاوية وصار حزب الشيعة من جراء هذه المقاومة لحكم الامويين ، ولكن نجاح معاوية فى إدارة دولته جعله أقوى من تحرشات خصومه . حتى انتهى الحكم لابنه يزيد الذى فى عهده قوى حزب الشيعة وظهرت بوادر الصدام بينه وبين دولة يزيد بن معاوية . . واستنكر يزيد هذا التمرد وعمل سيفه الحرم فى ذرية سيدنا على بن أبى طالب رضى الله عنه وانتشرت الكراهية السرية لحكم الامويين وتمركزت فى الكوفة والبصرة ، أى شمال الجزيرة العربية . وطالت هذه الكراهية تعمل ، ; وهذه العداوة السياسية لحكم الامويين تتجمع حتى استطاع العباسيون أن يجمعوا ضد الامويين كل العرب الكارهين لذلك

الحكم حتى إستطاعوا فى عام ١٣٢ هـ من دحر الامويين من السلطة.

إستتام السفاح سلطة العباسية وبدأ الأمويين عنوا حكمهم بمساعدة العرب والفرس . وظل العرب العلويين يتطلعون من العباسيين إعادة حقهم أن يعطوا الحق لأهله . فقد قام العباسيون لنصرة لشيعة العلويين لاسترداد حقهم . ولكن العباسيون تنكروا هذا الحق بعد أن جمعوا حولهم كل المعارضين للدولة الأمويين وظهر الخلاف بذلك عند ظهور دولة العباسيين وإنفرادها بالسلطة . إعتزل علماء أنصار الدولة الشيعية ولا هى قادرة على ضربهم وهم منهما وهى منهم أبناء أسرة واحدة . وظل الخلاف باقيا . وقامت الدولة العباسية الجديدة لتحمل مسئوليتها الكبيرة وتدبير الدولة الإسلامية التى وسعها الخلفاء الراشدين وكملها بنو أمية ...

وكانت فسطاط مصر أول عاصمة لهم إنضمت إليهم . وهرب بعض الأمويين إلى الداخل وعاش بعضهم فى مصر . ولكن [illegible] تتصورها فقد كانت حاجة الفتوحات وانتشار الإسلام فى أطراف الدولة الإسلامية حتى الأندلس تحرص على كل عربى وأموى أن يذهب حيث ذهب نفوذ الدولة الإسلامية وبذلك يزحم العرب فى شمال إفريقيا . وعند ظهور دولة العباسيين خافت هذه القبائل المناصرة للأمويين من بطش العباسيين الذين ذاقوا العذاب فى عهد الأمويين . هربت العرب المناصرة للأمويين إلى الأندلس وهرب الجزء الأكبر داخل إفريقيا وأواسطها حتى كان القرن الحادى عشر وأجمعوا دولة عربية إسلامية فى تمبكتو على نهر النيجر . وأنتشروا فى مالى والسنغال وسهول السودان الغربية عن طريق ليبيا واختلطوا بالزنوج والحياة السلبية فى هذه الأراضى الجديدة .

اما بالنسبة للهجرة للسودان فلم يؤثر هذا التمييز كثيراً ولم يجد من القبائل العاربة نفس العدد الذى كان فى شمال افريقيا إلا أنه كان بداية زحف هؤلاء العرب الامويين الذين تخوفوا إذ لم يستطيعوا الهرب مع جماعتهم إلى شمال إفريقيا وغربها اضطروا إلى الهروب داخل السودان .

وكانت مصر للعباسيين فى عام ٧٥٠ م والدويلات المسيحيه فى السودان مازالت عاجزه عن عمل أى شيء فهى خائفه تترقب هجوم المسلمين عليها وهى ليس بالقوة لترد هذا الهجوم وليس بالطموح حتى تتمكن من طرد العرب من مصر فاقتنع ملوك دنقله وعلوه بكراسى الملك ، وكان قدر المستطاع أن لايثيروا المشاكل بينهم وبين هذه الدولة الاسلاميه القويه .

وكان المسيحيه فى السودان قد انفصلت عن مركزها فى الاسكندرية وفقدت بالتعاليم الأولى لتى وصلت إليها حين انتشار الكنائس الأول بالسودان .

وبعد أن ولى السفاح عمه صالح بن على ، على مصر عزله ليوليه على فلسطين ثم عاد وولاه على مصر والمغرب مره أخرى . وفى عام ٧٨١ م أخرج (وحيه) بن المصعب الاموى فى الصعيد عن طاعة العباسيين حيث كانت إسوان مركزاً هاماً للتجارة والتجمع . وتجمع حول وحين عامه الصعيد ولم يستطيع إبراهيم بن صالح العباسى إلى مصر أن يعمل شيئا معه وقويت شوكته وحيه فى جنوب مصر ولم يستطيع جيش موسى بن مصعب وأسامه بن عمرو على شيء مع هذا الخارج على سلطة والى مصر فقد لقيت جيوشهم الهزائم من وحيه بن المصعب وأنصاره من الامويين وأهل الصعيد .

وظل جنوب مصر متمرداً على مصر حتى عهد الهادى بن المهدى موسى فولى

على مصر الفضل بن صالح (عام ٧٨٦) م . فجرد جيشاً وانتصر على وحيه فى جنوب مصر وقاده إلى الفساط . وهربت الأعراب التى كانت تناصر وحيه ن المعصب إلى داخل السودان وإلى أرض المعدن طالبه المأمون والعمن والعيش وهى أول مجموعة كبيرة تدخل السودان .

وفى عم ٨٥٤ م ٢٣٢ ه امتنع ملك دنقله والنوبه المسيحية عن دفع الجزيه المقرره لوالى مصر . وهرموا الجنود المصريين عند جبل الزمود وأغاروا على صعيد مصر ونهبوا مدينه إسنا وقنا وادفو وذلك فى عهد ولايه عنبسه بن اسحاق على مصر .. وجهز عنبسه لملك دنقلة والنوبه جيشاً مكوناً من سبعه الف محارب وشحن المراكب بالمؤمن والأسلحة لمحاربه ملك دنقله .. وقطع الجيش سهول مناجم الزمود إلى دنقله .. وحين إقترب جيش عنبسه من دنقله ورآه أهل دنقله أسلحته وعاده خافوا منه وأدركوا إنهم هالكون أن استصموا فى معه ... واحتموا بالجبل وحاولوا جر الجيش حتى تنفد مؤنته ، وإذا هم فى حالهم تلك ظهرت على النيل مراكب دعبس بالمؤن والأسلحة وكان على دنقله ملك يدعى «على بابا» فصار يحارب المراكب محاولا أغراقها .. وإذا جيش دعبس هجم على جيش على بابا الكثيرة العدد من الأبل والرجال . وحين سمعت الجمال صوت الاجراس التى أطلقها جيش دعبس اضطربت الجمال ولم يستطع جيش على بابا الصمود وانهزم على بابا وأسر وسيق قائد الجيش الذى اكرمه وعقد الصلح مره أخرى معه على ان يدفع متأخرات الجزيه التى عليه .

وكان دعبس آخر الملوك العرب على مصر ثم اضطرب الحال وصار يتولاها كل مغامر وراغب فى السلطة حتى أصبحت مصر ولايه طولونيه لسلطان احمد أبن طولون (٨٧٠ — ٨٨٤ م) وفى عهدهم أنتشر العلم والنظام مصر .

وفى هذا العصر ظهرت شكل الدويلات الاسلامية داخل الدولة الاسلامية الكبيرة فى الاندلس مازال الامويون يحكمونها .. وفى المغرب ظهرت حركة الفاطميين تطالب بحق العلويين ومصر أصبحت فى يد الطولونيين وبالتالى بغداد هى السلطة العباسية الحقيقية . وانتهت مقاومة ملوك دنقله لأهل صعيد مصر . وخضعوا للاتساق بدفع الجزيه فى حين كانت استقبل ارض المعدن العرب الهاربين من بطش ولاة مصر . وقد كان السودان هو المأوى الوحيد لديهم حيث لاسلطة لوالى مصر على السودان ولا رقيب بينهم ولا عين ترصدهم .

وحالة الحكم فى مصر والعالم الاسلامى تكشف لنا التفكك الذى بدأ يدخل إلى جسد إلى هذه الدولة العظيمة إذا لم يستمر الحال لحزب سياسى معين أو لشيت معلوم ينفرد بحكم المسلمين . وهذه مصر تتعرض لعدد من الحكام الاحزاب حكمها الامويين ثم جاء العباسيون ثم جاء الطولونيون وبعدهم جاءت الدولة العباسية مره أخرى من ٩٠٥ إلى ٩٣٥ ولم يستمر الحال للدولة العباسية إذ ظهرت دولة الاخشيد بين عام ٩٣٠ م إلى ٩٦٩ التى فى عهدها قام الملك النوبه فى فتره حكم أبو الحسن على بن محمد الاخشيدى — وغزاء مصر حتى اسوان فبعث إليه كافور جيشاً عظيماً بالبحر والماء وحاصر مالك النوبه . حتى اضطره إلى الهروب وانهزم جيش النوبه وغرق جيشه حتى كان عهد أبو المسك كافور ٩٦٥ هـ — ٩٦٨ هـ ثم تولى الحكم بعد ذلك أبو الفوارس وانتهى بذلك عهد الاخشيديين على مصر .

خلال فتره الحكم الاسلامى فى مصر نلاحظ اضطراب الحالة فيها وتعدد الحكام عليها . كما نلاحظ كثرة الاجانب وعدم ظهور ملوك من المصريين المسلمين عليها ، حتى كان عهد كثر عدد الحكام الاجانب من دون العرب الامر الذى

يكشف لنا ضعف شوكة العرب في مصر وعدم إتاحة الفرصة للمجتمع العربي ليتشبع بالروح العربية الإسلامية في أجزاء هذا الإقليم السريع والخلاف الحكام وكثرة مظالم بعضهم وثورات الصعيد عليهم .

هذه الاضطرابات لم يتمكن العرب من الاستقرار في الديار المصرية، وإنتشار علومه وثقافة العرب من جراء هذا الجو السياسي المضطرب . حتى نستطيع أن نقول ان المصريين وحدهم كانوا كفيلين بنقل الثقافة الإسلامية العربية إلى جيرانهم من السودانيين فالرسالة ماذالت تحمل طابعها الوثني العربية التي اختلطت في ذلك العصر عن العرب المجاهدين الأوائل والذين نشروا الإسلام بروح عالية .

ومما نود أن نشير إليه هنا هو أن الدعوة الإسلامية الخاصة برسوله صلى الله عليه وسلم وعن الخلفاء الراشدين كانت دعوة للدين ونشر هذه الدعوة حتى دانت لهم الشعوب والقارات وعملوا على توصيل تعاليم هذه الدعوة عن طريق قلوبهم وسيوفهم إذ كان الحماس للدين الإسلامي في عهد الرواد الأوائل في ذروته ، ولم يقع أي إختلاف بين خلفاء المسلمين رضي الله عنهم إلا بعد أن دخلت الدولة الإسلامية في صراع الجماعات المتسابقة على الحكم . هنا أخذ الصراع لوناً آخراً وأصبح التسابق لا لنشر الدعوة بل إلى مطاردة المعارضين، الخوارج الأمر الذي إقتضى أن تصبح الدولة عسكرية إلى حد ما .. وأن تفكر في المقام الأول في تقوية جيشها وذلك لتقضي على الفتن التي شبت في جميع أنحاء الدولة الإسلامية في داخل الجزيرة العربية بين الحكام وأنفسهم والموالين لهم، بين المعارضين لهم بين ولاتهم على الأقاليم التي بسطوا نفوذهم عليها

رغم وصول الثقافة العربية وصلت إلى ذروتها فى عهد العباسيين من ترجمة علوم الشعوب الأخرى وتوسيع دائرة المعارف العربية ونقل مؤلفات الاغريق والرومان والفرس إلى اللغة العربية . إلا أن هذا كان لا يتعدى العواصم الاسلامية كبغداد وحلب والكوفة والبصرة أما الفسطاط فقد نشطت فيها حركة العلم فى عهد إحمد بن طولون ، ثم حدثت الفتن لتوقف هذا النشاط وتعطيل حركة إفاقة لبقية الديار المصرية .

كما إن ظهور دولة المهديين بالمغرب وإنشقاقهم فى تفسير الدين والدعوة للشيعة جعل هؤلاء العرب البسطاء وأهل البلاد المسلمة فى بلبلة فكرية من أمر هؤلاء وهم ليسوا فى حالة تسمح لهم بالقطع فى هذا الخلاف ، الأمر الذى فتح الباب لكثير من الآراء الخاطئة لتنتشر بينهم ونحن نعرف إذ أختلفت وحدة الفكر لدعوة دينية ما ماذا يحدث لرعاياها البسطاء حين يصبحون خاضعين لكل الأعيرات ويتلقون كل الأفكار ويفسحون المجال لظهور الافكار الغريبة والمذاهب الجديدة الأمر الذى قاد لظهور عدد كبير من رجال الطرق الصوفية كل يدعو لطريقته الخاصة فى العبادة حتى تعددت المذاهب الصوفية فى المغرب والجزيرة العربية وإنتشرت بسرعة بين عامة الناس حتى أوقعتهم فى شرك كبير وقد رغم خضوعهم الكامل لرجال الصوفية من شأن هؤلاء الرجال من الصوفية ، الذين شغلوا الناس بذكرهم دون عبادة الله ورسوله ، وأصبحوا هم المثل الأعلى بدلا من الرسول صلى الله عليه وسلم وباتوا هم القدوة فى العبادة بدل الرسول صلعم وخلفاءه الراشدين .

الفاطميون فى مصر :

قامت الدولة الفاطمية بالمغرب عام (٩١٠ م — ٢٩٧ هـ) واستولت على

شمال افريقيا وبسطوا خلافتهم عليها . فى حين مازال خليفه المسلمين يقيم فى بغداد . بجوارهم خليفة الامويين على الاندلس .

ويدعى الفاطميون أنهم ينتسبون إلى فاطمه الزهراء بنت الرسول (صلعم) وإلى العلويين . وقد قامت دولتهم ضد إبناء عمومتهم أبنـــاء العباسيين الذين إنفردوا بالخلافه دون العلويين الذين هم أحق بالخلافه فى نظرهم ، وفى هذا الخلاف بين آل البيت وأبناء عمومتهم ظهرت إشياء كثيره بين المسلمين ، ومحاولتهم الاجتهاد فى ما لا مجال للأجتهاد فيه ومحاولتهم الوصول الى من هم أحق الناس بخلافة المسلمين .

حاول أبو محمد عبيد الله المهدى مؤسس دولة العبيدين الفاطميه بالمغرب.. فى حياته ضم مصر إلى العبيديه ، إلا أنه لم يوفق وتم ذلك فى عهد خلفه المعز لدين الله (٩٥٣ - ٩٧٥ م) ورأى ما كانت عليه مصر من فتن فجرد جيشا عظيما بقيادة جوهر الصقلى الذى تمكن من فتح مصر عام ٩٦٩ م) وأقام خارج مدينة الفسطاط حيث عزم بناء مدينة القاهرة الحاليه . ثم بناء جامع القاهرة . وهو جامع الازهر الحالى وبعث جوهر للمعز لدين الله باخبار النصر . وأنتقلت دوله العبيدين بعد ذلك من المهديه بالمغرب إلى القاهره بمصر .

وأقام الفاطميون العدل فى مصر وأداروا شئونها أحسن إداره بعد أن ذاق الناس ظلم الحكام المتسمين من جراء الحروب الكثيره التى كان وبالها على الناس البسطاء ودافعى الضرائب الذين يمولون الحروب بالمال والجنود :

وأول عمل قام به جوهر الصقلى لنشر الاسلام خارج حدود أرسال مندوب إلى جورجيوس ملك دنقله يسأله الدخول فى الاسلام وإيقاف الدكاة عنه إلا

ملك النوبه رفض الاسلام وفضل دفع الجزيه . وهنا يكشف لنا أن المسيحيه مازالت منيعه ذات أرض صلبه فى السودان حتى القرن العاشر الميلادى وان رواد الدين الاسلامى لم يتوغلوا بين جماهير هذه المملكة الشمالية حتى يمهدوا لمثل هذه الدعوه السلميه .

وفى عصر الفاطميين على مصر بدأت القبائل العربيه الموالية للعباسيين فى النزوح عن مصر إلى داخـــل السودان وبدأت الهجره الكبيرة إلى أراضى السودان نسبه للعداوه التى نشبت بين العلويين والعباسيين . وامتلأ صعيد مصر وأرض المعدن وضفاف النيل بالعرب الهاربين الذين لاخوف منهم على سكان السودان . ولاخوف عليهم من سكان السودان فقد كانوا مسالمين هاربين ينشدون المأوى ، كما أن العهد الذى قطعه ملوك دنقله على أنفسهم بعدم تعرضهم للعرب المسلمين كان يضمن لهؤلاء الخارجين عدم ايذاءهم من ملك دنقله وصاروا أعوانا وعيونا لملك دنقله ضد ولى مصر .

وفى عهد الدوله الفاطمية ظهر بعض النفوذ والمكانه للسودانيه فى مصر وذلك لأن أم المستنصر (١٠٣٦ - ١٠٩٤ م) . كانت جاريه سوداء ذات ذكاء وتجاوب . استغلت ضعف إبنها ووظفت السودانيين فى الدولة فى المناصب الكبيره ليكونوا لها قوة وبانت ذات نفوذ وسيطره على شئون الدوله حتى قويت شوكتهم وقد بلغت قوة السودانيين لطرد الاتراك من مصر والاستيلاء على السلطه حتى تمكنوا من طردهم إلى صعيد مصر الامر الذى مهد لاستمرار صعيد مصر فى عصيانه على والى مصر وعدم خضوعه تحت سيطرة سيطره كامله واستمرار عدم أستقرار صعيد مصر وخضوعه لسلطة الفسطاط او القاهرة مما جعل السودان بعيدا عن يد ولاة مصر فلو كان صعيد مصر تحت يدهم وسيطرتهم الكاملة لكان استغلوه لفتح السودان وضمه إلى مصر الا إن صعيد مصر نفسه

كان مشكله ومصدر قلق اليهم ولذلك كان توسيع حدود هذا الصعيد إلى الجنوب فيه مخاطره ومساعده لعامرى الصعيد أن ينفردوا بسلطه جنوب مصر والأراضى الجديده .

أخذت العلوم والاداب تنتشر فى عهد الفاطميين بانشاء جامع القاهرة (الازهر) والاشراف عليه وتشجيع العلوم حتى إضطرت الأحوال بعد ذلك عاقا لضياع ذلك المجهود إذا أحرقت الكتب وأستعملت فى أغراض كثيره فى عهد المجاعه التى جاءت فى عهد المستنصر .

ظل السودان حتى الآن بعيدا عن النفوذ الاسلامى والعربى لانشغال الولاه المسلمين فى إنفسهم وتأمين سلطتهم من الغاضبين ، ومطامع الأنقسامات الكثيرة التى إنتهت اليها الدوله الاسلاميه الكبيرة .

ولم تظهر على السودان حتى ذلك الحين أى مؤثرات عربية أو اسلامية حقيقيه الا ظهور بعض العرب الخارجين نحو النيل وأرض المعدن وعند البحر الأحمر .

وأنتهى الحكم الفاطمى فى مصر بعد فتن وحروبات داخليه ودسائس حسب طبيعه ذلك العصر وتعدد الامارات وتعدد الاساليب للوصول إلى السلطه حتى جاء عهد الدوله الايوبيه عام ١١٧١ م بزعامة صلاح الدين الأيوبى الذى عهد سير جيشاً بقيادة أخيه سيف الدوله توران شاه إلى النوبة لتأديبها على تمردها ومناوشاتها ، فسباها وعاد مثقلا بالغنائم والمسفر .

إلا إن الظروف لم تتح لصلاح الدين للتفكير فى فتح السودان الشمالى وضمه

إليه أو فرض الاسلام عليه وذلك الانشغال بالحروب الصليبية التى كرس لها كله جهده لابعاد الفرنج من البلاد العربية وأرض المقدس . إلى أن نوفاه الاجل والصليبيين مازالوا يواصلون حملاتهم على العرب حتى إنتهت دولة الايوبيين عام ١٢٥٠ م بعد أن دخل الوهن على المملكة الايوبية وتكالب لاخوان والاقارب على الحكم كما كان ساريا فى ذلك العصر وما يدخل فى هذا الصراع من وسائل ومكر حتى سقطت مصر فى يد المماليك البحرية عام ١٢٥٠) إلى ١٣٨٢ وهم من الرقيق الذين أكثر منهم السلطان الصالح نجم الدين أيوب من أسواق الجركس ومنغوليا والقوقاز لمساندته وقد أخلصوا له فى حياته حتى كثر عددهم وعلى شأنهم وتطلعوا إلى السلطة فوصلوا اليها بعد أن خبروا إمورهم وأسرارهم وظهر التتر على حدود سوريا فى عهد المماليك الذين تصدوا لهم وأوقفوا زحفهم على مصر فى عهد السلطان الظاهر ركن الدين والدنيا بيبرس البندقداوى (١٢٦٠ — ١٢٧٧ م) الذى آخر عهده فتح بلاد النوبة وسواكن واضعف مملكة دنقله الشمالية وفتح للعرب الطريق لدخول السودان . وجعل للذين سبقوه مكانة فيها حتى اشتد ساعدهم وكثر عددهم على النيل وسهول السودان الفسيحة .

وقد كان ملك النوبة ينتهز دائما فرصة أنشغال والى مصر بالحـــروب مع الصليبين أو غيرهم فى الشمال ويرى أبتعاد جيوش المسلمين عن مصر ويمتنع عن دفع الجزية ... وهو لايدرى أن أيقاف دفع الجزية يعنى فى مفهوم العرب إيقاف الامدادات عن الجنود العاربين ولذلك كانت ترسل اليه الجيوش لتأديبه وأعادة الموقوف من الجزية وتحصيل المطلوب منه فوراً وقد حاول هذه المرة فى عهد المنصور سيف الدين قلادون الالف (١٢٧٩ — ١٢٠٩٠ م) وأمتنع عن الجزية حين شعر بأشتغال المنصور بمحاربه التتر فى أرض الفرات وحلب . إلا أن الالف جرد عليه حملتين فى عام ١٢٨٨ م و ١٢٨٩ م ... وعادت

الحملات بالجزية الموقوفة والغنائم والسبايا وخضع ملك دنقلة مرة أخرى لدفع
الجزية ولم يفرض عليه الإسلام إنما ترك فى ديانته المسيحية التى بدأت تزول منه
بعد انتشار العرب بين النوبة على ضفاف النيل .

وقد ظل ملك دنقلة والنوبة يمارس هذه الوسيلة كلما شعر بضعف ملك مصر
حيث كانت هذه الجزية عبئاً صارقاً على ملوك هذه المنطقة حاولوا التخلص منه
بكل الوسائل ولكنهم لم يستطيعوا أن يعملوا شيئاً : وقد حاول ملك دنقلة مرة
أخـــرى فى عهد الملك الناصر محمد بن قـــلاوون (١٢٩٩ — ١٣٠٢) .
(١٣١٠ — ١٣٤١) وامتنع عن دفع الجزية الأمر الذى فرض تجريد جيش
عليه وإعادة الجزية إلى ما كانت سابقاً وإنتهت بهذه المحاولة آخر محاولة لملك
دنقلة للإفلات من دفع الجزية التى كانت وبالاً على ميزانيته ومواطنيه وحساب
عمرانه ولاشك أنها كانت ترهق هذه المملكة المتوسطة الدخل المعتمدة على ضرائب
البلح والقمح وهذه المحاصيل إنتاجها يرتبط بموسم الأمطار فإن كثرت الأمطار فى الجنوب
وفاض النيل ضمن مواطنيه محصولاً طيباً من الزراعة وإذا قلت الأمطار قل الزرع
وصعب تحصيل الضرائب منهم لأنهم لا يملكونها وكذلك الحال بالنسبة للبلح
إذا هبت عليه عاصفة وهو مازال أخضراً أسقطت معظمه وكذلك إذا نزلت
عليه أمطاراً وهو على وشك الاصفرار تلف أكثره وقل محصوله .. ولكن والى
مصر كان لا يعرف هذه الظروف ولا يقدرها . وإذا أنكر ملك دنقلة هذه
الظروف على رعايته فقد أنكر معرفته لهم وحالهم الاقتصادية . ولذلك كان
تمرد ملك دنقلة المستمر لدفع الجزية تفرضه ظروف المنطقة الاقتصادية ودخل
المنطقة القائم على الضرائب الزراعية والماشية كان لاشك لا يكفى حاجة التوسع
الطبيعية هذه المملكة فى إرثها وتطورها وفرض جزية عليها كان يعنى نقص

تطورها وتدهورها تدريجيا مع مرور السنين فهي بإمكاناتها المحدودة لاتستطيع التوسع حتى تفي بالتزاماتها .. وهذه الامكانيات المحدودة إمتدت لها يد الجزية لتنال من المصروفات الانشائية لهذه المملكة ومصروفاتها العامة وجعلها هذا الالتزام تقلل تدريجيا في مصروفاتها حتى جاء العهد الذي أصبحت غير قادرة بسط نفوذها على هذه المنطقة حتى مهدت لانضمامها لمملكة الفونج والعبدلاب في القرن السادس عشر.

خلال هذه الفترة كان العرب يتقدمون في سهول السودان ويكثر عددهم بمرور السنين ولاشك أنهم كانوا يهبطون إلى النيل في موسم الجفاف يتزودون من مياهه وحشائشه وهذه الزيارة كانت تفرضها عليهم ظروف اضطرارية تمسها فهم مضطرون للبحث عن قوت لماشيتهم ومياه لهم وتزودهم من القمح كان فائدة السكان تقبل فقد كانوا يبيعونهم الماشية ومنتجاتها مقابل الذرة والقمح ولاشك أن سكان النيل يرحبون بهذه الزيارات التجارية فهم لايستطيعون أن يستهلكوا انتاجهم من القمح وخاصة ولذلك كان لابد لهم من سوق لها لبيع الفائض عن طريق التجارة مع إسوان ودنقلا أو مقابل الضرائب وحينما سهل عليهم هؤلاء العرب شراء الفائض من محصولهم من القمح والذرة أصبحوا يتفاءلون بهم ويرحبون بقدومهم وتوسعوا في زراعتهم وخلال هذه المقابلة كان يحدث التزاوج وإسلام بعضهم حتى أقبلوا على العرب وألف العرب عليهم وأقام البعض منهم على النيل أو ترك زوجاتهم حين يعود في موسم الجفاف.

وأما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تحاك لنزع ملك لأجل آخر حينذاك وهى العرب أن لاخوف عليهم وعلى أولادهم من سكان النيل أصبحوا يرتادونه ويفتخرون بالقرب منهم وكثرة تزوجهم من نساء سكان النيل حتى تعربوا

بمرور الايام على هؤلاء السكان وانتشر الاسلام على النيل بواسطة هؤلاء العرب
ثم دخله سكان النيل متأثرين بهؤلاء العرب .

أما مصر فما زالت الاضطرابات تسودها والدسائس تحاك بين الطامعين لنزع ملك
لاحلال آخر مكانه والحروب الداخلية لاتقف نتيجة هذا الصراع للسلطة من
الداخل أو التحرشات الخارجية حتى أنتهى حكم المماليك البحرية عام ١٣٨٢ م
ليأتي عهد المماليك الجراكسة عام ١٥١٧ ولتدخل مصر بعد أن وهنت وزادتها
الفتن والاطماع ضمن أراضي الامبراطورية العثمانية حتى عام ١١٠٨ م

أثر الثقافة العربية فى السودان حتى القرن السادس عشر

كما أسلفنا إنتهى التخطيط العام لنشر الدعوة الاسلامية والثقافة العربية بعد الخلفاء الراشدين بعد تحولات الخلافة الاسلامية إلى ملكية وراثية ، وكثرت حولها الأطماع والدسائس وأصبح إهتمام الدولة بالجيش فى المقام الأول للحفاظ على كرسى الخلافة وإنغمس الخلفاء فى دولة بنى امية والدولة العباسية فى اللذات وإبتعدوا عن تعاليم الدين وأصبحوا أسواء مثل للمسلم حتى كثر الأجانب حولهم واستولوا على مقاليد حكمهم . . . ودخل الثقافة العربية الفكر الفارسى والاغريقى لتحيا فى عصر بعض الخلفاء ، الخلافة الاسلامية فى أوج مجدها العلمى والأدبى . وإذا لاحظنا ذلك الازدهار الذى حدث للعلوم والاداب . . فى العصر العباسى أو الاخشيدى أو الفاطمى إنما كان لشغف بعض ملوكها بالعلوم فأزدهرت العلوم لأنهم أكرموا العلماء وبأنتهاء أولئك الملوك أنفض السامر وقلت حركة العلم حتى وصلت إلى درجة الركود وحتى خصائص الثقافة العربية .

وإذا أردنا أن نتابع خلفاء الدولة الاسلامية وتخطيطهم للعلم لانجد هنالك أى تخطيط بالمفهوم الحديث . فعمر بن العاص رضى الله عنه حين دخل مصر أمر ببناء جامع عمرو وأصبح هذا الجامع فيما بعد هو جامع الخلافة وملتقى المسلمين على جميع طبقاتهم يستمعون إلى الارشاد والتوجيه وإلى تعليمات الخلفاء التى كانت تلقى دائما على منابر الجوامع ولكن جامع عمرو لم ينشأ ليكون مدرسة لتدريس القرآن أو اللغة العربية أو علوم الدين بل إقتصر على أداء فريضة الصلاة ومواعظ خطب الجمعة . والخطبة لاشك لاتخرج معلمين يعلمون غيرهم

معلهم إنما هي تذكير للمؤمنين بأخلاق السلف الصالح من المجاهدين وإلى توجيه الناس إلى الأشياء الضرورية الواجب إتباعها في بعض المناسبات وحيث كانت الحياة في مصر في عمل عسكري دائم فقد كانت خطبة الجمعة في جامع عمرو هي حث الناس لإطاعة خليفة المسلمين والاجتهاد لنصرته ولم تترك الظروف العسكرية والحربية التي عاشت فيها مصر للجوامع أن تؤدي رسالتها الدينية التعليمية بل أصبحت المنابر وسيلة لجمع الناس وتهدئة الخواطر والدعوة لتأييد حاكم جديد أو لمؤازرة أو إلى لمحاربة الجيوش الغازية أو للتجنيد في صفوف الجيش لصد العدوان أو القمع عن حدث أو للدعاية لممثل الصالح المصالح المؤمن القائم على شئون البلاد .

وإذا إعتبرنا الجامع هو المدرسة الأولى التي حفظت التعاليم الاسلامية وعلوم الدين فيجدر بنا أن نتتبع هذا التاريخ ونرى ماحدث في مصر حتى يكون ماحدث فيها ذا أثر على السودان وعلى المسلمين المقيمين بها من عرب وسكان أصليين .

وأول جامع أنشاء في مصر هو المسجد الجامع أو جامع عمرو أو الجامع العتيق كما كان يسمى بهذه الاسماء في عام ٦٤١ م بعد دخول عمرو بن العاص إلى الفسطاط .. وظل هذا الجامع يخدم الاغراض السياسية بدعوة . إذ كان العرب في حاجة لمثل هذا المنبر لتهدئة الخواطر وشرح الدعوى للناس وتنشيطهم لدخول الاسلام وحثهم على معاونة جيش المسلمين والتطوع فيه . . وقد كانت خطبة الجمعة في معظمها خطبة مثل هذه الاغراض ولم تسمح ظروف العرب المتحمسين لنشر الدعوى على كل الشعوب أن يعملوا أكثر من ذلك ، شرح الدعوى والدعوة للإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم تعاليم الدين الرئيسية الخمس .

وظل الجامع العتيق يقوم بهذه الرسالة بعد عودة عمرو بن العاص وتركه مصر لابن السرح ولم تتسع رسالة هذا الجامع لاكبر من ذلك فلم تتسع بعد للعلوم الدين وتدريس أحكام الشريعة الاسلامية بل ظلت هذه التعاليم تلقى فى منبر الجمعة ، ويقوم بها الأفراد المسلمون من العرب وتوصيلها إلى سكان مصر فى أكثر صورها حتى يذكروها ويفسروها ؛ واستمر الحال على هذا المنوال حتى جاء عهد العباسيين . وكانت الدعوة قد إنتشرت وآمن بها الكثيرون وأصبح الجامع والصلاة فيه من أول واجبات المسلم وأصبحت تعقد فيه الحلقات الصغيرة للتذاكر والتفاهم والتحابب بين المسلمين . واصبح يرتاده كثير من الناس فى غير أيام الجمعة لمعرفة تعاليم دينهم

ونشطت فى جامع عمرو حركة التدريس فكثرت فيه الحلقات وخاصة بعد الصلاة واهمها صلاة المغرب والعشاء . وكانت تدور فيه المناقشات الدينية والأدبية والمطارحات الشعرية والروايات التاريخية وكل الوان المعرفة ماتيسر لرواده ومشائخه . ولم تكن حلقات تدريسه لها أسس معينة إنما كانت مواضيع الحديث تأتى من حيرة المجتمعين وتخرج من هذه الحلقات بعض رجال الدين والفقه فى مصر الا أن هذه الحركة لم تنشط ويظهر لها ثمارها الا فى عهـــد العباسيين ثم الفاطميين .

ومن هذه الحلقات المشهورة حلقة الامام محمد ادريس الشافعى (١٩٠ — ٢٠٤ هـ) .. كما انتشر نوع آخر من حركات التعليم والخطابة فى بيوت الفقهاء وأهل العلم . كانت تجذب إليهم طلبة المعرفة . ومن أشهر هذه الحلقات حلقة بنى عبد الحكم . وكان يرتاد حلقاتهم اكابر العلمـــاء الفقهاء الذين يزورون مصر .

ثم أنشأ المعز لدين الله الجامع الأزهر عام ٩٧٢ ليكون منبر الدعوة للفاطميين أول الأمر، ولنشر مذهبهم الشيعي بين الناس وقد استعمل الجامع الأزهر كغيره من الجوامع الإسلامية (لأغراض سياسية وحربية تخص أمن الدولة) فالاضطرابات الكثيرة التي شهدتها الممالك الإسلامية على طول أيامها لم تكن تدع للحكام وقتا لإلقاء الخطب الدينية الخالصة على منابر هذه الجوامع بل كانت الأحداث المتلاحقة تدفع بخطب الجوامع إلى موضع من مواضيع تلك الظروف العصيبة والخلافات الكثيرة.

بل لم يفكر حاكم من حكام المسلمين أن يخطط لنشر التعليم ناهيك عن نشر العلوم الأخرى التي يصعب أن تقوم بدون التعليم الذي إذا أردنا أن نطوره وأن يصل إلى أكبر عدد من محبيه أن يوفر أماكنه ومعلميه.

إلا أن ذلك لم يحدث فقد نشأ التعليم في بيوت الأفراد والخاصة والمهتمين والذين أخذوا هذا النوع من الحياة هدفاً لحياتهم وغاية من غايات وجودهم وهو التزود من المعرفة ونشر هذه المعرفة.

إلى أن جاء عام ١٠٠٥ م وأنشأ الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله دار الحكمة وكانت أول مدرسة تنشئها الدولة الإسلامية لنشر العلوم والمعرفة رغم أن إنشاء دار الحكمة كانت دوافعه مذهبية لنشر دعوة الشيعة التي ظهرت بعد فترة من فتح هذه الدار وتوسعت حلقتها وانتظم فيها الشيعة والسنة حتى جاءت معاقبة على علماء أهل السنة وقتلوا وأصبحت دار الحكمة دار حكمة الشيعة لا يجرؤ أي مذهب على دخولها وقت فعاليتها وبذلك ظهرت عصبيتها المذهبية.

وقد كانت دار الحكمة في بدايتها داراً عظيمة للعلم والمعرفة . تدرس علوم القرآن والفقه وعلوم اللغة والفلك والطب والرياضة والتنجيم وغيرهما ووفرت لها كل الامكانيات المادية فأصبح جامعة علوم حقة . حتى أصابتها عصبية المذهبية وأصبح يخافها العلماء لعدم وجود الجو العلمي الحر بها .

وإذا سألنا أنفسنا من أين جاءت تلك النهضة العلمية التي ظهرت في عصر العباسيين والفاطميين دون أن يكون هناك تخطيط وأشراف من الدولة على نهضة العلم .

إلا أن الأمر بسيط غاية البساطة .. فتلك النهضة العلمية وتلك الحركة العظيمة في كل فروع المعرفة التي تركها لنا الأسلاف جاءت نتيجة اجتهاد الأفراد وتسابق العلماء المدى أصاب الذين كانوا يخدمون القصور . فقد كان من حاشية الملوك جمهرة من العلماء تتقرب للملوك وكسب رضاهم هو الاجتهاد في المعرفة والعلوم وكانوا الملوك يقدرون المجتهدون من أهل العلم . ويميزونهم بعطايا الأمن والسكن والاحترام والتقدير .

والعلم كنوع من النشاط الانساني تتحكم فيه القيم الاجتماعيـــة والحوافز الانسانية فيه ، فإن كان العلم هو أفضل النشاط في نظر الجميع اتجه الناس إلى العلم وكذلك الحال باتت الفروسية أفضل من العلم لفضل الناس لها وسبقه على العلم وكذلك في جميع فروع النشاط الانساني كالتجارة والرياضة والفنون حيثما يصبح هذا النشاط والاجتهاد ذا قضية اجتماعية أعلى من نشاطات الأخرى يجذب اليه اهتمام الناس واهتمامهم .

وبدراسة ظروف نهضة العرب العلمية نرى هنالك كثير من منشآت الانسانية ذات القيمة الاجتماعية المتفاوتة كالفروسية والثراء ثم كان العلم عند جمهور المتعلمين المغبوطين والمحسود . وهذا هو السبب لدفع حركة العلم عندما وجد الملوك الذين يقدرون العلماء ويفضلونهم ويقدمونهم على غيرهم من الناس حتى أصبح العلم هو بغية الكثيرين حتى يصل لتلك المرتبة من تقدير المنصور والخلفاء والأمراء وأصبح الاجتهاد والتفوق العلمي هو الذي يحدد مكان العالم والمجتهد فى مجلس الخليفة وقيمة الهدايا والعطايا السنوية المقررة له .

وقد أخذت مصر فى عهد الدولة الفاطمية بعد القرن الحادى عشر رسالة النهضة العلمية العربية وتوزعت هذه النهضة بين دار الحكمة التى نشطت فيها العلوم العقلية والدعوة الشيعية فى حين احتفظ الأزهر بتدريس العلوم الدينية والقراءة وكذلك جامع عمرو وأصبحت هذه القلاع الثلاثة قبس الفكر الاسلامى إلا أن هذا النشاط وهذا الرقى كان يرتبط بحياة الدولة الفاطمية التى وفرت الامكانيات لهذه النهضة العلمية رغم الاضطرابات الكثيرة التى عاشتها حتى عجزت الدولة الفاطمية عن الاستمرار فى الانفاق على دار الحكمة وتعرضت فى عام (٤٩٥ — ٥١٤ هـ) لاغلاقها بعد أن ظهرت عصبيتها المذهبية داخل الدار ثم اعيد فتحها مرة أخرى عام ٥١٧ هـ فى عهد المأمون البطائحى وزير الآمر بأحكام الله إلا أن هذا كان ايذانا بسقوط هذه الدار وهذه الجامعة لتى كان لها الفضل العظيم فى حفظ العلوم الدينية وتطهير الفكر الاسلامى والثقافة العربية

وقد انتهت دار الحكمة الجامعة الاسلامية الاولى بذهاب أصحابها وانقضاض

دولتهم وعادت الصدارة للجامع الازهر ونشطت حلقاته من جديد بيد ان عصر رواد دار الحكمه وسقوط الدولة الفاطمية واضطراب الحياة السياسية فى مصر وكثرة تعدد الحكام فيها ووقف فيها كل نشاط .

ثم تدخل مصر فى عهد المماليك البحرية ١٢٥٠ م والمماليك الجراكسة عام ١٣٨٢ — ١٥١٧ م وانتضم اخيرا الى اراضى الامبراطورية العثمانية التى امتدت الى شمال افريقيا والجزيرة العربية .

جاءت الامبراطورية العثمانية التركيه بكل صلفها ووحشيتها وهمجيتها وجهلها لتقضى بضربه واحدة على أخر قبس للفكر العربى ، بعد أن بدأ يثبت وجوده فى الحياه ويعطيها من انتاجه واجتهاد ابناء البلاد الخاضعه للاسلام . انتشرت الامبراطورية التركية كالاخطبوط على الشرق العربى لتشل حركته وتوقف كل حركة سالفة ولتميت كل اسباب الخلق والابداع بعد ان سبقها التتر فى القرن السابع الهجرى بضرب الحضارة العربية العباسية وهى تعطى الفكر العالمى اطيب خيراتها . جاءت القبائل الوحشية التترية لتضرب ضربتها على معقل الممالكة العباسية وتتلف كل ما انتجته تلك النهضة العربيه وتعيث بأقيم انتاج خلفه الانسان فى عصر تلك الخلافة حتى تندثر نهضة الخلافة العباسية على يد التتر .

كانت مصر هى أخر أمل للفكر العربى ولذلك كان اسباب ازدهار الفكر والعلوم بها والتجاء العلماء إليها واشتداد حلقات المذاكرة والعلوم فى جوامعها

وإدوقتها أمر طبيعى بعد أن قفلت كل أبواب الحرية والتعبير لورد الفكر والمعرفة من المسلمين وانصارهم

ولو حاولنا أن نرى أثر النهضة السابقة التى قامت فى عهد الخلافة العباسية فى شمال الجزيرة العربية او تلك التى قامت رغم مشاكل مصر الكثيرة وأثبتت وجودها رغم كل الصعاب والدماء والخلافات الجديدة الكبيرة التى كانت لاتقف لو حاولنا أن نرى انعكاس تلك النهضة على السودان حتى عام ١٥١٧ بدخول مصر تحت سلطة الدولة العثمانية ودخول الحياة الاسلامية فى مرحلة لركود الذى شل كل إمكانياتها الخلاقة وجعلها وبسبب هذا الاخطبوط المهين الذى لا يقتل ضحيته مرة واحدة ولا يعطيها اسباب الحياة لتعيش .. انما يجعلها حية هكذا بلا حياة سالباً منها كل موارد الحياة الا ما يجعلها تتحرك وكأنها حركة المشلول لاهو قادر على الحركة ولاهو راضى بالسكون .

كانت هذه الفترة من القرن الثامن الميلادى الى القرن السادس عشر الميلادى هى فترة الصراع بين الدماء العربية والدماء السودانية . . . صراع بين العرب الذين اضطرتهم الظروف السياسية لجوء للسودان و بين أهل السودان المسيحيين والوثنيين . بين اخلاق هؤلاء العرب البدو وبين اولئك الفلاحين المقيمين على النيل . . .

كانت معركة طويلة بدأت بسقوط الدولة الاموية فى القرن الثامن وهروب اتباعها الى حيث لايوجد حاكم من الدولة العباسية . ثم مرة أخرى فى القرن العاشر الميلادى حين سقطت دولة العباسيين فى مصر امام زحف دولة الفاطميين

المتعصبة للشيعة الغاضبة على الدولة العباسية التى تنكرت لمبادىء الاتفاق على اسقاط الدولة الاموية وإعادة حق آل البيت إليهم ولكن بنوا عمومتهم لم يروا فى طلب الشيعة ما يلزمهم بتسليم السلطة إليهم ، بعد أن استحقوها بقوتهم وقوة مناصريهم واتباعهم .

كما رأينا أن الثقافة العربية والاسلامية بدأت حول حلقات الجوامع الكبيرة بالقاهرة وكانت هذه الندوات الصغيرة التى يتطارح فيها طلاب المعرفة والعلم آراءهم وبجهوداتهم هى بداية حركة الفكر العربى الاسلامى وعاشت هذه النهضة بقرب السلطة كى تكتسب حمايتها واعانتها إما الأرياف والمدن البعيدة لم يكن لها نصيب من هذا التقدير وهذه الرعاية فقد قامت الجوامع الاسلامية حيث تكاثر عدد المسلمين وعلت سلطتهم ولكن تلك الجوامع البعيدة والتى يدرس بها غالباً خريج من حلقات تلك الحلقات الدراسية الدينية وعدوا لهذا الغرض الالمام بأصول الدين والفقه والحديث حتى يستطيعوا أن يسيروا الحياة الدينية والفكرية داخل الجوامع المنتشرة على المدن النيلية . . .

وهذه الجوامع لم تكن باستطاعتها إن تلعب نفس الدور الذى كانت تلعبه جوامع الفسطاط ومدينة العسكر والقاهرة التى كانت تلقى الرعاية والاهتمام من السلطات الحاكمة وحاجة السلطات الحاكمة نفسها لمنبر من هذا النوع . ولذلك كلما ابتعدنا عن العاصمة الاسلامية فى العراق او الفسطاط أو الاندلس أو المهدية قلت حركة العلم والثقافة وكانت اهتمامات الناس إهتمامات أخرى غير إهتمامات أهل الكتب والدين يستخلص فى ذلك أن أولئك العرب الذين نزحوا إلى السودان وكانوا يستوطنون جنوب مصر ، حيث كانت أكبر معقل لقلاق الحكومة فى الشمال . وقد كان صعيد مصر

والنوبة فى أكثر المناطق إضطراباً وتمرداً على السلطة فى الشمال وانهار أى بادرة ضعف أو إنشغال جيوش الدولة فى حرب خارجية إلا ورفع إحدى هاتين المنطقتين ، الصعيد ، والنوبة عصا التمرد والعصيان الأمر الذى ربط مملكة النوبة وصعيد مصر بالثورة ضد حكومة الشمال حتى قاد الاتفاق غير المقصود إلى احترام الهاربين من أهل الصعيد ولوائهم بالنوبة وبين سكان شمال السودان مما ساعد على هجرة العرب بجوار النيل .

هؤلاء العرب الذين إضطرتهم الظروف السياسية والاقتصادية إلى اللجوء إلى الأراضى الشاسعة شبه الخالية من السكان فى الجنوب وخاصة فى فصل الصيف . لم يكن هؤلاء العرب من رجال العلم والفكر ولكن كانوا من رجال العصبية المذهبية الدينية ومنهم الأوائل من بنى أمية ، ولم يكن بمصر منهم العدد الهائل الذى يؤثر كثيراً . ومنهم الاجداد العباسية التى جاءت لتمزق الفرع الأموى وتنتقم لآل البيت حتى وجدت نفسها هذه المرة موضع إضطهاد وكراهية من أهل الشيعة والفاطميين الذين قذفوا بهؤلاء الأنصار العباسيين إلى قبائل السودان .

أبتعد هؤلاء الانصار العباسيين عن منطقة الاضطهاد حاملين معهم حرارة الدعوة الاسلامية التى ورث على رجال الصحراء النوبة . وفقدت الكثير من حماسها ووجد أصحابها أنفسهم فى شبه حالة تشرد وضياع يبحثون عن أرض تأويهم وجماعة تتفاهم معهم وظلوا يحافظون على شعائر دينهم وصلواتهم بين تلك القيافى والصحارى والوديان وأنقطعت أخبار العالم عنهم او كادت تنقطع عنهم لبعد المسافة وتوغلهم فى أراضى السودان عاماً بعد عام وظهرت أجيال

جديدة منهم لم ترتبط بالخصومات القديمة ولم تحاول أن تنتمي إلى شيء إلا تقدير حبها للأرض الجديدة التى آوتهم والتى أعطتهم الأمان والحياة .

أحب العرب هذه الحياة البعيدة عن المشاكل والحروب واستعملوا حياتهم البدوية وبدأ يمسحون الأراضى التى لم يتعرفون على خيراتها وعلى سكانها وكانوا فى خلال توغلهم داخل السودان بمرور السنين حذرين غير محبين للمعارك حتى عرفوا أنفسهم كقبائل مسلمة مسالمة للقبائل السودانية التى كانت تستوطن النيل وتعيش على الزراعة ..

كانت حياة الترحال هذه غير كافية لسمو العالم الإسلامية بجانب انتشار وتطور الثقافة العربية بينهم . بل كانت هذه الرحلة داخل أراضي السودان من العوامل التى أفقدت أولئك الرواد الأوائل ، أفقدهم الكثير من دينهم وبعدهم عن أرض المعركة وما انتهى إليه حال الدعوة فى عصرهم حين فقدت حماسها الديني إلى الحماس إلى كرسي الخلافة والغدر والقتل ودخول عناصر كثيرة كان لها الأثر الكبير فى بث روح الفتنة ومؤامرات الحكم ... بمرور السنين ظهور أجيال جديدة من أحفاد هؤلاء الرحالة العرب فى فيافى السودان فقدت هذه الأجيال الجديدة الكثير من خصائص الرواد الأوائل فى حفظهم لتعاليم الإسلام وغيرتهم الشديدة عليه إلا أنهم احتفظوا بكثير من خصائصهم العربية من تقاليد وأخلاق ملازمة لعنصرهم وبيئتهم وهذا ما نلاحظه حين تم اندماجهم والاحترام التام بين أهل السودان وامتزاجهم بهم حتى أصبحوا عنصراً واحداً ذا تقاليد واحدة شائعة بين الجميع وتقلصت صفات سكان السودان الأوائل كما تغيرت صفات العرب الأوائل ليظهر لنا هذا المزيج السودانى من التقاليد السودانية القديمة والتقاليد والأخلاق العربية التى صنعت منها رحلة الترحال مواطنــــاً جديداً حسب البيئة والمناخ .

كانت حركة الامتزاج هذه فيها شيء من اللين والملاءمة ، بين عادات وأخلاق أهل السودان والعرب فلاشك كان هناك تدهور من عادات المجموعتين إلا أن الامتزاج السلمي الذي تم على مر العصور كان إمتحاناً لعادات المجموعتين فالعادات القديمة العريقة لايمكن أن تزول في كل المجموعتين بمجرد التدهور والخلط والمعاشرة فهناك تقاليد قديمة عاشت على نهر النيل يصعب على هؤلاء العرب المسالمين المتفهمين الراغبين في المعاشرة من نحو هذه التقاليد حتى لو كانت تخالف تعاليم الدين أتوا به عليهم أن يتقبلوا مثل تلك التقاليد العريقة القديمة ، ومن التقاليد الفرعونية الخاصة بالافراح والختان التي كان يتمسك بها أهل النيل فقد قبلت الأجيال الجديدة من العرب هذه التقاليد التي عاشت في النيل ورأوا في إعتناقها تقرباً منهم لسكان أهل النيل والسودان ورأى أهل السودان بقبول العرب لمثل هذه التقاليد وإحترامهم لها إحترام لشخصيتهم ، وقبلوا بدورهم عادات وأخلاق العرب التي رأوا العرب يتمسكون بها ويقدسونها كجزء من حياتهم

وكان هذا الامتزاج وهذا التجاوب بداية لنشر الاسلام والثقافة والحضارة العربية وسط السكان المسيحيين أو الوثنيين . وجوب الأسلام بسماحته للتزاوج والامتزاج بين المجموعتين معظم إنصار الممالك المسيحية التي كانت في عزلة ودقة تلفظ آخر إنفاسها وتعيش الكنيسة نفسها في حالة حذر وإنفصال كامل عن الحركة المسيحية في العالم وفقدت كل علاقة بها حتى كان القرن الخامس عشر الميلادي وقد تم خلق شخصية جديدة تجمع من تقاليد النيل الوثنية العريقة وتقاليد العرب الذين فقدوا كثيراً من خصائصهم خلال عملية الرحلة الطويلة حتى يصلوا إلى النيل وإلى أرض البطانة والنيل الأزرق وأرض الجزيرة وغرب السودان حتى ظهرت الشخصية الجديدة لمجتمع القرن الخامس عشر ووضح فيه شكل الزعامة القبلية وأصبح لها وزنها الاجتماعي بين الأفراد وظهر المجتمع

القبلي الجديد بعد التكاثر وسيطرت المسلمين على معظم أراضي النيل والفونج وغرب السودان مما مهد لقيام دولة العبدلاب والفونج في سنار وأسلام دولة الفور في غرب السودان وانتصار الاسلام وظهور زعامته من رجال العشائر وزعماء القبائل ليحلوا مكان سلطة الدولة المسيحية في الشمال وفي أرض الجزيرة عند سوبة .

. . . .

السلطنة السنارية

بعد أن تم الامتزاج بين العرب وسكان السودان وظهر المجتمع الجديد الذي جمع بين الخصائص العربية القديمة والخصائص القبلية القديمة وحل الإسلام محل الديانة المسيحية بعد أن حمله هؤلاء العرب الرحل مئات السنين وفقد كثيراً من تعاليمه وفقد العرب أنفسهم الكثير من خصائصهم الأولى وابتعادهم عن دولة الإسلام في الشمال وتوغلهم في هذه الفيافي والوديان والأنهار حتى تكاثر العدد وغزو أرض النيل والجزيرة وظهر شكل المجتمع القبلي . . . وظهرت شخصية زعيم القبيلة الكبيرة العدد التي لها وزن في الخصومات القبلية والمشاحنات وفرضت الشخصية الجديدة نفسها على المجتمع وبدأت تظهر وتتضح معالمها البارزة المميزة وتمارس كل حقوق زعيم القبيلة .

وخير ما نشير إليه هنا هو كتاب الأستاذ شاطر البصيلي معالم سودان وادي النيل الذي ناقش فيه قيام السلطنة السنارية مناقشة مستفيضة بعد عرض الخلافات الكثيرة بين المؤرخين في أصل قيام هذه المملكة .

جاء القرن الخامس عشر وكانت ملامح المجتمع القبلي قد برزت وظهرت زعامات قبلية كثيرة ذهب بعض المؤرخين تسميتها ممالك .

ونجد في شمال السودان بعد سقوط دولة المقرة المسيحية في القرن الرابع عشر الميلادي من جراء هذا الشكل الجديد نموذج الجماعي في الشكل القبلي وظهرت في الشمال مشيخة سيد ارقو على رقو وجزيرة مقاصر والحنق

في الجوابرة ولوبة ثم تليها مشيخة العبدرة من حلة تبن إلى جبل دافر وتضم
الخندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وارقو واستقلت بزعامة ملك دنقلة
العجوز ثم تلتها المشيخة الشايقية وتضم حنك وقوشابي ومروى والعمرى ثم
تلتها مشيخة المناصير من الرحمة إلى نهر العطبرة وقد وصف بوكهارت في رحلته
في السودان أن هذه المنطقة قليلة السكان حتى في منطقة ملتقى نهر العطبرة
ونهر النيل وتشمل كذلك هذه المنطقة مشيخة الرباطاب والميرفاب ثم بعد ذلك
المشيخات القوية حيث كثافة السكان أغزر هنا من الشمال مالقرة هذه المشايخ
واستلامها السلطة فيما بعد على المشايخ الأخرى وهي مشيخة العبدلاب تجاورها
الزعامة الدينية لبيت المجاذيب بالدامر وشندي حيث ملك الجعليين

تزعم العبدلاب هذه المنطقة بواسطة زعيمهم عبد الله جماع وبسطوا
نفوذهم على المشايخ الأخرى لقوة قبيلة العبدلاب حتى تمكنوا من توحيد منطقة
نفوذهم مع منطقة نفوذ الفونج فيما بعد فقد امتد نفوذ الفونج إلى أرض النيل
الأزرق وشرق السودان .

وأهم مانود أن نضيفه هنا إلى تاريخ هذه السلطة وسط الفترة كثافة
السودان وزيادة الموارد الاقتصادية واتحاد الأفراد في مجموعات باسم القبيلة
خلف ذلك الصراع الذي عاشت فيه الجماعات التي عمرت السودان واستوطنته
وذلك مابين الفترة من القرن الثالث عشر الميلادي والخامس عشر ميلادي وهي
الفترة التاريخية الكافية لحق ذلك التجمع وتلك التقسيمات بصورة على ضفاف
الأنهار والوديان والسهول .. كما يجب أن نشير إلى أن أهدافا داخلية تلك
المجموعات وميلها إلى الحروب والمنافسة وخروج الأفراد وتنافس منها
الذين يحترفون منهم السلب وقطع الطرق الأمر الذي يؤدي إلى حوادث كبيرة .
وقطاع الطريق منهم كان أخطرهم أشد نكبة كفرد أصبحت عصبة منظمة منه .

أن الاخلاق القديمة التي جاءت مع العرب كانت تلزم القبيلة بحماية الفرد المنتمي اليها . . . وهذا سبب من الاسباب الرئيسية لخلق المشاحنات والحروب الداخلية بين مجموعات القبيلة التي خلقت البيئة الجديدة . . . . . . ويجب أن لاننسى لقبائل الفونج التي كانت تسكن جنوب أرض الجزيرة وما عرف عنها حب القتال وكأى مجموعات بدائية كانت الحرب رغم بدائيتها الحروب منها أمر عادى . فالتمرد على الحرب والقتال أمر تفرضه طبيعة البيئة والحياة . . .

وإذ كان تاريخ السودان فى العصور الوسطى يبتدىء بأهم حدث تاريخى وهو قيام السلطنة السنارية بين عبدالله جماع رئيس أكبر مجموعة فى الشمال وبين عمارة دنقس رئيس أكبر مجموعة فى حوض النيل الازرق . . .

ويجب علينا أن نسأل بعض الاسئلة لماذا اتحد هؤلاء الزعماء هل كانوا فى قوة متبادلة أرغمتهم أطماعهم على حفظ قوتهم وتوحيدها لبسط نفوذهم على كل المجموعات الاخرى التى كانت لاتخضع لهم . . . . .

أن هذا الاتحاد جاء بصداقات ومعاملات تجارية بين أغنى أفراد مجموعات السودان . وعبدالله جماع زعيم العبدلاب وعمارة دنقس زعيم الفونج الذين ظهروا كمجموعات قوية فى منطقة النيل الأزرق وحدود الحبشة فقد أنهيت مملكة علوة المسيحية وضعفت بواسطة قبائل الملك وأصبح حكمها وسلطتها وقت البلاد للسلطان وابنائه الذين يجب أن تدين له كل هذه المجموعات كما أن دقة أنبت السلطة بها وتغلب الحرب عليها بعد الحروب التأديبية المديدة

التى كان يقود فيها ملوك مصر لردع تمرد ملك دنقلة والنوبة المسيحية وذلك فى عهد الملك بيبرس . وتدخل سلطات مصر فى شئون مملكة دنقلة وطرق التجارة رغم أستمرار مسيحية هذه المنطقة إلا أن الظروف الاقتصادية لدولة المماليك كانت تفرض عليهم الاستمرار فى أخضاع شمال السودان لدفع الجزية والضرائب فى حين أستطاعتهم أن يفرضوا سلطانهم على هذا الاقليم وتعيين حاكم مسلم عليه ..

أن الجزية السنوية والضرائب التى كانت تصل إلى السلطان كانت قوى من حوافز المماليك الاسلامية ... فلو فرضوا الاسلام على شمال السودان لقلة الجزية وانعدمت ولذلك حافظوا على نصرانية هذا الجزء أكبر قدر ممكن ليستفيدوا من جزية المسيحية التى كانوا يتقاضونها .

كانت السلطنة السنارية هى بداية جديدة لحياة السودان الاسلامى وكانت أملا لتوحيد تلك القبائل والنهوض بالسودان والاسلام إلا أن الظـــروف العالميه كانت لا تسمح لهذه الدولة أو اخبرها بشيء أكثر من قيام هذه الدولة وأنحصارها فى منطقتها وعملها على أستمرار التجارة فى المقام الاول .

فاذا كانت تستطيع أن تقفل السلطنة السنارية ١٥٠٤ م تاريخ أنشائها ومساطيل المملكة العثمانية وتمديد الشلك إلى كل البلدان حتى مست مصر عام ١٥١٧ م وبذلك سكنت حركة الحياة فى البلاد العربية الاسلاميـة حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .. كان تدخل السلطنة العثمانية فى البلاد الاسلامية وشل حركتها من الاسباب الرئيسية لركود مملكة سنار وخاصة الحياة الثقافية عامه



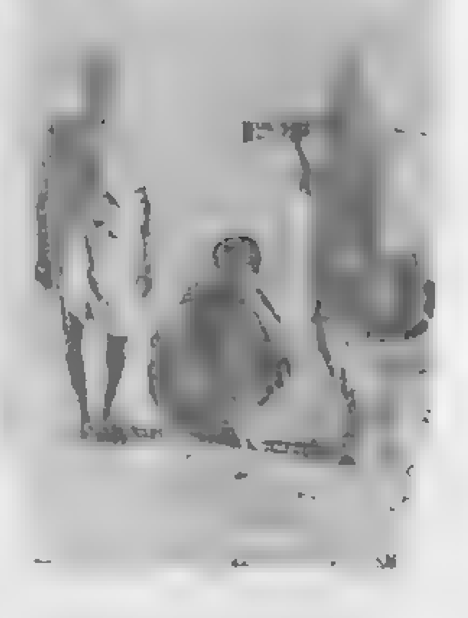
الصورة [illegible]

[illegible]

الأدوات [illegible]

استطاعت أن تخلق أدوات لرحى الذرة

• • •



الصورة السفلى

العرب بعد أن استوطنوا السودان وخلقوا لهم حياة جديدة حسب ظروف السودان وأمكانياته.

صورة لعرب صحراء بويضة .



أحد قرى الشلك حيث استفاد من خيرات الطبيعة في بناء مساكنه بدلا من الأحجار والطين . ليناسب مناخ منطقته .



منظر الدرب خصيبي بعد ان مرت به ترعة ضخمة حديثة فيعيش به
متعددون من حدود حيوانات وأشجار الصحراء حولهم.



رغم انتصار الاستعمار على الصوفية إلا أنه لم يستطع أن يفرق وحدة الصوفيين
الصورة تبين محل دار ودر عزة مدينة أم درمان عام ١٩٠٤

فى البلاد الإسلامية وشمل حركة تقدم العلوم الاسلامية التى كانت تتمركز فى بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وسنعود إلى ذلك حين مناقشة الحياة الثقافية فى عصر السلطنة السنارية ..

والان رغم أختلاف كل المؤرخين فى تحديد زمن تحالف العبدلاب والفونج بين بروس وكايو وكانت انونة وتريمنجهام وشقير ومخطوطة واضيف الله إلا أننا سنعتمد على ماجاء فى مخطوطة ودضيف الله وشروحها .

فقد جاء فى المخطوطة تأكيد هذا الاختلاف وهو أن بعض الروايات تروى بداية ملكهم عام ٨٩٠ هـ وأخرى تروى ٩١٠ هـ وهذا الاختلاف يشير إلى إلى أن حكومة الفونج قد قامت قبل عشرون عاما قبل أن تتحد مع العبدلاب وعليه يمكن أن نعتبر أن عام ٨٩٠ هـ بداية تكوين سلطة الفونج التى كانت تقوى الأمر الذى يؤكد أسبقيتها لمرحلة عن العبدلاب للعشرين عاما وهو الاتحاد فى عام ٩١٠ هـ ١٥٠٤ م

....

عمارة دونقس : (٩١٠ - ٩٤٢)

زعيم الجماعات التي سكنت حوض النيل الأزرق والتي شاركت العبدلاب جزء من أرض الجزيرة وامتدت نفوذها على النيل الأزرق وروافده وشماله . نرجح أنه استلم زعامة هذه المجموعات عام ٨٩٠ هـ تغلب مجموعة التي عرفت فيما بعد باسم الفونج أو الفنج كان عمره عصر الزعامات القبيلة والقدرة التي تشكل فيها شكل المجتمع بشكله الجديد بعد سقوط الدويلات القديمة بحسب رئاسته لهذه القبائل كان أغنى مجموعته وكان من المهتمين بالتجارة والقوافل التجارية الأمر الذي مهد له ولعبدالله جماع لا كفء . والتمكن من إخضاع المجموعات الأخرى وتكوين الحلف السناري.

ثم في عام ٩١٠ هـ كتابة وثيقة الحلف بين عبدالله جماع وبين عمارة دونقس الذي بنى مدينة سنار .

وقبل قيام مدينة سنار وانتقال المدنية والحضارة إليها ظهرت مدينة قبلها وهى مدينة أربجي على الشاطىء الشمالي للنيل الأزرق خططها الشيخ حجازي بن معين . .

وحتى ذلك الحين لم تكن تعرف تلك المنطقة شيئا من مظاهر المدنية والعلوم فقد جاء أن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها بدون عدة . . وهذا كان يحدث بين الأعراب الذين ابتعدوا عن الإسلام وتعاليمه وخالطوا نساء

السودان بعاداتهم الفرعونية القديمة التي لم يستطيعوا حتى الآن الخلاص منها ... ويجب علينا أن نقف عند هذه النقطة حتى نستطيع أن نتطلع ونتابع حركة التطور التي أحدثتها السلطنة السنارية . سلطنة تجارية قامت من أجل المحافظة على تجارة القوافل التي تهم زعيم الفونج وزعيم العبدلاب ، بين قبائل رعوية متنقلة شرسة . فولي عبد الله جماع إخضاع قبائل الجمليين والمحاذيب والميرفاب والرباطاب والمناصير والشايقية والدناقلة وتولى عمارة دنقس إخضاع القبائل التي تغطي شرق النيل الأزرق ووديانه و عضرف والبطانة .

فقد كانت تلك المجموعات صغيرة متنافرة قليلة الإمكانيات إذا رأينا أغنى منطقة وهي منطقة نهر النيل الأزرق اقتسمتها قبيلة العبدلاب حتى حدود أرض الجمليين شمال قري عاصمة العبدلاب ثم الجزء الشرقي من النيل الأزرق بأرضيه الخصبة ومراعيه الأمر الذي يسهل لأي مجموعة تقطن هذه المنطقة أن تعيش في رغد ويسر إن كان من ناحية المحصولات الزراعية أو المرعى للماشية التي كانت عماد حياتها .

هكذا بدأ الحلف " سناري لخلق مجتمع مستقر وبدأ المدن تخلق إدارة جديدة بين أفراد لم يتعودوا مثل هذه المسئولية ويجب أن نقف عند هذه النقطة بعض الشيء إن أردنا أن نتابع التطور الحضاري لهذه المجموعات الرعوية التي لم تعرف الإدارة والنظام وما تطلبه هذه الدولة من مؤهلات وكوادر لإدارة شئون الدولة الجديدة التي قسمها عمارة دونقس ، احتفظ بالرئاسة لنفسه ولعائلته وأعطى عبد الله جماع وأسرته أمارة القسم الشمالي من المملكة ..

وقد ساعد التركيب الاجتماعي القبلي ونظام إدارتهما للمملكة على الاستمرار

في أداره هذه المملكة الشاسعة .. فقد كانت القبائل منظمة بطبيعتها إدارياً. فالزعيم قبيلة هو الغالب أغنى بمجموعته إن كان يحصل ضرائب مباشرة منهم أو غير مباشرة في شكل غرامات وخلافه .

هذا النظام الإداري القبلي الذي كان يدير المجموعات كفل للدولة الجديدة مشقة البحث عن كوادر جديدة لقيام النظام والادارة فتولى كل زعيم ادارة مجموعته مع خضوعه لسلطان سنار أو خليفته من العبدلاب بقري مع استقلاله الداخلي في إدارة شئون اقليمه.

طور زعامات دينية جديدة دفع لاتحاد رجال المال .

رغم الاختلاف بين كل المصادر التاريخية ولو اثرالقديمة بداية هذا الحدث إلا أن هناك حقيقة اثبتتها المراجع أنه حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي لم يستقر الاسلام والثقافة العربية في السودان وكان نهاية القرن الخامس عشر هو بداية ظهور شخصيات دينية .

وقبل التعرض لهذه الشخصيات الجديدة التي أثرت في الفكر السوداني ووالولا لأفراد التي غرست قواعد مجتمع الجديد منذ القرن الثالث والرابع الهجري منها مدرسة حسن البصري وإبراهيم بن ادهم ومدرسة رابعة العدوية تلك الشخصيات الوافدة إلى السودان بتقييم جديد للانسان ومقدراته وملكاته بذرت بذور الصوفية والكرامات والخوارق وأوجد نوع من الشخصية الجديدة التي بدأت تزاحم الشخصيات القديمة التي تولت زعامة المجتمعات والرجال .

كانت الزعامة قبل ظهور هذه الشخصيات الجديدة للافراد الاقوياء أصحاب الامكانيات وأبناء القبيلة الكبيرة وأصحاب النسب والحسب فظهرت هذه الشخصيات لتخلق نوعاً جديداً من الافراد المميزين ليسوا أغنياء ولا من رجال كبار القبائل او من الفرسان الذين يهزمون العشرات أو من الكرماء .

طرحت هذه الشخصيات الوافدة مفهوماً جديداً للرجل الكامل حسب وجهة نظرهم الى قبيلة المجتمع . الانسان العابد المنقطع للعبادة و الانسان الذي يأتى بالخوارق . الانسان الذي يستطيع أن يكشف الغيب وأن يشفى وأن يؤذى وله من الامكانيات غير الطبيعية ما يذهل العقل الانسانى عن مصدر هذه القوة وهذه الامكانيات .

أن القرن السادس عشر بالنسبة للسودان هو بداية تحول كبير فى ... كبير والسلوك والقيم وفى إرساء تعاليم والثقافة العربية التى لم تنشأ حتى ذلك الوقت أما بالنسبة للعالم الاسلامى فكان ايذاناً بتحول كبير بعد أن أمتدت يد الدولة العثمانية إلى البلاد العربية وبعد أن ظهرت الخلافات المذهبية بين المسلمين الأمر الذى قاد لظهور مذهب جديد هو مذهب الصوفية الذين رأوا الاخير فى هذا العالم وتأثروا على بعدوا بسلوك الرهبان فى العبادة . فانقطع نفر من الصوفيين الأوائل للعبادة وعدم التفكير فى أمور الدنيا بل فتح قلبه لعبادة ربه ورسوله ودام فى حب خالقه ورسوله درجة اعمته عن كل مسئوليات الحياة ومشاكلها واتجه بصره وعقله وبصيرته للعالم الآخر وفعل مايشبه مافعله الرهبان المسيحيين فى إنقطاعهم للعبادة وتركهم ملذات الحياة ومسئولياتها .

وكانت هنالك منطقتين ظهر فيهما هذا الاتجاه الجديد فى العبادة بغداد حيث

نكب الاسلام بضياع وحدة دولته وإعراض الخلفاء المسلمين عن العالم الاسلامية في المغرب حيث امتد المذهب الشيعي الذي اخذ أصحابه في سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائهم وتفانيهم لمقدح النظر بخالقهم مثلا أعلى لهم اقتدى الشيعة بذلك المسلك السامي للرسول في العبادة ونسوا أن الرسول لم ينس مسئوليات الحياة ولم يطلب من الناس أن يجعلوا العبادة تلهيهم عن مسئوليات الحياة وكسب العيش .

وأول ماجاء للسودان حاملا هذه البذرة هو الشيخ تاج الدين البهاري البغدادي وننقل هنا تعريفه حسب ماجاء بمخطوط ودضيف الله (هو تاج الدين البهاري البغدادي أسمه محمد والبهاري نعته مأخوذ من قولهم قمر باهر أى مضيء أسمى بذلك اضياء وجهه وريحانة من أخياره هو والشيخ الامام القطب الرباني والغوث الصمداني خليفة الشيخ عبد القادر الجيلاني مولده ببغداد حج إلى بيت الله الحرام وقدم بلاد السودان باذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم والشيخ عبد القادر الجيلاني قدم مع داود بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدي (١) وقدومه أول النصف الثاني .

....

(١) العيدى بلدة بالشاطىء الأيمن للنيل الأزرق شرق مدينة كاملين

تطور الثقافه العربية فى عهد السلطنه السناريه:

أتاحت الظروف العالمية لسلطنة سنار أن تتقدم وتحتضن الثقافة العربية كما خلفت من حولها مناخاً جافاً من النهضة والتقدم .

قامت السلطنة السنارية والأمبراطورية الاسلامية قد تقسمت إلى . . دويلات صغيرة أهلكها الخلافات والحروبات حتى أصبحت لها بدالاخطبوط العثمانى لتشل حركة تقدمها وبذلك فرضت حياة راكدة فى البلدان العربية المحيطة بالسودان والتى تشاركه فى الاسلام كما أتاحت للسودان الفرص أن يتبنى النهضة العلمية التى كانت سائدة فى البلدان العربية وتقديم كافة المساعدات والامكانيات المادية التى كانت تغرى العلماء بالنزوح للعراصم ومجاورة المـــلوك . .

وقد كان تخلف السودان الثقافى والاسلامى عن البلدان العربية لايتيح له الفرصة لمثل هذا الدور الخطير ... فلو كان السودان متقدما مثل بقية الدول الاسلامية لاحتضن علماء الدول الاسلاميه وتبنى تطور الثقافةالعربيةوالاسلامية ولكن ظروف تطور السودان الاسلامى والعربى لم تواكب تطور بقية البلاد الاسلامية والعربية . . . .

وفى القرن الذى بدأت فيه الحضارة الاسلامية فى البلاد العربية فى الذبول والضياع ظهرت دولة السودان العربية الأسلامية فقيرة من كل الامكانيات بعيدة كل البعد عن تطور الحياة فى البلاد العربية ولذا لم يستطيع أن يستفيد

السودان من خيرات المفكرين العرب باتاحة الظروف الملائمة للعمل العلمى على الوجه المطلوب . . .

ورغم ذلك كان السودان منفذا هاماً لبعض العابرين والمترددين والحالمين من العلماء والخاصين أيضا .

قامت السلطنة السنارية وحامت المملكة الاسلامية الأولى فى السودان . . فكل زعيم من المجموعتين الذين خلقوا التحالف السنارى عبد الله جماع وعمارة دونقس مسلم يحتفظ بشجرة نسب عربية مما اتاح هذا النسب الانتعاش تطور الفكرة الاسلامية والثقافة العربية . وقد كان هنالك وسيلتين لهذا الانتعاش مواسم الحج وانتشار الفكرة بين الناس وحماية الدولة لقوافل الحجاج واشتراك أمراء سنار والعبدلاب فى حفظ سلامة قوافل الحجاج ، دفع الكثير لزيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم واداء الفريضة . . . وعن طريق الحج كانت تتفتح مدارك الحجاج لمفهوم الاسلام . . وقد لعبت هذه المواسم دوراً كبيراً فى دعوة بعض العلماء لزيارة السودان وتقديم المساعدات العلمية ونشر المعالم الاسلامية وقد كان تاج الدين البهارى (البغدادى) أول من لبى هذه الدعوة وأول من اشتهر من العلماء الذين أتوا من الحج مباشرة مع قوافل الحج السودانية .

وإذا أردنا أن نؤرخ للثقافة العربية والاسلامية بالمفهوم العلمى الحديث وبما كان سائداً فى البلاد الاسلامية فسنؤرخ له بدخول تاج الدين البهارى أوائل القرن السادس عشر أما قبل ذلك فلم يعرف السودان من الثقافة العربية والاسلامية إلا الشىء اليسير من الذين سبقوا تاج الدين باعوام بسيطة فى أدخال

القراءة العربية والتعليم الاسلامية ونشر القرآن والصوفية حسب ما جاء البنا في المخطوطات

وقد كان تعطش الناس للتعاليم الاسلامية وتعلم القراءة وحفظ القرآن من العوامل التي ساعدت لنشر هذه الثقافة العربية والاسلامية في وقت وجيز في السودان على يد تاج الدين البهاري وراجل القصير وأولاد جابر .

وقد سبق تاج الدين البهاري بعض العلماء المصريين والمغاربة إلى السودان بزمن يسير إلا إن تلاميذ تاج الدين البهاري هم الذين قامت عليهم النهضة الثقافية والصوفية في مملكة سنار وقد سبق تاج الدين البهاري الشيخ إبراهيم البولادي ابن جابر إلى دار الشايقية حيث درس فيها طويلا وارسله بعد أن زار مصر وتعلم في الأزهر ثم ذهب إلى سنار كبقية علماء ذلك العصر لمجاورة الملوك والعواصم الاسلامية حيث جعل له مدرسة كرواقة الأزهر الشريف يدرس فيها ويلقى فيها محاضراته في شتى العلوم الاسلامية .

وقد قامت على يد أولاد جابر بأرض الشايقية منذ القرن السادس عشر أول مدرسة لتدريس القرآن وعلومه بالسودان ، وقد سبقت أرض الشايقية بقية الأقاليم السودانية في هذه المعرفة ولذلك لقرب أرض الشايقية من طريق القوافل التجارية الذاهبة إلى مصر والأزهر . . رغم أن الأزهر في عصر الحكم العثماني لم يكن كما كان في عهد الفاطميين والمماليك إلا أن المسلمين بسماحة دينهم كانت تفرض عليهم أطعام طلاب العلم وتوفير سبل الحياة . .

وقد أهتم بعض الميسورين ببيوت الله ورعايتها من أموالهم الخاصة الأمر

الذى حفظ للأزهر مواصلة رسالته رغم كل الظروف العصيبة ووقف الاعانة الملكية عنه .

وقد خصصنا فصلا بتاريخ الأزهر والجوامع التى سبقته فى مصر لنعطى صوره عن حياه العلم فى عهد الدولة الاموية والعباسية والفاطمية والمماليك وأمكانيه إستفادة السودان من دراسته التى يأتى فى المرتبة الأولى ضمان العيش للطالب فيه وقد ساعد الحج عن طريق مصر فى سفر كثير من طلاب العلم إلى مصر ليقيموا بالأزهر حتى قيام قوافل الحج ثم بقاءهم بمكة لمجاورة المصطفى عليه السلام ثم العودة عن طريق مصر وعلى سبيل المثال العلامة الكبير عمار بن عبد الحفيظ الخطيب من أهالى سنار حيث درس جميع العلوم الفقهية والنقلية والعقلية وعلم النحو الأصول والمنطق والتصوف وكان ذلك فى عام ١٠٧٧ هـ ...

وقد مدحه تلميذه الفقيه على ولد الشافعى بقصيدة قال فيها :

ياطالبين لكل فن تبتغوا	شدوا الرحال ويمموا سنارا
قد حل بهـــا أمام فاضل	زين المحافل عالى المقدار
ورع تقى صابر متواضع	وجل عليه سكينة ووقار
له العلوم تأهلت طوع المنا	من غير إشكال ولا إعسار
فى كل فن تطلبون تورونه	يبدى المزيد كزاخر الأبحار
فقه وتفسير الحديث ومنطق	وبديع علم والمعانى يدار
فقه ونحو والبيان وصرفه	علم الكلام به جلا لغبار
علم التصوف طال فيه يافتى	وقتا به للسادة الأبرار
وكأن مجلسه المسمى أزهر	على المدارس فى كلا الامصار

وهذه القصيدة تكشف لنا علم العلامة عمارة بن عبد الحفيظ الخطيب ولاشك أنه قد كان خير علماء سنار كما تكشف لنا عن حالة الشعر العربى فى القرن السابع عشر الميلادى .

وقد كان يتكسب كثيره من هداية الطلبة والأصدقاء وزعماء القبائل المحبين لرجل الدين والعلم . اما ملوك سنار فلم نسمع عنهم أنهم تبنوا هؤلاء العلماء كما كان سائرا فى بغداد وحلب والقاهرة والاندلس وان كانت هنالك بعض الهبات والهدايا فقد كانت لظروف خاصة ولكنهم كسياسة عامة لم يسلكوا سلوك رؤساء الحكومات الاسلامية فى البلدان العربية . . .

اما الشيخ تاج الدين البهارى الذى حضر فى بداية القرن السادس عشر الميلادى لم يسكن سنار بل أقام فى الجزيرة فى ضيافة داود عبد الجليل الذى دعاه لزيارة السودان وتعليم أهلها تعاليم الاسلام بعد أن قابله فى أرض مكة وتزوج من أهالى العك بالهلالية وتخرج على يده علماء من علماء السودانيين الاوائل ورجال الصوفية منهم الشيخ محمد الهميم الذى جعله الشيخ تاج الدين البهارى خليفته بعده وطلب من الناس مبايعته . ومن أخباره وتسميته بالهميم . . ان زوجة شيخه طلبت منه دوكة كسرة فطلب من محمد أن يحضر لها دوكة فذهب واحضر الدوكة على رأسه وعند حضوره وجد شيخه قد غادر اربجى إلى سنار فلحق به فى سنار والدوكة على رأسه وعندما وصل سنار سأل عنه فعرف أنه وصل إلى قريته فلحقه فى القرية وهو مازال حاملا الدوكة على رأسه وعندما علم شيخه بقصته قال له هذه همة تصلح بهـا دين الله عز وجل فوقع مغشيا عليه . . .

ثم تتلمذ على يد الشيخ تاج الدين البهارى بانقا الضرير وهو من رجال الصوفية الصالحين . . .

وكذلك حجارى بن معين بانى أربجى ومسجدها وشاع الدين ولد التويم جد الشكرية والشيخ عجيب الكبير . .

كما سلك أربعين رجلا منهم الفقية حمد العجيمى صاحب مسجد اسلانج والفقية رحمه جد الجلاويين ختتم أتنان ود عبد الصادق وبان النقا كما سافر إلى تقلى وسلك فيها عبد الله الحمال جد الشيخ محمـــد ولد الترابى مع جماعته . . . وقد حمل هؤلاء من بعده رسالة الصوفيه وبناء المساجد واشعال نار القرآن والدراسات . .

وإذا أردنا أن نحصر مراكز التعليم فى السودان فى عصر سلطنة سنار فسنجدها حيث طاب المقام لرجال العلم والصوفية . . فقد جذبت أرض دفاعه وأربجى والجزيرة الكثير من العلماء ورجال الصوفية لكرم رجالها وحسن ضيافتهم وكرمهم ثم مدينة سنار والحلفاية وسندى وبربر وأرض الشايقية وخاصة نورى وتقلس وتوتى . . .

بعد نجاح الحلف السنارى ومع بداية القرن السادس عشر واستتباب الامن واستمرار التداول التجارية مع مصر والحجاز انتعشت الحركة التجارية وكثر عدد المسافرين والمرافقين لها وكثر عدد العرب المهاجرين للسودان طلبا للرزق والثروة وكثر عدد طلاب العلم فى أروقة الأزهر والمجاورين بمكة وتزودوا بالعلم والعلوم الاسلامية . . . . وانتشر خبر قيام السلطنة السنارية بواسطة

القوافل التجارية فى مصر والحجاز وانفتح الباب للهاربين من ظلم مجتمعاتهم وشظف العيش بأوطانهم للقدوم إلى السودان كما انتهز الحجاج السودانيين الفرصة لدعوة رجال العلم الصالحين للحضور إلى السودان لتعليم أهله تعاليم الاسلام والقراءة والكتابة وحفظ القرآن .

وبنهاية القرن السادس عشر كانت العلوم الاسلامية والثقافة العربية قد انتشرت فى ربوع السودان والمدن التجارية وبحلول القرن السابع عشر الميلادى كانت الصوفية قد تركزت فى القرى والمدن وشغلت الناس وما صاحب رجالها من كرامات وورع وصلاح جذب إليها الناس دون رجال العلم حتى بات مركز رجال الصوفية أعلى من رجال العلم والدين .

وإذا حاولنا أن نتتبع النشاط العلمى والدينى خلال القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر فسنجد دراسة القرآن وحفظه كانت تحتل المركز الأول وكان حفظ القرآن مل لماية من طلاب العلم ١٠١ مراد ء ذلك من علوم وكانت تمليه ظروف الطالب والشيخ . فالشيوخ الذين قاموا بتدريس القرآن والخليل والسيرة واللغة العربية كانوا يقومون بتدريس هذه العلوم فلم يختص شيخ أو عالم بتدريس مادة منفردة بل اضطر بعضهم على تدريس القرآن وعلوم الدين وزاد البعض تدريس اللغة العربية من فقه ونحو وعروض ...... الخ ...

وقد كانت لكل شيخ خلوة (الكتاتيب) الخاصة به يحضر إليه التلاميذ من القرى المجاورة والأماكن البعيدة حسب سمعته وتراثه وبركته وصلاحه

واستعداده لقبول الطلاب وضيافته لهم وكل ما كان استعداد الشيخ لتعليم الطلاب دون ارهاقهم بالالتزامات المادية كلما كثر طلابه . . . وقد اختلف علماء السودان عن بقية علماء البلاد العربية الأمر الذى جعل نشاطهم لايصل إلى تلك النهضة العربية . . فقد كان علماء الدين واللغة يجتمعون جميعا فى الجوامع الكبيرة كل له زاويته يدرس علمه المتخصص فيه . فأحدهم يدرس التفسير وآخر السيرة وآخر علوم اللغة العربية وكانت حلقاتهم يشهدها كبار العلماء والأدباء الأمر الذى رفع من مستوى تلك الندوات والمناظرات التى كانت تجرى فى جامع بغداد أو الفسطاط والأزهر أو حلب حتى خلقت تلك النهضة الفكرية الاسلامية العربية لاتساع صدرها لهذا التنافس والتخصص واشتراك العلماء مع بعضهم فى المناقشات واجتماعهم تحت سقف واحد مما أتاح أيضا للطالب أن يتلقى العلم على يد أكثر من معلم رغم استعداد البعض للتدريس فى كافة العلوم

ازدهر تدريس القرآن وعلوم اللغة العربية وآداب الصوفية وقد دخل الشعر الصوفى قبل غيره من آداب العرب وذلك لانجذاب الناس نحو رجال الصوفية . .

ومن رجال الصوفية الكبار محمد ابراهيم الهميم ، ولم يكن عالماً إذ اضطر القاضى دشين (قاضى العدالة) أن يفسخ زواجه لأنه تزوج أكثر من أربعة وجمع بين الاخوات ثم الشيخ خوجلى بن عبد الرحمن أبو الجاز وكان أكثر رجال الصوفية صلاحاً وظهرت له كرامات كثيرة ودانت له الملوك وعامة الناس ومن سبقه فى درجة الصلاح والصوفية الشيخ ادريس بن محمد الارباب المولود عام (٩١٣ هـ — ١٥٠٨ م) والمتوفى عام (١٠٦٠ هـ ١٦٥٠ م) وعاش مائة وسبعة وأربعون عاماً مدفوناً بالقرب من الحلفاية وكذلك بدقا الضرير أحد

الذين سلكهم الشيخ تاج الدين البهارى الذى ولاة تربية أبناه حين توفى وأعطاه أسرار الصوفية . . . . ومن رجال الصوفيـــة الذين علت سمعتهم وظهرت كراماتهم ، الشيخ دفع الله بن الشيخ محمد ابو إدريس . تبناه الشيخ ادريس بن الأرباب حفظ القرآن واشتغل بالفقه ثم قرأ مختصر الخليل على الشيخ إبراهيم الفرضى . . .

وإذا أردنا أن نحصر مراكز التجمع الثقافى والعلمى فى السودان داخل أراضى السلطنة السنارية ، فسنجد على النيل الأزرق حوالى ثلاثة أو أربعـــة مناطق تجمع على طول النيل الأزرق أحد هذه المناطق خاضع لنفوذ العبدلاب والثلاثة تحت نفوذ السلطنة السناريه ، وأول هذه المناطق هى التى كونها الشيخ محمود راجل القصير العركى فى نهاية النصف الأول من القرن السادس عشر ، على النيل الأبيض فى أرض الحسانيه ، بحلة الحوى . وسنذكر تاريخه فى حديثنا عن تاريخ كل منطقه . وهذه المنطقة قريبة من منطقة نفوذ قرى عاصمة العبدلاب اما المنطقه الثانيه فهى المنطقة الذى عمرها الشيخ تاج الدين البهارى حين جاء إلى السودان مع داود بن عبد الجليل أبو الحاج سعيد جد ناس العيدى فى ولاية الشيخ عجيب وسكن مع داود فى وادى شعير فى أول الامر إلا إنه تنقل لنشر علمه فى ربوع السودان ، ووادى شعير ، حلة قرب الحصاحيصا فى أرض الجزيرة والمنطقة الثالثة هى منطقة أربجى مدينه شيخ حجازى بن معين الذى خططها وكان غنيا وتتلمذ على الشيخ تاج الدين البهارى وأربجى فى منطقة رفاعة بالقرب منها جهة الشرق والرابعة هى مدينة سنار عاصمة الفونج فقـــد تتلمذ علماءها على الشيخ القصير وتاج الدين البهارى وتوسعت فيها حلقات العلم ومن علماءها الكبار العالم عمار بن عبد الحفيظ الخطيب هذا فيما يخص منطقة النيل الأزرق ....

وكذلك توسع نشاط الأفراد شمال النيل الأزرق وتعمرت الحلقاية قرب قرى وشندى وبربر بلاد الشايقية واسناقلة وتوتى واستقر فى كل منطقة من هذه المناطق العلماء والشيوخ من الصوفية الذى ملأت أخبارهم البلاد وصار الوصول إليهم منية كل فرد .

بدأت حركة البعث هذه بعد قيام السلطنة السنارية فى النصف الأول من القرن السادس عشر ، وبداية النصف الثانى من القرن السادس عشر ، بعد أن استتب الامن للسلطنة السنارية . وشيوخ قرى من العبدلاب . بعد أن استتب الامن ، واستقرت الاحوال لهذه السلطنة الجديدة ، بدأ الناس يطالبون بالتوسع فى تعاليم دينهم مكلمات السلطنة للناس الامان باشتراكها فى القوافل التجارية لمصر واطمأن الناس على حياتهم من خطر قطاع الطرق . ... وتولدت فى الناس الحاجة للالم بتعاليم دينهم ، فا وصلوا إليه من جهل به . وقامت قوافل الحج عن طريق القوافل لتجريد الذهب إلى مصر ثم تستقر فى مصر وتذهب مع القوافل المصرية إلى الحجاز وتؤدى الفريضة .

وقد كان لبداية هذه الحركة التجارية أثرها الكبير فى تشجيع طلاب العلم ولحضور الكثيرين من العلماء العرب لسودان وأول من عادت هذه البعثات وأخذت نسطا من العلم بلازهر والحجاز هو الشيخ محمود راجل القصير العركى الذى أسس مدرسته جنوب الخرطوم .

<u>منطقة التعليم الاولى أرض الجزيرة :</u>

نستطيع أن نؤرخ لبداية الحركة العلمية والثقافية العربية والاسلام حسب ؟

ما جاء فى المخطوطات والمراجع وأفضلها مخطوطة ضيف الله إن الحياة العلمية بدأها الشيخ محمود العركى راجل القصير ، الذى ولد بالنيل الابيض وسافر إلى مصر طالبا العلم والمعرفة وكان ذلك فى نهاية النصف الاول للقرن السادس عشر الميلادى.

وذهب الشيخ محمود العركى إلى مصر وهى مازالت تحتفظ بشعاع المعرفة السابقة ولم تمتد لها يد الاتراك لتوقف تطور العلم والمعرفة وتقاطع الاعانات والرعاية التى كانت تتلقاها الجامع الأزهر وجامع الفسطاط والجوامع الاخرى التى كانت بمثابة الجامعة الاسلامية وتمثل منهج التعليم والبحث والفكر فى ذلك العصر خلال حكم الفاطميين والمماليك البحرية والمماليك الشراكسة فى القرن العاشر الميلادى إلى بداية القرن السادس عشر الميلادى حيث بدأ الحكم التركى لمصر من عام (١٥١٧م ١٧٩٨م)

استفاد طلبة السودان من الازهر رغم ظروف النكبت التى عاشتها مصر خلال الحكم التركى وتدهور حال التدريس واختفاء بعض العلوم العقلية من الازهر كالرياضيات والفلسفة .

وانحصرت الدراسات فقط فى علوم اللغة العربية والتوحيد والفقه والتفسير ويعزى استمرار هذا النشاط إلى مجموعة من المفكرين والعلماء العرب وإصرارهم على مواصلة الرسالة على جهودهم الخاص وقد كان لسمعتهم الادبية والعلمية أثر كبير فى رحلة الطلاب والعلماء إليهم من جميع البلدان العربية والافريقية والتركية ، ومن هؤلاء العلماء الذين عاصروا السلطنة الزرقاء السنارية أى فى بداية القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر ، وتتلمذ عليهم معظم علماء السودان

واستفادوا من مؤلفاتهم وأخبارهم العلمية ، حيث كانت الدراسة تدور فى أروقة الأزهر على قرار الدراسة فى أكاديمية أفلاطون وجماعته ، إذا كانت الدروس عبارة عن مناظرة يشترك فيها الاساتذة والطلاب وقد خصص لكل أستاذ مكان معين يلقى فيه دروسه فى شتى العلوم كالبيان والنحو والتفسير والفقه وقد كانت هذه الحلقات الحرة ونظام التدريب فيها فتح أذهان الطلاب لعالم رحب من التفكير مما ساعد على التأليف والكتابة رغم قلة العلوم العقلية التى كانت تدرس .

ومن الاساتذة الذين حافظوا على رسالة الأزهر العلمية رغم قلة الامكانيات المادية وخوف الدولة التركية من نشاط الازهر ومحاولتها للتقليل من نشاط دون الاستحكام بهحتى نجحت فى كسب بعض شيوخه وجعلته تابعاً للامبراطورية التركيه ، وشارك فى التدريس ب نور الدين على البحيرى المتوفى عام (٩٤٤ هـ ١٥٣٦ م) والعلامة شهاب الدين ابن .. عبد الحق السنباطى المتوفى (عام ٩٥٠ هـ ١٥٤٠ م) وعبد الرحمن المناوى المتوفى (عام ٩٥٠ هـ) وشمس الدين الطاهر الشافعى والامام شمس الدين ابو عبد الله العلقمى المتوفى عام (٩١٣ هـ ١٥٦٣ م) والامام الصفوى المقدسى الشافعى المتوفى حوالى عام ١٥٨١ م

وقد ضم القرن السابع عشر الميلادى العديد من العلماء بالازهر وحج اليه الكثير من العلماء من المغرب وشمال الجزيرة العربية ومن علماء القرن السابع عشر الميلادى كشمس الدين العنانى وعبد الباقى بن يوسف الزرقانى المالكى والعلامة شاهين بن منصور عامر الارمنارى المتوفى عام ١٦٩٠ م ، وكان يلقى

محاضراته بالازهر فى شتى العلوم والفنون والشيخ محمد الاخرس المالكى شيخ الجامع الازهر المتوفى عام ١٦٩٠ م) والشيخ حسن بن على بن محمد الجبرتى والد الجبرتى المؤرخ العربى الكبير وقد توفى عام ١٧٠٤ م وقد كان بارعا فى العلوم الهندسية وقد زار الأزهر هذا القرن العلامة شهاب الدين المقرى فى عام ١٦١٨ وأقام بمصر للتدريس بالازهر لاعوام طويلة حتى وفاته عام ١٦٢٣م وكذا زار الازهر العلامة الصوفى الشهير عبد الغنى النابلسى عام ١٦٩٤ م .

ويذكر الجبرتى أخبار علماء مصر ويورد لنا الكثير من اسمائهم وتخصصهم منهم العلامة اللغوى حسن البدرى الحجازى المتوفى حوالى عام ١٧١٨م والعلامة عبد الرؤوف بن عبد اللطيف البشبيشى المتوفى عام ١٧٣٠ م وكان استاذاً فى النحو والمعانى والشيخ أحمد بن عيسى العمارى المالكى من علماء الحديث وغـــيرهم ..

وفى الكتب التى كانت تدرس بالازهر فى القرن الثامن عشر الميلادى والتى بوضوحها يمكن لنا أدراك سير العلوم والمواضيع التى كانت تدرس والتى سيرت خطة المعرفة والفكر العربى خلال العصور المظلمة ومنها الاشمونى وابن عقيل والشيخ خالد وشروحه والازهريه وشروحها والشذور وكتب التوحيـــد كالجوهره والهدهدى وشروح السنوسيه الكبرى والصغرى وبعض كتب المنطق والاستعارات والمعانى والبيان بجانب كتب الحديث والتفسير وهى تدور جميعا فى علوم اللغة العربية والصوفية والحديث وعلوم الدين وقد أخفت منها العلوم الحديثة كالرياضيات والمنطق والفلسفة والفلك ، من هذا البعض الفكرى المحدود كان يتلقى طلبة العلم من السودانيين الوافدين على الازهر .

كان الازهر هو الجامعة الاسلامية والعربية خلال الفترة فى القرن الثانى عشر إلى الثامن عشر الميلادى وقد كان تقدمه فى العلوم ينعكس على سير العلوم فى بقية البلدان العربية وخاصة التى تقع فى أفريقيا حيث القاهرة ملتقى قوافل الحجيج السائرة إلى بيت الله وقد كان أى تدهور فى حالة الأزهر العلمية والإقتصادية لها أثرها المباشر على بقية البلدان حيث كان المعهد العظيم لكل طلاب المعرفة وعلماء البلدان الأخرى . . . وإذا أردنا أن نقيس مستوى المعرفة والعلوم فى عصر السلطنة السنارية يجب أن نقيسها بمستوى العلوم بالأزهر ومصر حيث كانت تزيد العطش لطلاب المعرفة فى السودان والذى نستطيع أن نقوله عن طلاب تلك الفترة وما تركوه من أثر على تقدم العلوم فى السودان هى نشر اللغة العربية وعلومها والحديث والتفسير وعلوم الصوفية ولكنهم لم يتركوا أثرا خارج حدود السودان فلم نسمع عن واحد منهم حاضر بالأزهر أو الحجاز ولم يتركوا فى المخطوطات والمؤلفات ما أثر فى تطور العلوم العربية والدينية خلال تلك الفترة رغم ما تخلفه بعضا من مخطوطات فى التوحيد والصوفية والتفسير حيث كانت الدراسة تختلف ظروفها عن ظروف الأزهر . والأزهر أنشأ ليقوم بمهمة الخدمة الإسلامية ويجد الرعاية من الدولة والعلماء ، أما فى السودان فى عصر الدولة السنارية فلم تنشأ مثل هذه الجامعة بل قام العلماء بعيداً عن سنار فى نواحى والجزيرة والحلفاية وشندى وبربر وأرض الشايقية وكردفان ثم الدامر حيث قام محمد المجذوب فى القرن الثامن عشر الميلادى وفى الخرطوم أقام الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية

نحن نبني قياسنا للعلوم فى تلك العصور على مفهومنا للعلوم فى العصر الحاضر حيث كثرت فروع المعرفة وتوسعت المعارف فى الفلسفة والكيمياء وعلوم النباتات والطبيعيات والهندسة والتقنيات لم تتوفر لعلماء تلك الحقبة

فنقيس مستوى هذا العصر فى التقدم فى ظل هذه العلوم ونقيس مستوى ذلك العصر فى ظل تلك العلوم . . وهى علوم الدين واللغة حيث خلى من العلوم العقلية كالهندسة والرياضيات والفلك والفلسفة والطب الأمر الذى جعل العلم فى السودان خلال الفترة من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر الميلادى لا يستطيع أن يقصر الظواهر الاجتماعية ويدرك التاريخ ويؤدى رسالته على خير وجه فى ازالة بقايا الوثنية الفرعونية والديانة المسيحية وهذا مانراه حتى اليوم فى عادات الأفراح كالزواج والختان فى أغانى السيرة وذهاب العريس إلى البحر والكثير من العادات خلال فترة الزوج أو العادات التى تسير خلال فترة الحداد على المتوفى . وكثير من التقاليد الاجتماعيه تبرز فيها هذه الرواسب القديمه فى أفريقيه وفرعونيه ومسيحيه وهى موجودة حتى الآن فى تقاليد الوضع والبناء والأفراح والاحزان .

أما التجمع العلمى الذى حدث فى السودان كما ذكرنا سابقا قام بعيداً عن العاصمه سنار رغم زيارة العلماء لها وأقامة بعضهم بها كالعلامه الكبير عمار بن الخطيب الذى اشتهر بالعلم والمعرفة وهو من أشهر علماء سنار ثم منطقة أربجى التى ساعد ثراء حجازى بن معين على نشر العلوم بها واقامة المساجد وهى قرب وفاته ثم منطقة الحسانية بالنيل الأبيض التى قامت بها سبعة عشر مدرسة ودمرتها قبائل الشلك التى كانت تقيم فى ذلك الوقت فى منطقة النيل الأبيض ثم منطقة قرى عاصمه العبدلاب وما جاورها كالحلفاية وجزيرة توتى وشندى

وبربر وهؤلاء لموقعها التجارى فى طرق القوافل التجارية الآتية من دار وعرب السودان ومن سواكن ومصر .

وكذلك منطقة الشايقية التى أحيا بها العلوم أولاد جابر وأرض .... الدناقلة التى استفادت من علم الشايقية ثم بعد ذلك الدامر حيث نشر الصوفية حمد المجذوب ومنطقة السروراب حيث نشر السمانية الشيخ أحمد الطيب فى القرن الثامن عشر الذى كان عصر المجاذيب والسمانية .

• • •

الحركة الثقافيه قبل وبعد السلطنة السناريه

إذا أردنا نتحدث عن حال الثقافة العربية والاسلامية قبل وبعد السلطنة السنارية أى حتى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى فسوف نجد الجواب فى مخطوطه ودصيف الله فى حديثه عن تاريخ أربجى وسنار إذ يقول خطت مدينه سنار عام (٩١٠ هـ) خطاها المسكى عمارة ونقش وقد خطت مدينة أربجى (على الشاطىء الابسر لنيل الأزرق) قبلها بثلاثين عاما أى عام ٨٨٠ هـ خطها حجازى بن معين ويقول ولم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأه ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عده حتى قدم الشيخ محمود العركى راجل القصير العركى فى مصر وعلم الناس العدة وسكن البحر الأبيض وبنى له قصرا يعرف الآن بقصر محمود .

هذا يؤكد ما سقناه أولا أن حياه الترحال والبداوة والبعد عن المدينة وعن مصادر الدعوة والثقافه فى الجزيرة العربية عن هؤلاء العرب المسلمين أفقدتهم الكثير من معالم دينهم إذ لم تتهيأ لهم حتى ذلك الحين الظروف ... المستقرة لتطوير معارفهم وطلب المزيد مما عندهم بل كانت حياة التنقل والجفاف والمشاكل الكثيره التى تعيش فيها القبيلة كفيله بمحو تلك التعاليم وتقليل تلك الروح الاسلامية التى إبتعدت عن أرض المسلمين ، وكانت كفيلة أيضا بمرور الأيام والسنين من ضياع كل ماحفظه الأوائل المهاجرون إلى السودان . إذ فقدوا أدوات التسجيل والكتابة وأبتعدوا عن مواطن المدينة والحضارة وعادوا بحياتهم إلى الخلف أكثر مما وصلوا إليه . وخلال الستة أو الخمسة قرون من بداية دخول العرب السودان إلى أراضى جديده وظروف غير مطمئنة قلت إهتمامهم بالتعاليم والأساليب الحضارية التى وجدوها حين خرجوا

من الجزيرة العربية فى العواصم امريسة الكبيرة وعلى المدن الكثيرة على النيل .

كانت هذه الخمسة قرون خلال التجول فى الصحارى والوديان وضفاف الانهار بحثاً عن مأوى أو مرعى كفيلة باذابة كثير من خصائص هؤلاء العرب الرحل ومحاولتهم المستمرة للتأقلم مع البيئة الجديدة ومحاولة التوفيق بين تعاليمهم وتقاليدهم وتعاليم وتقاليد الأرض الجديدة . وحتى وصلوا إلى درجة من الاهلاس والتهاون بالتعاليم الدينية التى ابتعدوا عن مراكز اشعاعها ان يطلقوا امرأة ويزوجوها فى نفس اليوم .

كانت هذه القرون الخمسة سنين تصفية لكل الأشياء الطبيعية التى أتى بها العرب وتركوها على ضفاف الوديان ورمل الصحارى وضفاف الانهار ومعارك القبائل والمجموعات الكبيرة . وما بقى معهم من التعاليم الاسلامية والثقافية العربية أصبح يسير وتبخر معظمه عندما جاء القرن السادس عشر كانوا أبعد الناس عن صورة المهاجرين الاوائل الذين لاقوا الكثير حتى استقروا وبفتحوا الطريق للمهاجرين القادمين خلفهم .

والشىء الذى احتفظوا به هو روح الاسلام والايمان بالله . ولم يتجاوزوا فى الايمان بالله والاشراك به رغم انهم كانوا فقراء فى تعاليمهم الدينية وما أستطاعوا أن يضيفوه للحياة السودانية خلال هذه الخمسة قرون هو الايمان بالله وبعض الفرائض الاسلامية ونشروا ذلك فى الأرض المسيحية والوثنية .

كانت الظروف الطبيعية هى التى حكمت على تعاليم العرب وحضارتهم بهذا

الانحدار فى بداية دخولهم إلى السودان فقد كانوا فى حياة معيشية أحسن بكثير من التى وجدوا أنفسهم فيها وكانوا وسط حضارة مدنية ووجدوا أنفسهم فى حياة شبه بدائية وعليهم أن يبدأوا من أول السلم ليبحثوا عن مأوى والتفكير فى أساليب العيش فى هذه الأراضى الجديدة وتعلم أسرارها وقوانينها . فقد كانوا فى حياة شبه مدنية وعادوا متخلفين فى أول سلم الحياة البدوية والفارق كبير بين مقومات تلك المدنية وأساليبها وبين الحياة البدوية شبه البدائية التى وجدوا أنفسهم فيها فهذا التخلف الذى انحدروا إليه كان لابد أن تكون له عوامل إيجابية لامتصاص أكثر مقومات الحياة المدنية القديمة حتى يتطبعوا على الحياة البدائية الجديدة

ونحن لا نلوم العرب ولا نلوم التاريخ بما قضت الظروف الاقتصادية لتلك المجموعات أن تنحدر إلى الخلف بحسب الأساليب الاقتصادية والمعيشية .

هنالك عامل آخر يجب أن نضيفه إلى هذه العوامل وهو طبيعة الجماعات البدوية . . . فرغم محاولاتها للاستقرار لكنها لا تستطيع أن تنشد ذلك الاستقرار وتتمتع به . . . فقد تطبعت القبائل على المساحات والقفار وهى فى بحثها عن الاستقرار كانت تخلق عدم الاستقرار لمجموعات أخرى وهى لكى تستقر كان عليها أن تبعد مجموعة أو مجموعات عن المكان الذى تود أن تستقر فيه . . . ولو استطاعت ذلك لظهرت مجموعة أقوى لابعادها عن هذا المكان . . . وهى فى طبيعتها لا تقتنع بالهزيمة ولا تنسى . ولذلك تسبب القلق لمن خلق لها القلق وعدم الاستقرار .

وعندما جاء القرن الخامس عشر الميلادى كانت قد تكونت مجموعتين

كبيرتين خطرتين فى أخصب مناطق السودان . . هى منطقة النيل الازرق .
وشمال ملتقى النيلين . . . . سكنت هاتين المنطقتين مجموعتين عرفناهما فيما بعد
بمجموعة العبدلاب نسبه لعبد الله جماع رئيس هذه المجموعة فى نهاية القرن الخامس
عشر والمجموعة الاخرى بمجموعة الفونج ورئيسها عمارة دونقس احتلت الاولى
منطقة ملتقى النيلين وشماله وجزء من النيل الازرق واحتلت المجموعه الثانية
الجزء الشرقى للنيل الازرق وروافده .

كانت منطقة النيل الازرق والجزيرة وشمال ملتقى النيلين من أخصب
المناطق السودانية . . . واتاحت مساحاتها الشاسعة الغنية الفرص لهذه المجموعات
المتنقلة المتناثرة أن تستريح . . وكانت هذه الراحة بداية الحياة الجديدة فى تاريخ
المجتمع السودانى اذ هيأت هذه المجموعات ان تتكاثر وان تسمو وان تتحد وان
تشارك فى الحياة وبنائها وكان من الطبيعى ان تظهر زعامات لهذه المجموعات
التى سكنت الاراضى الخصبة الغنية . . . وعرفنا من المخطوطات عبد الله جماع
زعيم العبدلاب وعمارة دونقس زعيم الفونج .

للحياة المستقرة فوائدها وخيراتها وللجماعات المستقرة نشاطاتها واهتماماتها
وما أن استقرت القبائل واطمأنت لما حولها إلا وبدأت تبحث وتنشط . .
وكان هنالك طريق يغرى للنشاط والحركة . . وهو طريق القوافل التجارية
بين مصر وغرب السودان والبحر الاحمر . . .

إستقرت هذه المجموعات وكثرت خيراتها ومواردها وبدأت تبحث عن
أساليب المدنية . فالتجارة أحد الطرق لاستجلاب مظاهر المدنية مادام يتيسر

الحال وأرتاحت القبائل وزاد دخل الفرد وكثرت ماشيته وزرعه وكان أكثر الناس إستعدادا لهذه المهمة هم رؤساء القبائل لما عرفوا به من أنهم أغنى مجموعاتهم فى أغلب الاحيان

وشارك زعماء المجموعتين فى تيسير هذه التجارة مع البحر الاحمـــر ومصر وغرب السودان يقايضون بمحصولاتهم وماشيتهم على منتجات مصر والبلدان الاخرى .

أغرى هذا النشاط زعماء المجموعتين للاتحاد وفرض سيطرتهم على كل المجموعات التى تسكن النيلين والسهول والوديان حتى يضمنوا خضوع تلك المجموعات التى تمر قوافلهم التجارية بها . وحتى يكونوا هم حراسا لهذه القوافل ومسئولين عن سلامتها داخل أراضيهم ...

وجاء عام ٩١٠ هـ معلناً بداية حياة جديدة فى حياة الجماعات التى تسكن السودان بإعلان العبدلاب وتكوين لسلطنة السناريه وأعطاء الملك لعمارة دونقس وأمارة الشمال لعبد الله جماع الذى جعل عصمته مدينة قرى شمال الحلفاية .

وإذا نحن حاولنا أن نعرف شيئاً عن تاريخ هذه السلطنة فى المؤلفات التاريخية العديدة التى كتبت فسوف تدور فى حلقة مفرغة كما يقرلون ورغم المجهودات المشكورة التى قام بها بعض الاشخاص الجادين على كشف تاريخ السودان فقد كانت كل محاور منهم هى فى الحقيقة فتح باب جديد للخلاف والشك وأدخال القارىء أو الباحث فى شبكة من المغالطات حتى بات كتاب

تاريخ هذه الحقبة معطلة أمام كل باحث ومؤرخ لكثرة الروايات واختلافها ونقصها وعدم وجود مصادر كاملة حقيقية فكل الروايات المنقولة بواسطة المخطوطات السودانية أو بواسطة الرحالة الاجانب الذين زاروا السودان في القرن السابع عشر والثامن عشر لا يوفق أى منها الأخرى فكل مخطوطة أو رواية منقولة بواسطة الرحالة الاجانب تختلف عن الاخرى.

ولو ألقينا نظرة فاحصة على جدول تاريخ ملوك هذه السلطنة الذى جمعه الاستاذ شاطر البصيلي عن مؤلفات بروس وكايو وكاتب الشونة وبرنتو ونعوم شقير وفات على الاستاذ شاطر البصيلي أن يستفيد من تاريخ إبراهيم الصديق الذى أثبته فى دمشق مخطوطه ودضيف الله لو ألقينا نظرة على هذا الكشف لما وجدنا أى اتفاق بين الخمسة المؤرخين حتى فى سنين حكم السلاطين ماعدا اثنين هما اسماعيل ولانقى فانظر لتاريخ سلطنة بها ثلاثون ملكا لم نستطيع حتى الآن أن

نقدما الحكايات التى وصلت إلينا تنم على الاتفاق على نصف الحقيقة أو بعضها ولكن للأسف كلما وصلت مع أحدهم يبعد عن الاخر مسافة بعيدة ويترك حيرة وتعبا للباحث والمحقق حتى بات أهل التاريخ ينتظرون معجزة من السماء لتكمل لهم هذا اللغز أو أن تخرج لهم الارض بعض المخطوطات المدفونة ولكننا نستطيع أن نطمئنهم بأنهم لن يجدوا شيئا من ذلك لو أطلعوا على مقدمة ودضيف حيث يقول (فقد سألنى جماعة من الاخوان أفاض الله علينا وعليهم سحايب الاحسان وأسكننا وأياهم أعلى الفراديس الجنان بحرمة سيد ولد عدنان أن أؤرخ لهم ملك السودان واذكر فيه من الاعيان فاجبت سؤالهم بعد الاستخارة الواردة فى السنة وبعد الالهام مع أنه لم يكن لاسلافنا وأسلافهم وضع فى هذا الشأن إلا أن أخبارهم متوافرة عن الخاص والعام منها مابلغ حد التواتر عندهم فاجبت

أن أذكر ما تواتر وأشتهر من تلك الاخبار وذلك وأن الخبر المتواتر عند الاصوليين من الاقسام اليقينيه التى تفيد العلم بالشىء وتنفى عنه الشك والظن والوهم .

فاذا اطلعوا على هذا الجزء لاقتنعوا وعدلوا فى توسيع الخلاف لأن عملية التقريب أصبحت شبه مستحيلة إلا إذا تحصلوا على مخطوطات جديدة وهذه المخطوطات الجديدة لن تكون قبل مخطوطه ودضيف الله إذ أثبت لنا دون أن نغوض فى الحديث عن نفسه ومؤلفه عن حالة الدراسات فى القرن الثامن عشر والسابع عشر والسادس عشر . وهذا موضوع آخر سنأتى إليه عن تطور الحركة الثقافية خلال الحكم السنارى ولكنه قد وضع إعصاب الباحثين عن الكشف عن البحث عن مخطوطات قديمة قبل مخطوطة هذا الموضوع .

أما فيما يختص بهذه الدراسات . إلى أى جانب نحن فأنتا نحاول إلى محمود إبراهيم الصديق الذى لم يطلع عليه كتاب هذا التاريخ وهو التاريخ الذى أثبته على هامش مخطوطه ودضيف الله والذى ظنوه ضمن الحوادث التى تملأ الكتاب وقد إعتمدنا على تاريخ هذه المخطوطة لاعتبارات كثيرة ليس أحدها زيادة فاق الباحثين والذين سبقونا وكتبوا تاريخ هذه السلطنه أو التوسع لشرحه بواسطة من قبل (وزيادة الشرح بنا) كما يقولون وإنما لأن هذا التاريخ حسب وجهة نظرنا أكثر التواريخ دقة واعتماداً على المصادر الحية والمخطوطات العديدة التى تيسرت لابراهيم الصديق لا الاطلاع عليها وهم تيسر للمؤرخين .

وهذا نوعية مقدمة لإبراهيم الصديق ومجهوده الذى بذله لتحقيق هذه المخطوطه وإطلاعه على عدة مخطوطات معدية منها المخطوطه الموجوده عن

الشيخ خوجل الخليفة محى الدين بن الخليفة الأمين ونسخة الشيخ أحمد البدوى محمد الدولاب الكردفانى ونسخته الخليفة حسب الرسول ونسخة المستر هندسون مدير التاريخ سابقا بكلية غردون ونسخة عمدة توتى الشيخ أحمد إبراهيم عابر ونسخة الشيخ أحمد عيسى وداد من أهالى بلدة مدنى .

هذا المجهود والاعتماد على مصادر محلية عديدة ورغبة المحقق فى إخراج هذا العمل كاملا يجعلنا نحترم مجهوده ونقدره ونقف بجانب مجهوداته التى لم يقف عندها جميع المؤرخين .

. . . .

الصوفيه والديانيات الافريقيه

لاتنفصل الصوفيه الحقه عن الحركة العلميه بين المجموعات التى تنتشر بينهم فاذا إستطعنا أن نقتنع بأن الصوفيه هى حركة علميه فى بدايتها لتطوير علم التوحيد لاستطعنا أن ندرك أتجاهات أى حركة صوفيه ظهرت فى البلدان العربيه بعد معرفة نهضتها العلميه والثقافيه .

وأول سؤال نستطيع أن نسأله عن الحركة الصوفيه فى السودان ، علينا أن نسأل عن الحركة العلمية والثقافيه فى السودان وهل كان فى إمكانها إحتضان هذه الحركة الصوفيه العلميه الاحتضان السليم والسير بها نحو الكمال أم أن الظروف العلميه والثقافيه كانت فى مستوى أدنى من إحتضان هذه الحركة مما مهد للانحراف فيها

يجب علينا أن نقيم الحركة الصوفيه فى السودان التقييم العلمى الصحيح لأن هذه الحركة دخلت السودان منذ القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى وانتشرت فى السودان بشكل ملحوظ وكان لها أثر كبير على الجماعات والافراد ومازالت توجه حتى اليوم الكثير من افكارنا وثقافتنا ولها أثر كبير فى معتقداتنا واخلاقنا وطبائعنا وتطلعاتنا . واذا إستطعنا أن نقيم المجتمع السودانى حين دخول الصوفيه وخط سير هذه الصوفيه بالنسبه لظروف المجتمع التى وجدت نفسها فيه نستطيع أن نقتنع بأرتياح بمسيرة هذه الصوفيه ان كان نحو الكمال أو نحو الانحراف .

وإذا أردنا أن نبحث عن الظروف السياسيه والاجتماعيه والفكريه لن نستطيع

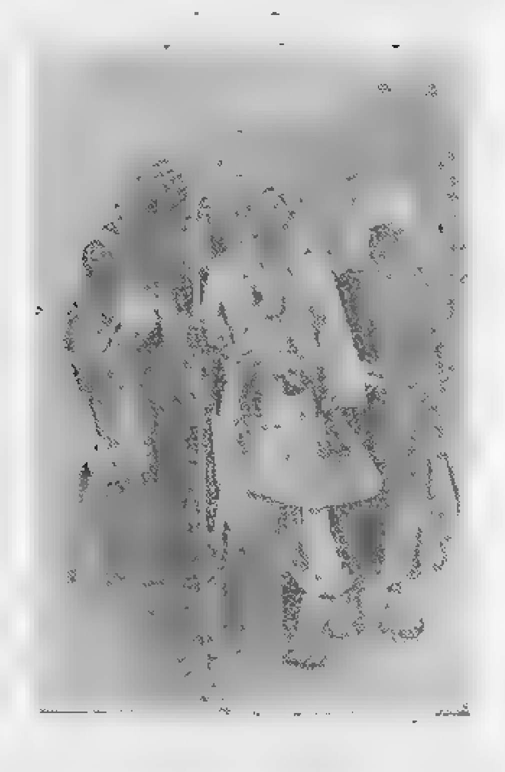
أن تحفظ هذه الحركة من الانتكاسة و لاتجاه بها أتجاهات غريبه . والجواب لايحتاج إلى أدلة كثيره . ويكفى أنه حتى نهايه القرن الخامس عشر لم تكن السودان مدرسة قرآن واحده ، حيث وقف المشر التعاليم الاسلاميه حتى أغلست الجماعات المسلمه من أدراك تعاليم الدين ولانود أن نستشهد بادله أستشهدنا بها فى مكان آخر . وما نستطيع أن نقوله أن حركة علم حتى نهايه القرن التاسع عشر لم تكن فى المستوى الذى يستطيع أن يدعم ويطور هم التوجيه الذى هو أساس الصوفيه (حديث أبو القاسم الجنيد صفحه ٢٢٢ يشير الى هذا المعنى)

فاذا إردنا أن نمسح الحركة العلمية فى السودان فلن نجد غير بعض الكتاتيب (الخلاوى) التى أنشأت بمجهودات فردية عند الشيخ إبراهيم البولاد المصرى دار الشايقيه ثم الشيخ محمود راجل القصر بالنيل الأبيض والمعلم الأول الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى الذى أدخل التصوفيه للسودان على يديه فى القرن السادس عشر ميلاديه تاريخ مملكة سنار (النصف الثانى من القرن العاشر) هجرى كما جاء فى تاريخ حياته فى عهد الشيخ عجيب الذى تمسك على يديه وحجازى بن معين من أربجى .

فقد ارتبط إسم تاج الدين البهارى أسم الشيخ حجازى بن معين الذى خطط مدينة أربجى عام ٨٨٠ هـ و لجأ الى فرض واحد وهو أن الشيخ حجازى بن معين كان من المعمرين لان حضور الشيخ تاج الدين البهارى البغدادى كان بعد عام ٩٦٠ هـ أى حضر بعد ثمانين عاما ويعنى ذلك أن بناء حجازى بن معين لمدينة أربجى كان بعد ثمانين عاما ويعنى ذلك أيضا أنه شيد أربجى وعمره لا يقل عن ثلاثين عاما وحين تتلمذ على يد تاج الدين البهارى كان عمره فوق المائة ثم شيد مسجد أربجى بعد ذلك فى أول النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى .

قبة المهدى . . . صباح اليوم الثانى من معركة يوم ١٨٩٨/٩/٢ قصد بتهديمها لادخال الرعب فى قلوب الدراويش

الصورة تحكى أثر الروح الصوفية ومقاومة العلم لتلك الروح التى وحدت نصار المهدى خلفه



العرب فى كردفان بعد سلطنة دار فور وتأثرهم بسكان وسط أفريقيا



نهاية الثورة المهدية التي قاومت الأسلحة الحديثة بالإيمان والتضحية بالروح ، مخلفة أبلغ صور البطولة الصوفية .



صورة من صور [illegible] و [illegible] حكايات [illegible] الحديث .

في سعادة وطمأنينة رقد جسد البطل الامير أحمد قصبي



[illegible] حيث رقد جسد خليفة المهدي
مستشهداً بين جنوده

هذا يكشف لنا أن الشيخ حجازى بن معين حين خطط مدينة أربجى كان من أغنى رجال مجموعته الأمر الذى مكنه من أنشاء هذه المدينه ويؤكد لنا ذلك دعوة الشيخ تاج الدين البهارى له بالغنى لذريته من بعـــده وهى ذريه كبيره لاشك وقد عرف الغنى أكثر ما عرف عنه رجل دين وأن كان قد بنا أول جامع وهو جامع اربجى فلايعنى ذلك أنه كان أكثر الناس صلاحا وورعا . . . فقد كان مركزه المالى والاجتماعى يفرض عليه أن يقوم بمثل هذا العمل الاجتماعى . .

من ماتقدم يثبت لنا أن العلم والصوفيه دخلوا سويا للسودان فى القرن السادس عشر الميلادى على يد الشيخ تاج الدين البهارى الذى حين جاء لم يجد كتاتيب أو خلاوى إنما وجد الاستعداد الكبير للمعرفه وفى فترة وجوده بالسودان عم الدين من الشيوخ الذى أنتشروا فى أراضى السودان وقاموا برسالته .

وإذا أردنا أن نجد صورة الصوفى الذى نشأ فى سودان فإن نجد تلك الصورة وذلك الصوفى الأول الذى عاش فى بغداد وسط الحضارة العربيه والعلوم وكرس حياته للعلوم والمناقشات العلميه والفلسفيه ومسائل الوجود والعدم وعدم الحدث وأنما سنجد صوره قاضى العداله والصراع بين رجل العلم والشريعه وبين الصورة الجديدة التى ظهرت فى السودان لرجل الصوفيه فى شخصيه الشيخ الهميم .

ويحكى القصه أن دشين قاضى العداله المولود بأربجى أحد الاربعة قضاة العدين ولاهم الشيخ عجيب تلميذ الشيخ تاج الدين البهارى بأمر الملك دكين حين قدومه من المشرق ويبدو أنه يعنى بالمشرق الحجاز وما رآه فى المجتمع الاسلامى فى

الجزيرة العربيه ووجوب قيام مثل هذه الوظائف ليحكم في الناس بالشريعه وهم أول قضاه في السودان .

وولى الشيخ دشين قاضيا على أربجي والشامية عموماً ومارس هذا العمل حسب الشريعه وقد إستعظم في أثناء حكمه شخصية من الشخصيات الصوفيه الغريبه التي ظهرت في السودان . وهي شخصية الشيخ همد الهميم الذي يقال أنه في حالة الانجذاب تزوج أكثر مما سمح به الشرع أن زاد على أربعة نساء في وقت واحد (والقصة في جانب تكشف بأن العديد رضوا أن يزوجوه من نسائهم بعد الأربعة كانوا ولا يفقهون شبهة في دينهم . ولم يقف عند هذا الحد العقيدة المتصوفه نفسها . . وبجانب هذا فقد تزوج اثنين من بنات أبو ندوده من رفاعه مخالفاً بذلك الشريعه في نكاح الاختين في آن واحد . كما جمع بين بنات الشيخ بأن نقا الضرير كلتوم وخادم الله وبأن سعة رجل أحد الصوفيه على يد تاج الدين البهاري وأخوه سعدان لعج كبير للزواج ورغم ذلك زوج الشيخ محمد الهميم أخواته الاثنين في آن واحد .

وتبدأ القصه حين قدم الشيخ محمد الهميم إلى أربجي يوم الجمعه وحضر الصلاه بالجامع . وعند انتهاء الصلاه خرج دشين قاضي العداله وصادف محمد الهميم وقبض على لجام فرسه وقال له خمست وسدست وسبعت ما كفاك حتى تجمع بين الأختين . فقال له الهميم ماذا تريد . فرد عليه دشين أريد أن أفسخ نكاحك لأنك خالفت كتاب الله ورسوله وسنه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له الرسول اذن لي والشيخ ادريس يعلم . . وكان الشيخ أدريس حاضرا فقال لدشين اترك امره وخله ما بينه وبين ربه فعدل دشين ما يهمل أمره وقد فسخت نكاحه فما كان من الشيخ محمد الهميم إلا أن دعى على دشين وقال له فسخ الله جلدك .

ويقال أن دشين مرض بعد ذلك وعلمها البعض انها دعوة الشيخ محمد همم إلا أنه لم يؤيد الا إيمانا ويقينا بعدالة الشرع حتى جاء فرح ولد تكتوك وقال فيه .

وبن دشين قاضى العداله   الما بيعبل الضلاله

نسله تعسم السلاله   الا وقفوا نار الرساله

هذه صورة رجل أدعى انه صوفى وصالح وخرج على تعاليم الدين ولم يستطيع إى شخص ان يقف امامه وذلك لأن الصوفيه أدخلت فى عقول الناس أنهم أولياء الله وانهم يستطيعون أن يضروا البشر وما يقولونه من دعوات ينفذ فى البشر . وانطبعت صورتهم فى ذهن الناس بأنه صاحب العقاب الرادع وكاشف الأسرار مع أن الصوفيه الأوائل لم تظهر عليهم هذه العلامات وهذا الاتجاه نحو مضرة الآخرين والانتقام منهم والدعاء عليهم بالمصير السيء . . . وهذا الاعتقاد له مبرراته إذ إستطعنا أن نجد دور الشخصيات الدينيه فى السودان قبل ظهور الاسلام والعرب وإنتقال إمكانيات تلك الشخصيات إلى شخصيات جديده فى ثوب جديد .

وجد تاج الدين البهارى حين قدومه السودان بعد أن ترك بغداد حاجاً . وربما حضوره مسبوقا كما ... سبق ذكره إذ جاء رجال السودان ... يطلبونه منه أن يخدم الإسلام بنشر العلـــوم الاسلاميه بين أو ... المنطقين هذه الاقوام . . . . . ولقى الشيخ تاج الدين البهارى كل ترحيب وتقدير لشخصيته الدينيه من مكانه عند هؤلاء الرجال ، كما كان يمثل هذا المسلم من معارف وما يحفظه من علوم لم تصل لسكان السودان فى تلك الحقبه وكانت تمثل هذه

الشخصية ومالها من علم تلفت الانظار وتبهر العقول إذا من صفات العلم والمعرفة أن يخلق الاندهاش عند الجاهل إذ يعطيه العلم بعض الحقائق البسيطة القريبة منه ولا يستطيع أن يتوصل اليها ويعطيه الحلول للأشياء التى تورق العقل الانسانى إذ من صفات العقل أن لايكف عن التساؤل والبحث . والخيال المجرد يضع العقل فى حيرة والمعرفة تريح العقل من هذه الحيرة والقلق .

جاء تاج الدين البهارى وبذر بذرتين . أحدهما تشجيع القراءة ونشر العلوم الدينيه وحفظ القرآن والاخرى نشر فكرة الصوفيه وقد وجد الشيخ تاج الدين البهارى أرضاً غير صالحه لدعوته الصوفيه الامر الذى جعل دعوته تصوفيه لاتقوم على أسس علميه سليمه بل أخذت من ملامح الشخصيات الدينيه القديمة التى سنتحدث عنها فيما بعد وهى الديانات الأفريقية وخاصة الشخصيات الدينيه فى غرب أفريقيا والعبادات الفرعونية والرهبان . إذ كانت كل هذه الشخصيات غامضة تحيط بها هالة من الغموض والاسرار بعيده عن إدراك عامة الناس الامر الذى وضع بقيه الناس ينظرون اليها نظرة غريبة فيها كثير من الحيره والدهشة فشخصية الكاهن الفرعونى كانت غامضه بالنسبه لبقية الناس وقد سلموا له عقولهم وامنوا بكل حركاته وتصرفاته ثم شخصية الكاهن بصورته المتواضعه الجديدة وحضور الناس اليه وتقديم الاعترافات له .

لم تجد صوفية تاج الدين البهارى وبقية المدارس التى دخلت لم تجد العلم الكافى للوقوف ضد الانحرافات بالدين بل أننا لنجد فى كثير من تصرفات رجال الصوفية من يدعى المعجزات التى هى خاصة بالانبياء وحدهم . . . — ولذا نجد مثل الكاتب ود ضيف الله لايتنكر لمثل هذا الانحرافات بل يثبت لنا فى مخطوطته مثل هذه المعجزات دون ان يعلق عليها ولايستطيع ويفرق بين ما هو مساير للشرع ومخالف له .

لايمكن لنا بأى حال من الأحوال إذا إردنا أن ندرس الشخصيات الدينيه الاسلاميه بعد دخول العرب ودخول الثقافة الدينيه والاسلامية وبدايه دخول العلوم العربيه فى أوائل القرن السادس عشر علينا أن نتتبع الشخصيات الدينيه القديمة التى عاشت فى النيل وفى إفريقيا ونحن نرى حتى اليوم شيء فى أثار تلك الشخصيات الدينيه القديمه فى إعمال السحر والشعوذه وإعتقاد الناس فى بعض الشخصيات فى شفاء الناس عن طريق التعاون القديمة وايمان الناس فى قدرة بعض جذوع الأشجار على شفاء بعض الأمراض وقدرة بعضها على الحاق كثير من الأذى وقدرة الناس على التشكل بأشكال الحيوانات وكل هذه المعتقدات التى مازال يعيش بعضها فى بعض القرى هى بقايا من تلك العادات الدينيه القديمه التى عاشت على النيل وعند قبائل الداجو وقبائل اعالى النيل وكماهو واقع لم تحدث عمليه تصفيه حتى الآن للعادات والمعتقدات الدينيه القديمه والصور الدينيه التى عاشت فى أفريقيا . إنما حدثت عمليه مصالحه وأمتزاج بين العادات والتقاليد والمعتقدات الدينيه الوثنيه العادات المسيحية والإسلاميه لان العرب المسلمين الذين دخلوا السودان لم يدخلوا فاتحين أقوياء يفرضون سيطرتهم ومعتقداتهم على السكان إنما كانوا طالبين ملجأ ومأوى لذا لم يكونوا فى مركز يسمح لهم بمحاربه معتقدات الأهالى إنما حدث التوافق بين الاثنين فقبل هؤلاء من السكان بعض العادات التى لاتمس رجولتهم وعاداتهم العربية وقبل السكان من العرب التقاليد والعبادات التى لاتقسو على ماضيهم الدينى وقد كانت عمليه فيها شىء من اللين والمصالحه لخلق بيئه جديدة ترغب فى العيش فى سلام . . . ويبدوا أن تعدد المعتقدات الدينيه فى السودان من وثنيه إفريقيه وفرعونيه ومسيحيه جعل إضافه معتقدات دينية جديده من المجموعات جديده أمر مقبول إذ لم تحدث عملية توعية لمحاربة المعتقدات القديمة أو صراع حاد والتقدم الدينى الذى حدث حدث تدريجياً وبطيئاً . .

وإذا حاولنا أن نبحث عن بعض الشخصيات المدنية اليوم التي تمارس بعض
الأعمال القديمة التي كان يقوم بها رجال الدين عند قبائل الداجو سكان وسط
إفريقيا مثل شخصية (الكجور) التي تدعى اليوم أنها تمارس هذه الأعمال هي
وحي التعاليم الإسلامية ومع إضافته للشخصية القديمة بعض إمكانات الدين
فالكجور ما زال يستعمل الوسائل الدينية القديمة لعلاج بعض الأمراض وما زال
الناس يعتقدون في بعض هذه الأعمال ومما شاهدته من أعمال هذه الشخصية حين
مرضت امرأة أحضر لها هذا الكجور وأحضر معه مقشة (ريحة) وكوكاب
وحربة وقال للمريضة أن هناك عملا سحريا قد عمل لها وأن بجسمها بعض العروق
السامة التي غرست في جسمها وأجلس المريضة بعد أن كشف عن جسمها الأعلى
وصار يضرب بالمقشة على جسمها وظهرها وتساقطت قطع صغيرة من عروق
الشجر ثم صار يمص على مواضع معينة في جسمها ويخرج من فمه بعض العروق
الرطبة موهماً المريضة أن هذه العروق كانت بجسمها . وفي أثناء ذلك كان يستعمل
بعض التعاويذ الإفريقية القديمة وبعض الآيات القرآنية . ثم سد على الجسم ووضع
الحربة والكوكاب على جسم المريضة وصار يقوم ببعض الحركات وترتيل
التعاويذ القديمة ثم بعد برهة فتح الجسم وأخرج منها بعض العظام القديمة وبعض
الشعر وبعض الأسلاك وبعد ذلك شعرت المريضة بالراحة والهدوء وكل هذه الأشياء التي
قال إنها كانت في جسم المريضة هي نفس الأشياء التي كان يعتقد فيها سكان إفريقيا
ويقدم بها رجال الدين وسحرة إفريقيا ولو راجعنا كتاب « هوبير ديشان » عن
الديانات في أفريقيا السوداء رغم ما فيه من الأخطاء الكثيرة وبعد الكاتب عن
حياة أفريقيا وعدم استطاعته الإلمام بخفايا حياة الشعوب الأفريقية إلا أنه يعطينا صورة

حية للمعتقدات القديمة عند قبائل الدنكا وأعالي النيل والكيكويو بكينيا والسواحيلي بتانجانيقا والباكنجو والباسوتو والسوازي بجنوب إفريقيا والهوتنتوت والدمارا بجنوب غرب إفريقيا والبوشمان بجنوب إفريقيا واللوندا برونديو والبلالي بحوض الكنغو وكذلك الأزانده و ... ما والمادي، إلا قسموندو بجنوب غرب أفريقيا والكانوري والهوزا والدوشي واليوروبا والانجي والشاري الايبيك بوسط أفريقيا والاشانتي والبمجوب والتوجو والفنتي والداجو والبيسا والمندي والمندانج والتوكالير والألوف والباوله والسو منهاري بغرب حوض النيجر .

إنتشرت الديانات الافريقية القديمة والسحرية بين كل هذه القبائل وخاصة في وسط إفريقيا وغربها سكان السودان قبل الحضارة الاسلامية والمسيحية وتمشت تلك الديانات مع الوثنية الفرعونية وانتشرت في ربوع السودان ولازمت الحضارة الفرعونية إلا أن مركزها الأصلي كان جنوب أرض الجزيرة بين قبائل الشلك وأعالي النيل وغرب السودان وقبائل النوبا والتنجور والكنجارة والبراجو .

وقد بدأت الديانات الوثنية وتصحبها فكرة السحر لحاجة الانسان لفهم الطبيعة وفهم غرائبها . وقد إستغل بعض الافراد الموهوبين أو الذين أعطتهم الطبيعة بعض القدرات الخارقة للأحساس بخفايا الأمور ويتولوا تفسير تساؤلات الناس عن الطبيعة وعن الجفاف والأمراض .... وقد اختص بعض الملوك ببعض هذه الصفات وجند بعضهم بعض الموهوبين للقيام بهذا الدور في معرفة أمراض الناس وخفايا تفكيرهم وتهوسهم وقد إستطاعوا بأعتقاد الناس لقدراتهم أن ينجحوا لحد بعيد في تهدئة كثير من الحالات أن كان بالتأثير النفسي أو الخداع أو العقاقير

المستخرجه من النباتات أو إستعمال التماويذ وقد ساعد على إنتشار هذه العادات أستعداد الناس لتقبلها وخوفهم من معارضتها أو الوقوف أمام السحره اذ اهو العين وقد أثبتت الدراسات أن الديانات الافريقية الأولى لا تختلف كثيراً عن ديانه الفراعنه أو الإغريق فكثير من الرموز متقاربه حيث تتشابه الحياه الزراعيه والرعويه فى كل من النيل واليونان وعند القبائل الافريقيه وبذلك كان وجه الشبه بين هذه الديانات أمراً طبيعياً لتشابه الظروف الطبيعيه والمعيشيه. إلا أن القبائل الافريقيه أختصت بتعدد الآله والعبادات وذلك لتعدد القبائل وعدم خضوع هذه القبائل لسلطان واحد يعطيه كل السلطات الدينيه والاجتماعية. كما كان عند الفراعنه كما أعطى هذا التعدد الأفراد الافريقيين كثيراً من الحريه وكان بأستطاعتهم التقدم والتطور أكثر من الشعوب الاخرى التى صنعت حضاره النيل والاغريق والرومان إلا إلا النظام الاجتماعى والاقتصادى الفردى حد فى توحيد إقتصاد القبائل الافريقية فى حين سخر الامكانيات الاقتصادية فى النظام الملكى الفرعونى أو النظام الاجتماعى الاغريقى والرومانى إلى احترام الدوله و لرؤساء والأبطال إلى تجنيد كل إمكانيات تلك الشعوب لصالح تلك الحضارات التى نمت على شمال وشرق وجنوب والبحر الأبيض المتوسط.

ونحن لا نستطيع أن نفصل الديانات التى قامت فى السودان عن الديانات الوثنيه إذلم تتم اى منها حتى الآن بعمليه منظمه لطرد بقايا تلك الأديان الوثنيه القديمة التى إشتركت فى عبادات جماعيه للطبيعه وتقديس للحيوان والاعتراف بسلطان بعض الافراد على فهم أسرار الطبيعه والقيام بدور الراهب والساحر ونحن نرى ذلك واضحاً فى الصوفيه وطقوسها التى لا تختلف كثيراً عن الطقوس الأفريقية القديمه كما أخذ بعض منهم فكرة التسلط والحاق الأذى بالغير وأستعمال التماويذ لعلاج الامراض أو إلحاق الضرر بالغير إذا علمنا إن هؤلاء

الأشخاص إن كانوا من الكهنه أو السحره الأفريقيين أو رجال الصوفيه الذين قلدوا شخصياتهم وادركوا الضعف الاجتماعى العام للتصدى لهم . ونحن لانستطيع حتى الان أن يجعل بعضهم يعترف بسر مهنة سر هذه الثقه وهذه المقدره للنجاح فى بعض الامور وهى لاشك اتت عن طريق رياضه روحيه قاسيه وتعاليم معقده وترتيلات سريه خاصه تعتقد بآله للشر وآله للخير وأن هنا لك أسراراً يستطعون بها التوصل إلى آله الشر واله الخير . وقد إحتلت عبادة الحيوانات جزءاً [illegible] دائم لتمسح والثعبان كما كان يعبد الفراعنه القطه والنسر والصقره وأنواع عديده من الحيوانات .

نشأة الصوفية فى الاســـلام

الصوفية هى مذهب المحققين من العلماء المسلمين فى حقائق الكون وارجاع كل شىء إلى خالق واحد هو الله سبحانه وتعالى مالك الملك . مذهب الصوفية هو علم للتوحيد .. وعلم التوحيد لايقوم على الرؤيا الجاهلة أو الوهم إنما يقوم على الحقائق وكشف أسرار الوجود وربط كل شىء بخالقه .

هذا هو مذهب الصوفية الأوائل الاجتهاد فى علم التوحيد . . . التزود بالعلم والمعرفة بحقائق الحياة ، وامتحان كل حقائق الوجود . ولايقوم هذا الامتحان وهذا الكشف بمجرد الرؤيا . أو الوهم . وإنما يقوم على الدراسة . الدراسة التى تشبه التحليلات العلمية لاثبات صحة الحقائق واستخلاص النتائج السليمة وهو أعلى مستوى من العلوم الاسلامية إذ يتطلب من طالب علم التوحيد ، أن يكون ملما بكل معارف الوجود بالفلسفة والطب وعلم الفلك والرياضيات وسائر العلوم الاولية حتى يستطيع أن يرد على كل سائل وعلى كل صاحب رأى مخالف بالاقناع ، والمنطق والحجة . . .

كان هذا حال العلماء المسلمون فى عصر النهضة الفكرية العربية وازدهار العلوم والمعارف ولايمكن أن يتطور علم مثل علم التوحيد الأوسط تطور كافة العلوم ولابد من وجود الامكانيات العلمية لتفسير كل الظواهر الطبيعية .

لم تظهر الصوفيـة فى عصر تدهور الفكر العربى كما يتصور البعض ولكن تدهورت الصوفية بتدهور الفكر العربى وجمود المعارف وقلة الاجتهاد وانتشار

العلوم حينما بات علماء التوحيد وأهل الصوفية يستعملون أدوات غير تلك التى كان يستعملها رجال العلم من الصوفية الأوائل . . . . . فى حين كان العلم هو السلاح الوحيد للصوفية أصبح الوهم والرؤيا وخطرفها والأحلام وتجريداتها هى أداة رجال الصوفية فى مجال علم التوحيد و إثبات وحدانية الله .

يقول الامام العالم أبا القاسم عبد الكريم هوازن القشيرى فى اعتقاد الصوفية فى مسائل الاصول « اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة فى التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة فى توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القوم وتحققوا ماهو نعت الموجود من العدم » .

وقد أخذ بعض الصوفية مثل هذه المبادئ دون اجتهاد وعلم وظنوا أن التوحيد يأتى من الاطمئنان اصغاء السريره ودون صفاء العقل الذى لايكون صفاؤه الا بالعلم . لان اثبات وجود الله درجات أعلاها درجة ذلك العالم المؤمن الذى عرف حقائق الكون وتجرد من كل شىء بمعرفة كل الحقائق فآمن بعقله وقلبه . وهذا هو مذهب التوحيد الذى اجتهد رجال الصوفية الأوائل فيه بالعلم ، ووقفوا عند كل شىء بالدراسة والتحليل والتعليل فلم يضعوا المعانى أشياء خفية وانما جعلوا لكل شىء معنى واضح ثم أتى بعدهم طائفة من المريدين وقف علمهم عن ادراك معانى هؤلاء العلماء فتوهموا معانيها وساروا بها دون علم عن طريق البصيرة وظنوا أن الرؤيا والوهم هما السبيل الصحيح للكشف عن خفايا هذه المعانى والكلمات ليفهما قلة من الناس من صفى إيمانهم ولكنهم لم يدركوا أنهم وضعوها لمن كثر علمه وصفا إيمانه حتى لايقع فى حبال الشرك والأوهام .

ولو وقفنا الآن عند التعريف البسيط للصوفية القائل الصوفى هو من الذى صفا عن الأخلاق المذمومة وتخلق بالأخلاق المحمودة حتى أحبه الله وحفظه فى جميع حركاته وسكناته . . .

ولقد كان لمثل هذه المعانى المختصرة والكثير من كلمات رجال الصوفية الاوائل التى قالوها للخاصة فانتشرت عند العامة كل أسباب تدهور الفكر الصوفى فظن البعض أن الصوفية هو صفاء السريرة ولكن كيف يتحقق هذا الصفاء وقد ظن البعض أن مجرد أداء الفرائض المادية للمؤمن يكفى لجلب هذا الصفاء وفات عليهم أن تحقيق هذا الصفاء لا يكون لا بتصفيه حقائق الوجود ودراستها والتأكد من كل خاطر واثباته علميا ولكن البعض ظن الرؤيا أو الوهم هما مايعنيه علماء الصوفية بالصفاء وان الاحساس له يكفى للكشف أشياء كثيرة لصاحبه .

وباتت الصوفية عند المريدين هو استجلاء كلمات رجال الصوفية وظنوا أن فيها شيئا لا يدركه إلا أهل البواطن ولا يدرك معانى كلماتهم الا من توفرت لهم أسباب كشف الغيب ولم يدركوا أن الصوفية هى تطور لعلم التوحيد بالعلم والمعرفه وليس الوقوف عند كلمات رجال هذا العلم والظن بأن لكلماتهم معانى خافية لايتوصل إليها إلا القلة وهو وهم كاذب فعلم التوحيد لايقوم على هذا الظن وكل صوفى لايلم بعلم التوحيد ويضيف إليه شيئاً من عنده لايعد صوفيا . . .

قال زعيم الصوفية الأول الامام أبو القاسم الجنيد وهو ببغداد فى أوج ازدهارها فى عصر الخليفة العباس فى تفسيره للتوحيد . التوحيد هو أفراد

القدم من الحدث واحكموا أصول العقائد بواضح الدلائل ولائح الشواهد . .

هذه دعوة علمية لاثبات وجود الله بالحقائق والشواهد . . . . . .
قال سمعت أبا حاتم الصوفى يقول سمعت أبا نصر الطوسى يقول سئل رويم عن أول فرض افترضه الله عز وجل على خلقه ماهو فقال المعرفة لقوله جل ذكره وماخلقت الجن والانس الا ليعبدون قال ابن عباس الا ليعرفون .
ونحن نرى هنا أن عباس يفسر كلمة يعبدون بيعرفون وذلك لأن العبادة الصحيحة لا تأتى إلا بالمعرفة إذا الإيمان بدون علم ومعرفة إيمان لايقوم على المعرفة والعلم . ويقول الامام أبو القاسم الجنيد أن أول مايحتاج إليه العبد من عقد الحكمة معرفة المصنوع صانعه والمحدث كيف كان أحداثه فيعرف من صفة الخالق من المخلوق وصفة القديم من المحدث ويذل لدعوته ويعترف بوجوب طاعته فإن لم يعرف مالكه لم يعترف بالملك لمن استوجبه ويقول الجنيد كذلك فى معنى التوحيد قال أفراد الموحد بتحقيق وحدانيته بكمال أحديته أنه الواحد الذى لم يلد ولم يولد بنفى الاضداد والانداد والاشباه فلا تشبيه ولا تكييف ولاتصوير ولا تمثيل . وهذه دعوة لاثبات وجود الله عز وجل عن طريق إمتحان الحقائق العلمية .

ومقصد لاغراق البعض فى تفسير معانى رجال الصوفية الأوائل انهم أهتموا بمسائل فلسفية تهم الخاصة من رجال العلم وذلك حين تعرضوا لمسائل ماوراء الطبيعة مثل الحدث والقدم .

وخرجت كلماتهم ومعانيهم هذه إلى المريدين غير المطلق على العلوم

الفلسفية فقصر علمهم من متناولها وفهم معناها وظنوا أن فى العلم باطن وظاهر أحدهما بالاجتهاد وآخر بدون اجتهاد ووقفوا عند المعانى الفلسفية وظنوها كلمات روحانية نزلت على مؤلفيها من الأئمة فى ساعة تجلى كشفت لهم عن خباياها الوجود وأسرار الحياة ولم يدركوا أنها فلسفة ما وراء الطبيعة وأنها عدم تقوم على الإقناع العلمى .

يحكى عن يوسف بن الحسين قال : « قام رجل بين يدى ذى النون المصرى » فقال « أخبرنى عن التوحيد . ما هو » فقال « هو أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج وصنعه للأشياء بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه ، وليس فى السموات العلا ولا فى الأرضين السفلى مدبر غير الله ، وكل ما تصور فى وهمك فالله بخلاف ذلك » . .

ويحكى كذلك ما وصل إليه حال الصوفية من ادعائهم له علم الغيب حتى انتشرت هذه الفكرة بين المريدين وغير المريدين وكان لها خطرها الكبير فى هدم أساس هذا المذهب وإدخال الدجل عليه وإعطاء قوة لم يؤمنوا بها ولم يدعوا إليها . . . قال جاء رجل إلى ذا النون المصرى وقال له أدع الله لى فقال إن كنت قد أيدت فى علم الغيب بصدق التوحيد فكم من دعوة مجابة قد سبقت لك وإلا فإن النداء لا ينقذ الغرقى وقال الواسطى ادعى فرعون الربوبية على الكشف وادعت المعتزلة لها الستر تقول ما شئت فعلت . . .

وإذا تصورنا تطور الفلسفة اليوم والإمكانيات العلمية الكثيرة التى

تستغلها لكشف الحقائق وما كانت عليه فى القرن الثالث والرابع الهجرى عند العرب لوجدنا الفارق العلمى الكبير بين الفلسفة اليوم والفلسفة بالأمس فقد اختفت أراء رجال الفكر الاوائل وسقط الكثير منها أمام تقدم الفكر اليوم وهذا لايسىء الأقدمية بشىء وانما يثبت ان العلم فى الفكر فى تطور مستمر وكلما تقدم التعليم كلما تقدم الفكر وذلك كيلا نسلم بأراء المجتهدين من علماء الصوفية الاوائل لان العلم لاحدود له .

. . . .

الصوفية الأوائل

أبو اسحق بن ابراهيم بن أدهم بن منصور

أول من ورد ذكرهم من الصوفية ، هو أبو اسحق بن ابراهيم بن أدهم بن منصور . كان من أبناء الملوك ، وأول من ترك حياة الغنى ، وأعطى ما كان معه لراعيه ، ولبس جبة الراعي المصنوعة من الصوف ، مما جعل البعض يعتقد أن كلمة الصوفية مشتقة من لبس الصوف الدال على الزهد في الدنيا ومعنى الصوفية غير ذلك كما جاء على لسان أئمة الصوفية وهو الذى صفا عن الاخلاق المذمومة وتخلق بالأخلاق المحمودة، ولايشترط أن يلبس الصوف لأن أئمة رجال الصوفيين من علماء بغداد والذين عاشوا بها لم يلبسوا هذا الصوف .

ومن أخبار أبو اسحق وآثاره أنه قال لرجل وهو بالطواف اعلم أنك لاتنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات ، أولاها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة ، و الثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل ، و الثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد ، والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر والسادسة تغلق باب الامل وتفتح باب الاستعداد للموت ، . . .

هذا طرف من فلسفة الصوفية الاوائل الذين كانوا ينظرون للدنيا نظرة أقرب لنظرة الرهبان اليها وذلك عند بداية الحركة الصوفية الا أن هذا لم يكن يشمل فلسفة الصوفية في الوجود والتوحيد وانما كان هذا رأى فرد منهم في

حياة الفرد وقد جاءت أخباره أيضا أنه كان يحرس كرما فمر به جندى فقال « أعطنا من هذا العنب » فقال « ما أمرنى به صاحبه » فأخذ يضربه بسوطه فطأطأ رأسه وقال « اضرب رأسا طالما عصى الله » فانجز الرجل ومضى ....

أبو الفيض ذو النون المصرى :

اسمه ثوبان بن ابراهيم وقيل أبو الفيض ابراهيم وأبوه كان نوبيا توفى سنة خمسة وأربعين ومائتين هجرية من أئمة الصوفية ، وواحد وقته ، علما ، وورعا ، وحالا وأدبا ... قيل سعوا به إلى المتوكل فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه فبكى المتوكل ، ورده إلى مصر مكرما . وكان المتوكل اذا ذكر بين يديه أبو الفيض يبكى .

كان رجلا نحيفا تعلوه حمرة ، ليس بأبيض اللحية ومن أمثله قوله « مدار الكلام أربع ، حب الجليل ، وبغض القليل ، واتباع التنزيل ، وخوف التحويل »

أبو القاسم الجنيد بن محمد :

« سيد هذه الطائفة وأمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريرى وكان فقيها على مذهب أبي ثور فكان يفتى فى حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة صحب خاله السرى والحرث المحاسبي ومحمد بن على القصاب مات سنة سبع وتسعين ومائتين .

ومن أقواله « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات وقال أيضا « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولا يقتدى به فى هذا الأمر ليس منا لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة . »

الامام عبد القادر الجيلانى

هو القطب الكبير المؤسس الأول للطريقة القادرية . . كان اماما عالما تقيا ورعا . . . كان له اتباع ورواد لحلقته بمسجده الكبير ببغداد حيث يقوم بتدريس علوم التفسير والحديث وفقه الشافعى والحنبلى وعلوم الأصول واللغة .

«كان يقول لاتباعه « ان الله لا ينظر إلى وجوه الناس واحسابهم وانما ينظر إلى الموسم وأعمالهم ، وان المراد بالعلم ، هو العمل به فالفقيه هو من عمل بفقهه والمحدث لا يكون محدثا إلا إذا طبق الحديث على نفسه واعتمد عليه ليكون على قلب صاحب الحديث صلوات الله وسلامه عليه » . .

الامام أحمد الرفاعى

هو القطب المربى الامام السيد احمد الرفاعى مؤسس الطريقة الرفاعية التى انتشرت فى العراق والشام ومصر وشمال أفريقية

من أقواله : « أنفع الناس إلى الله أقومهم لعباده » ... ومن أقواله أيضا (طريق دين بلا بدعة وهمة بلا كسل وعمل بلا رياء ونفس بلا شهوة وقلب عامر بالمحبة)

وكان مجلسه مدرسة للعلماء ومأوى للفقراء ...

الإمام السيد أحمد البدوى

هو القطب السيد أحمد البدوى وفد إلى مصر من العراق بعد أن طاف بربوع الحجاز ... واستقر بمدينة طنطا وأخذ يؤسس مدرسته الكبرى باسم (الطريقة الأحمدية) حضر عصر الظاهر بيبرس وكان يجله ويعظمه .

ومن أقواله (ليس التصوف الزهد أو لبس الصوف إنما التصوف أعمال ومجاهدة وأخلاق والأخذ بأيدى الناس إلى خير الدنيا والآخرة) .

الإمام السيد إبراهيم الدسوقى :

صاحب الطريقة البرهامية توفى سنة ستة وأربعين وستمائة عالما ورعا تقيا من أقواله (من لم يكن متشرعا ، متحققا ، نظيفا ، عفيفا ، شريفا ، فليس من أولادى ، ولو كان ابنى لصلبى ومن كان من المريدين ملازما للشريعة والحقيقة) ...

هؤلاء بعض أئمة الصوفية الكبار وإذا أردنا أحصاءهم نعددهم لا ـ

هذا الكتاب ونكتفى بالاشارة الى بعضهم . . . ومايهمنا ماذا استفاد السودان ؟ من الصوفية . . . . وماذا استفادت الصوفية من السودان . . . فهل أعادها إلى طبيعتها العلمية الأولى أم انحدروا بها بعد أن انحدرت هى نسبة لركود الفكر العربى عامة وتدهور الحياة الثقافية والاجتماعية بتدهور الحياة السياسية وتفتيت وحدة الأمة الاسلامية والعربية الذى ابتدأ بظهور الدولة العباسية فى الجزيرة العربية وشمال أفريقيا وانزواء الدولة الأموية فى الأندلس ثم بزوغ الدولة الفاطمية فى شمال افريقيا ممثلة أراضى الدولة العباسية ثم جرت التقسيمات العديدة التى هدت بوحدة الامة الاسلامية وقادت لتدهورها .

. . . .

وجه التشابه بين الصوفيه والرهبانيه

لما كانت المسيحية دين سماوى أنزله الله على الناس ليؤمنوا به وكلف به سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ليقوم بنشر هذه الرسالة قابلت دعوة عيسى من اليهود والوثنية الكثير من التعسف ولاقى المؤمنين بها شتى أنواع العذاب وقد سلك المؤمنون بالمسيحية طرقا شتى فى عباداتهم وسلوكهم الدينى ومن هؤلاء كان الرهبان الذين انتشروا فى مصر فى وديانها وجبالها وصحاريها بعيداً عن لهو الدنيا وهروبا من بطش الرومانيين .

ولما بعث الله عز وجل سيدنا محمدا هاديا مبشرا بالاسلام منذرا بالعقاب ثائرا على عبادة الاوثان وقفت قريش ضده ولقى من العذاب الكثير ولاقى المؤمنين الكثير من الاضطهاد ...

ظهر الاسلام فى النصف الاول من القرن السابع لظهور المسيحية وقد انتشرت المسيحية بين كثير من الشعوب فى شمال الجزيرة العربية وفى مصر وشمال البحر الابيض المتوسط .. وقد سلك المسيحيين مسلكا جديدا في العبادة وهم الرهبان فى انقطاعهم عن ملذات الدنيا وخلودهم للعبادة وذكر الله وقد ظهر هذا المسلك عند بعض الصوفيين الاوائل ونحن نورد هنا بعض الامثلة ونقارن بين حياه القديس انطونيوس من أبناء مصر الاغنياء وبين حياه الصوفى الاول أبو اسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور ...

فقد نشأ القديس انطونيوس المولود عام ٢٥١ م ببلدة (كوفا) بمصر

مركز الواسطى من أبوين غنيين وعند بلوغه سن الثامن عشر توفى والديه فى عام ٢٨٥م وتركاه وأخته بعد أن تركا لهما ثروة طائلة وحدث أن ذهب انطونيوس للكنيسة فسمع الكاهن يقول ان « أردت أن تكون كاملا واذهب وبع كل مالك واعط الفقراء وتعال اتبعنى فيكون لك كنز فى السماء » وقد اعتبر الشاب انطونيوس هذه الفقرة وكأنها موجهة اليه لانطباقها على حاله فخرج من الكنيسة وذهب إلى ممتلكاته وأرضه ووزعها على الفقراء محتفظ ببعض المال لاخته لتربيتها ولكنه عاد مرة أخرى للكنيسة وسمع الكاهن يقول (لا تهتموا للغد) فخرج من الكنيسة عاقدا العزم على أن يسلك مسلكا جديداً فأرسل أخته إلى بيت للعذارى ثم خرج من القرية عام ٢٧٠ م إلى مكان قريب من قريته حيث أقام فى كوخ صغير إلى جوار شاطىء لنيل يدرب نفسه على حياة النسك كما فعل المسيحيون السابقون .

ولما كان قليل الخبرة بحياة النسك وتعاليمها اتصل بكبار النساك وشيوخهم المجاورين له للاستفادة منهم . . ثم رأى فى اقامته فى ذلك المكان خطر على حياته الروحية بسبب رؤيته لبعض النساء اللاتى كن ينزلن إلى النهر للاستحمام فارتحل إلى المقابر القريبة من القرية ، ولكنه لم يطل الاقامة بها إذ هداه تفكيره ، إلى عبور النهر إلى المناطق الجبلية حيث أقام فى حصن مهجور فى منطقة « بسبير » على الضفة الشرقية على النيل . . وعاش هناك لا يتصل بأحد إلا ثلاثة مرات فى السنة حين يحضر اليه المعجبين به الخبز الجاف دون أن يراهم . . .

هذه حياة شاب مسيحى سلك فى حياته الدينية مسلكا جديداً بخلاف ما كان شائعاً عن المسيحيين ثم تأتى بعد ذلك حياة أبواسحق ابراهيم بن أدهم بن منصور تحكى قصة حياته أنه كان من أبناء الملوك خرج يوما للصيد فأثار ثعلبا أو أرنبا . وصار يطارده وأثناء مطاردته له هتف به هاتف يا ابراهيم الهذا خلقت أم

بهذا أمرت ثم هتف به أيضا من قربوس سرجه والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت فنزل عن دابته وصادق راعيا لأبيه فأخذ جبة الراعى من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه ثم أنه دخل البادية ثم دخل مكة وصحب بها سفيان والثورى والفضيل بن عياض ودخل الشام ومات بها ، وكان يأكل من عمل يده مثل الحصاد وحفظ البساتين وغير ذلك وأنه رأى فى البادية ، علمه اسمه الله الأعظم ، قد عاد بعده فرأى الخضر عليه السلام وقال وإنما علمك أخى داود اسم الله الأعظم .

وقد شابهت حياة أبو اسحق المعيشية فى كثير حياة رهبان وادى النطرون والاودية الأخرى وتكسبهم من الزراعة واعتمادهم على عملهم وحياة التقشف .

هذا التشابه فى حياة الرهبان الأوائل الذين عاشوا على النيل وفى السودان كان من العوامل المساعدة لانتشار التصوف فى السودان وظهور مريديها بتلك الصورة لما وجدوه من روايات قديمة عاش أصحابها على النيل أحيوها من قديم الزمان وما جاء فى ذكر الرواد الأوائل من الصوفية مثل ابو اسحق بن إبراهيم بن أدهم وما كانت ترويه الروايات عن حياة الرهبان فى وادى النيل وسواه .

. . .

(١)

الشعر

ما نعرفه عن الشعر :

الشعر ذلك النور الانسانى الذى يضىء النفس ...

الشعر تلك الروح التى تبسط الأرواح المتعبه ...

الشعر تلك الروح التى تنهض بالعقول المرهقة ...

الشعر ذلك القبس الذى يلج النفوس المتعبه فيملأها سماعاً وحياه ...

الشعر رسول انسان طاهر يبحث عن الحياة والخلود ..

الشعر شعاع يضىء كل الآفاق ..

أيتها الشمس اغربى

ودعينى أستلق على الطريق

على أرى خلف الحجب

حتى أرى مالا تراه العيون

الشعر ذلك السراج الذى وقوده أنا وزيته هذه الحياة التى فى العروق ...
وموسيقاه هذه النغمات التى تخلق الحياه وتحيل الانسان إمكانيات لاتحد .

الشعر ذلك القبس الانسانى الداخلى لينير طريق الأبدية

الشعر رحلة بين النفس والذات

الشعر حركة الروح وإنطلاقه العقل

تاريخ الشعر العربى فى السودان

لم تظهر حتى الآن دراسة دقيقة لتاريخ الشعر العربى فى السودان غير بعض الدراسات التى إهتمت بتاريخ الشعر فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين للأستاذ عبده بدوى والشعر الحديث للدكتور الشوش الأستاذ بجامعة الخرطوم وبعض الدراسات العربية التى ألقت بعض الضوء على تاريخ الثقافة العربية فى السودان بدأها الأستاذ محمد عبدالرحيم ومؤلفاته « نفثات اليراع » و« العربية فى السودان » ثم الأستاذ عبد المجيد عابدين « تاريخ الثقافة العربية فى السودان » وكل هذه الدراسات لم تكشف لنا بوجه قاطع عن تاريخ الشعر العربى فى السودان . ولم تدلنا عن مسيرة الشعر العربى فى السودان وهى فى مجملها تابعت دخول العرب للسودان ، ولم تحاول أن تجد رافداً آخر غير تتبع رحلة العرب داخل السودان .

كما قدم الأستاذ الطاهر محمد على آخر رسالة لنيل الماجستير من جامعة القاهرة عن « النزعة الصوفية فى شعر السمانية » وكنا نأمل أن يكتشف لنا هذا التاريخ إلا أنه وقف مع شعر الصوفية فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى مضيفاً غموضاً على تاريخ الشعر العربى فى السودان حتى أصبح نبت بلا جذور ولابداية له ، ولم تعرف روافده الاولى حتى الآن .

ومن أجل هذا حاولنا فى هذه الدراسة البسيطة أن نجد البداية لتاريخ الشعر العربى فى السودان مستشهدين بالوثائق والأمثلة التى إستطعنا أن نعثر عليها .

قسم الدكتور عبد المجيد عابدين فى كتابه تاريخ الثقافة العربية فى السودان الشعر إلى عامى وعامى فصيح وفصيح وهو ذلك قدم الشعر العامى على الشعر العربى الفصيح وقد استند الدكتور عبد المجيد عابدين فى تبويبه للشعر فى السودان على هذه الأبواب على ما وصل إليه من شعر القرن الثامن عشر والتاسع عشر وبداية القرن العشرين معتمداً فى نفس الوقت على أن الثقافة العربية دخلت السودان بدخول العرب إليه . لكننا لو تابعنا رحلة العرب داخل السودان مبتعدين عن الالتحام بالناس طالبين المأوى والأماكن الآمنة حرصاً من دخولهم فى مشاكل مع أهل السودان حتى يضطروا إلى أن يحدوا أنفسهم فى موقف حرج . خلفتهم دولة العباسيين فى مصر التى دفعت بأول موج من العرب الأمويين للسودان . . وحرصا على النجاة من عداوة العباسيين رضوا بالعيش والسهول الخالية من الناس قدر الامكان حتى لا يدخلوا فى عراك أو عداوة ليست فى مصلحتهم ، ولم يقف تدفق العرب على السودان بهروب الأمويين أمام العباسيين إلى داخل أفريقيا أو إلى السودان فى القرن الثامن الميلادى

أول طلائع عربية مسلمة وصلت السودان عام ٦٤١ م — حين أرسل عمر بن العاص بعد فتحه لمصر قائده عبيد الله بن السرح إلى حدود مصر الجنوبية لضم دولة دنقلة المسيحية إلى فتوحات الاسلام ، إلا أن دنقلة قاومت الجيش الاسلامى فى بداية الأمر حتى اضطر الجيش الاسلامى إلى ضربها بالمنجنيق . فأستسلم حاكم دنقلة وعقد صلحاً مع القائد العربى على احترام المسلمين مارين بديارهم أو مقيمين أو مؤدين لشعائرهم الدينية ، والحفاظ على مساجدهم على أن يدفع مسيحيو دنقلة جزية سنوية لحاكم إسوان نيابة عن والى مصر ولكن سكان هذه المنطقة لم ينقطعوا عن العصيان والتحرر من هذا الاتفاق فترات عديدة مما قاد لاعادة الهجوم عليهم المرة بعد المرة .

هذا كان أول لقاء بين العرب المسلمين وسكان شمال السودان المسيحيين والوثنيين الذين كان بعضهم يخضع للديانات الفرعونية فى المناطق النائية عن يد السلطة والكنيسة .

وإذا أردنا أن نتتبع الهجرة العربية فإنها لم تسلك هذا الطريق الوعر الذى تقطنه القبائل المسيحية عند بداية هروب العرب الأمويين أمام العباسيين أو هروب العباسيين أمام الفاطميين فى القرن الثامن الميلادى والقرن العاشر الميلادى داخل أراضى السودان سالكين أرض المدن مبتعدين عن النيل متوغلين داخل أراضى البطانة .

وإذا أردنا أن نعرف أثر هذه الهجرة العربية منذ القرن الثامن والعاشر الميلادى على الثقافة السودانية فلن نجد لها أثراً لأن العرب فى هذه الفترة لم يكونوا فى استعداد لإدخال التأثير وفرض ثقافتهم وديانتهم . إنما كانت هجرتهم تطلب منهم المصالحة والمساومة والتقرب إلى عادات أهل البلد دون إرهاقهم بفرض عادات وثقافة العرب .

وما حدث أن أخذ العرب الأوائل من حياة سكان السودان الكثير ، بعد أن أخذ منهم الترحال والتجوال والبحث عن مأوى ومكان للاستقرار الكثير من ثقافتهم وحضارتهم التى ابتعدوا عن مناخها إلى ظروف معيشية اتسمت بكثير مما كانوا عليه فى حياتهم داخل النهضة العربية الإسلامية التى أعطتهم الكثير من الثقافة والحضارة والمدنية التى لم تتوفر مقوماتها على هذه السهول والقيعان والوديان طلبا للمرعى والرزق والظل .

أنشغل العرب الاوائل بالبحث عن مكان الاستقرار وعن إسلوب للتفاهم به مع سكان السودان وحاولوما أستطاعوا التقرب إلى عادات أهل البلد وتنازلوا عن الكثير من مقومات حياتهم الحضارية حتى إستطاعوا أن يمتزجوا بسكان السودان على ضفاف النيل والوديان والسهول .

وخلال أربعة قرون فقد العرب خلالها إتصالهم بمراكز الثقافه العربية والاسلامية حتى تجردوا فى كل مقومات تلك الحضاره والنهضة . ويأتى القرن الخامس عشر ، وقد حدث الامتزاج الكامل بين العرب والسكان المحليين وأصبحوا عنصرا واحدا ، نجد الحالة الثقافية والدينية فى حالة من الفقر والجهل بتعاليم الاسلام تذكرها لنا المخطوطات القديمة . حيث لم يعد لهم من الثقافة الاسلامية الا أداء فريضة الصلاه اما تعاليم الاسلام الأخرى فقد تبخرت عبر السنين على السهول والوديان وضفاف الأنهار حتى ظهر شكل المجموعات القبليه التى كونت الحلف السنارى مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلادى وإن الامتزاج لم يحدث فى عهد الاجيال الأول أنما حدث بعد الاستقرار فى عهد أجيال جديده شبت على تربه السودان ومناخة .

لقد حاول بعض المؤرخين والباحثين جعل الفترة السابقه لقيام الحلف السنارى بين عبد الله جماع زعيم العبدلاب وعماره دونقس زعيم الفونج عام ١٥٠٥ م فتره إنتشار الثقافه العربية . ولم يستطيعوا أن يؤرخوا غير الفترة مابين القرن الثامن عشر الميلادى وبداية القـــرن العشرين ولم يحاولوا أن يعطونا صورة واضحة من حال الثقافة العربية قبل الحلف السنارى وبعد قيام السلطنه السناريه .... كما أن زعمهم على إنتشار الثقافه العربية بدخول العرب

السودان . وأن كان للعرب أثر ثقافى قبل القرن الخامس عشر فى مجال الثقافة العربية والاسلامية فهو أثر ضئيل لان عملية الرحله داخل السودان كانت بالنسبه للعرب أنفسهم بمثابه إمتصاص الثقافهم ومدينتهم التى وصلوا اليهـا بظهور الاسلام وفتوحاته وأتصالهم بالحضارات الاخرى . . وكل ما خلفه العرب خلال تلك الفتره فى السودان هو نشر التقاليد العربيـة . . وعلينا أن نفرق بين تقاليد العرب و بين الثقافة العربية الاسلامية التى قامت عليها النهضة العلميـة للعرب المسلمين .

بدأت النهضة العلمية والثقافة العربية ظهور السلطنه السنارية ببداية القرن السادس عشر وسيطرة هذا الحلف على جميع القبائل وحفاظه على الأمن وطرق التجاره وإشتراك وزراء وملوك هذه السلطنـه فى التجارة بين مصر والبحر الاحمر وتشجيعهم للحـج وحراسة قوافله الامر الذى فتح البـاب للناس للخروج من السودان فى آمان على إرواحـهم وإموالهم من قطاع الطـرق التجارية وعودتهم سالمين من شر قراصنة القوافل التجارية الذين إحترفوا هذه المهنه .

وإذا أردنا أن نبحث عن حال الثقافة العربيـة والأسلامية بعد قيام السلطنة السنارية فسنجد جهل عام بالتعاليم الأسلامية . . وقد إنتشر الجهل بالتعاليم الأسلامية قبل قيام هذه السلطنة وحتى بعد قيام هذه السلطنه . فسنجد إستمراراً لبعض العادات القديمة التى تتنافى مع تعاليم الأسلام وبما يختص بالزواج على الخصوص فنجد الرجل يطلق المرأه ثم يتزوجها غيره فى نفس اليوم وقد جاء فى طبقات ، ود ضيف الله ، المكتوبه عام ١٧٥٢ م عن حال الثقافه العربية

والاسلامية عند قيام هذه السلطنة الان حيث يقول (لم تشتهر فى تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن . يقال إن الرجل يطلق المرأة ويتزوجها غيره فى نهاره من غير عده) واستمرت هذه الحالة حتى بقيام السلطنه السنارية حتى حضر محمود واحل القصير العركى من مصر وعلم الناس العده فى النصف الثانى من القرن السادس عشر الميلادى . وقد وجد رجال العلم والدين الذين تلقوا العلم بعد قيام السلطنه مشقة كبيرة فى تطبيق التعاليم الاسلامية على الناس وحتى على الذين تلقوا دراسات دينية . ومنهم الشيخ محمد الهميم وزواجه بأكثر من إربعة نساء وجمعه بين الاخوات ، ووقوف دشين قاضى العدالة ضد هذا السلوك وإصرار الشيخ محمد الهميم على إستمراره فى الجمع بين الاختين وتحليله لأكثر من اربعة نساء فى آن واحد لكشف جهل الشيوخ فى تلك الفتره وذلك يرجع لا شك لفتره الخلوه ، التى تلقوا العلم بها . وهذا أمر يبدوا كان شائعا وذلك لابتعاد العرب فترة طويله عن حياة المدينه قبل أن يحدث الزواج والامتزاج والاستقرار . وساعد على هذا الجهل إبتعاد العرب عن المدنية العربية ومحاولتهم الهروب قدر الأمكان عن أى طريق يقرب من يد السلطه العربيـــة الحاكمة إن كان ذلك فى عهد العباسيين أو الفاطميين . حتى فقدوا كل مقومات تلك الثقافة التى جاءت مع الرحالة الأوائل الذين عملوا كجند للدولة الامويه أو الدولة العباسيـة .

ثم جاءت الدولة السنارية وحلت الأمن والاستقرار وبدأت عمليـة الهجرة للسودان عن طريق البحر أو عن طريق مصر وأول من وصل السودان فى عهد الدولة السنارية محمود العركى راجل القصير الذى نزل بالنيل الأبيض بقريه أليس ونشر التعاليم الاسلامية ويقول الشيخ خوجلى ادريس الارباب كانت بين الخرطوم واليس سبع عشر مدرسة خربتها نيران التكل ولم تخم .

فقد كانت قبائل الشلك تمد أراضيها حتى أراضى الجزيرة ويعذى اليها البعض تخريب مدينة سوبة وممالكها .

خط الشيخ محمود العركى أول مدرسة لتعليم اللغة العربية وحفظ القرآن ونشر التعاليم الاسلامية وضمت مدرسته تلاميذاً من مختلف الاقاليم الذى قاموا بدورهم فى نشر تلك المعرفه فى أقاليمهم

ثم بعد محمود القصير عاد طالب سودانى بعد أن رافق قوافل الحج التى كانت تذهب عن طريق مصر ، من دار الشايقية وهو ابراهيم البولاد بعد أن أقام بالأزهر ، الحجاز وألم بعلوم الدين والعربية ودرس بأرض الشايقية خليلا والرسالة ويقال انه أول من درس خليلا ببلاد تفريح وقد خرج الشيخ ابراهيم ابن جابر ان عون بن سليم أئمة رجال الصوفية والعلم بأرض الجزيرة وسنار والحلفاية وشمال السودان .

وقد كان لأولاد جابر الأربعة رعاشتهم أثر كبير فى نشر تعاليم اللغة العربية فى أرض الشايقية وشمال السودان وقد كان يحج إليهم العديد من الطلاب من شتى الأقاليم لتلقى العلم عليهم وهم إبراهيم البولاد وسمى البولاد لان رجلا حلف إن يدخل بيته جميع ما خلقه الله فاتاه إبراهيم بوضع المصحف على سريره واستدل بقوله تعالى وما فرطنا فى الكتاب من شىء فقال له شيخه أنت بولاد البرير . وأخوانه هم عبد الرحمن وعرف بالصلاح واسماعيل وعرف بالورع وعبد الرحيم وعرف بالزهد واختهم فاطمه ام الشيخ صغيرون وكانت عالمه فى العلم والدين .

فاما فى منطقة سنار ورفاعه فقد كان للشيخ تاج الدين البهارى الفضل الكبير

فى نشر العلم والصوفيه وقد تخرج على يده آئمة كبار من رجال الصوفية والعلم .
وإذا أردنا أن نؤرخ لشعر العربى فى السودان فسوف نؤرخ له بقدومة تاج الدين البهارى البغدادى الذى وصل السودان بعد أن أدى فريضة الحج حوالى عام ١٥٥٥ — ١٥٦٠ م أول حكم عماره أبو سكيكين وقد نقل الشيخ تاج البهارى للسودان الصوفية الراقية ونقل منها أحلى انتاجها وهو الشعر ، وقد كان الشعر الصوفى عربى فصيح حفظه الناس وساروا على منواله فى السكنه والذكر .
ومن أثار الصوفية الكبار أبو القاسم الجنيد لذى تسمى باسمه (أبو القاسم الجنيد السودانى) . وقد كان الشعر الصوفى هو أكثر الشعر الذى تداوله الرواة الاوائل فى الخلاوى (الكتاتيب) والزوايات .

وصل الشعر العربى الصوفى أعلى مراتب الشعر الذاتى وأحلاه ، حتى صار على كل لسان . وهو قد جمع بين محبة الله والخوف وقد شبه فيه بعض الشعراء ه الحب بالحب العاطفى الجارف حتى بات هذا الشعر الصوفى على كل لسان عاشق وحبيب وكل محب للجمال والشعر الجميل ومن ذلك قولهم فى الصمت .

أوكر ما أقول إذا افترقنا ... وأحكم دائما حجج المقاله
فأنساها إذا نحن إلتقينا ... فأنطق حين إنطق بالمحال

وكذلك

رأيت الكلام يزين الفتى ... والصمت خير لمن قد صمت
فكم من حروف تجر الحتوف ... ومن ناطق ود أن لو سكت

. . .

وقولهم فى الخوف

أحسنت ظنك بالايام إذا أحسنت ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعندصفو الليالى يحدث الكدر

وكذلك :

لو أن ما بى على صخر لأنحله فكيف يحمله خلقاً من الطين

وكذلك فى باب التوكل لأبى الحمزة الخراسانى .

أهابك أن أبدى اليك الذى أخفى وسرى يبدى مايقول له طرفى
نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى وأغنيتنى بالفهم منك على الكشف
تلطفت فى أمرى وأبديت شاهدى إلى غائبى واللطف يدرك باللطف
تراءيت لى بالغيب حتى كأنما تبشر منى بالغيب إنك فى الكف
أراك وبى من هيبتى لسكل وحشة فتؤنسنى باللطف منك وبالعطف
وتحى محبا أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

وكذلك يقول صديقه المرغشى :

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا نائع أنا عارى
هى ستة وأنت الضمين لنصفها فكن الضمين لنصفها يابارى

مدحى لغيرك لهب نار خضتها   وأجر عبيدك من دخول النار
والنار عندى كالسؤال فهل ترى   أن لا تكلفنى دخول النار

وقولهم فى باب الشكر.

ومن الرزية أن شكرى صامت   بما فعلت وأن برك ناطق
وأرى الصنيعة منك ثم أسرها   إنى أذن ليد الكريم لسارق

وفى باب اليقين

ياعين سحى أبداً. يانفس موتى كمدا   ولا تحبى أحداً. إلا الجليل الصمدا

أما فى باب الصبر فلهم أحلى الشعر كقولهم :

الصبر يجمل فى المواضع كلها   إلا عليك فأنه لا يجمل

وكذلك :

سأصبر كى ترضى وأتلف حسرة   وحسبى ان ترضى ويتلفنى صبرى

وأيضا ..

صبرت ولم أطلع هواك على صبرى   وأخفيت مابى منك فى موضع الصبر
مخافة أن يشكوا ضميرى صبابتى   إلى دمعتى سراً فتجرى ولا أدرى

وكذلك :

والصبر عنـك فمذموم عواقبه　　والصبر فى سائر الأشياء محمود

وايضا ..

وكيف الصبر عـن حـل منى　　بمنزله اليمـين من الشـمال
إذا لعب الرجـال بـكل شىء　　رأيت الحب يلعب بالرجـال

وكذلك :

صابر الصبر فاستغاث به الصـ　　ـبر فصاح المحب بالصبر صبرا

وايضا ..

تبين يـوم البين أن إعتزامه　　على الصبر من إحدى الظنون الكواذبه

وقولهم فى باب الذكر :

ذكرتك لا ، إنى نسيتك لمحة　　وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى　　وهـام على القلب بالخفقـان
فلما أرانى الوجد إنك حاضرى　　شهدتك موجوداً بـكل مكان
فخاطبت موجـوداً بغـير تكلم　　ولاحظت معلوماً بغـير عيان

وقولهم فى الغيره :

أغار عليك من إدراك طرفى　　وأحسد مقلتى وكذا لسانى

همت بأتيانا حتى إذا نظرت　　إلى المرآة نهاها وجهها الحسن

وقولهم فى باب الفقر .

قالوا غداً العيد ماذا أنت لابسه　　فقلت خلعة ساق حبه جرعا

فقر وصبر هما ثوباى تحتهما　　قلب يرى إلفه الأعياد والجمعا

أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به　　يوم التزاور فى الثوب الذى خلعا

الدهر لى مأتم إن غبت يا أملى　　والعيد ما كنت لى مرأى ومستمعا

وفى باب السفر قالوا :

إذا استنجدوا لم يسألونى من دعاهم　　لأية حرب أم لأى مكان

وفى باب التوحيد .

وغنى لى من قلبى وغنيت كما غنى　　وكنا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وفى باب أحوالهم فى الخروج من الدنيا .

كل بيت أنت ساكنه　　غير محتاج إلى السرج

وجهك المأمول حجتنا　　يوم يأتى الناس بالحجج

وكذلك قولهم :

حنين قلوب العارفين إلى الذكر　　وتذكارهم وقت المناجاة للسر

أديرت كئوس المنايا عليهم   فاغفوا عن الدنيا كإغفاء ذى السكر

همومهم جوالة بمعسكر   به أهل ود الله كالأنجم الزهر

فأجسامهم فى الأرض قتلى بحبه   وأرواحهم فى الحجب نحو العلا تسرى

فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم   وما عرجوا عن مس بؤس ولا ضر

وقيل للشبلى عند وفاته قل لا إله إلا الله فقال :

قال سلطان حبه أن لا أقبل الرشا   فسلوه بحقه لما بقتلى تحرشا

وكذلك على ابن على الروذبارى حين وافته المنية قال وهو فى حجر أخته .

لا نظرت إلى سواك   بعين مودة حتى أراك

أراك معذبى بفتور لحظ   وبالخد المورد من جناك

وفى باب المعرفة بالله قالوا :

نطقت بلا نطق هو النطق أنه   لك النطق لفظا أو يبين عن النطق

تراءيت كى أخفى وقد كنت خافيا   وألمعت لى برقا فأنطقت بالبرق

وفى باب المحبة قولهم :

ولما ادعيت الحب قالت كذبتنى   فما لى أرى الأعضاء منك كواسيا

فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا   وتذبل حتى لا تجيب المناديا

وتنحل حتى لا يبقى لك الهوى   سوى مقلة تبكى بها وتناجيا

وكذلك قولهم :

حبيب لى يقول ذكرت الى ... ومى أنسى وأذكر مانسيت

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا ... ولولا حسن ظنى ماحييت

فأحيا بالمنى وأموت شوقا ... فكم أحيا عليك وكم أموت

شربت الحب كأسا بعد كأس ... فما نفد الشراب وما رويت

وقوله :

لى سكرتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من بينهم وحدى

. . .

هذا الشعر الوجدانى الرقيق السامى هو الذى وصل إلى اسماع عشاق الصوفية والمعرفة من تلاميذ تاج الدين البهارى فحفظوه لسهولته وجماله . وحاولوا الكتابة على منواله بعد أن توسعت مداركهم فى اللغة والأدب وبدأوا كتابة الشعر على هذا المبدأ ولكن الحال بالصوفية لم يسر على ماقدر له إن يسير فألتفت الصوفية إلى دنيا أخرى غير دنيا الاطلاع والمعرفة وسبحوا فى عالم روحانى بعيد عن حياة الناس وانكبوا فى العبادة طلباً لحبه الله ليعطيهم كراماته وقدرته وقد كان لبعضهم ما أراد ولذلك إنشغلوا بحب الله عن الاشتغال بالمعرفة وبالاطلاع غير نفر يسير كالشيخ خوجلى بن إدريس الارباب أما معظمهم فقد إكتفى بسنين الدراسة عند شيخه وحفظ القرآن وسماع الرسالة والخليل ووقفت معارفهم اللغويه وقل اجتهادهم فيها وقد كان لهم وجدان كيفية الناس ولهم شوق للتعبير عما فى نفسوهم ، ولكن لم تكتمل لهم المعارف

اللغوية والعروضية لاجادة لتعبير ، وساروا على قول لشعر على طريق السجع مستعملين كلمات محلية و بعض الألفاظ الغريبة الى لها موسيقية خاصة ولبس لها معنى ، وهم و ذلك يظنون انهم يدركون معانى هذه الكلمات لادراكهم لشعورهم حين قول القصيدة ، فتحويهم ذخيرتهم للعروبة عن الافصاح عما فى نفوسهم ، ولكن لتمكنهم بأحساسهم حالة نظم أو ارتجال القصيدة جعلهم يصرون على كلماتهما ، ويجعلوها سراً من إسرارهم وحدهم فى حين أنهم عجزوا ساعة النظم أو الارتجال عن إيجاد كلمات مناسبة لذلك الاحساس .

ولما كانوا أبعد من قول الشعر والعارفين لفنونه فلم يرضوا أن يعودوا لتلك القصائد لتصحيحها وتعديلها بما يناسب الموسيقى والمعنى ووضع الكلمات الجديدة مكان الكلمات الغريبة وذلك لجهلهم بفنون الشعر و لما كانوا نظمهم تعبيراً لفظيا على أحساس موسيقى وعن ايقاع داخلى ظنوه سراً من إسرار الشعر وما عرفوا أن الشعر علم وفن له أصوله وقواعده وأدواته .

ولو أطلعنا على قصيدة الشيخ محمد الهمم وهو من الأولياء الصالحين المتجذبين ردا على فسخ دشين قاضى العدالة لزواجه من أكثر من اربعة نساء وجمعه بين الاختين .

تكشف لنا القصيدة بأن لرجال الصوفيه عالم لايدركه الا أصحابه واعتقادهم أن حال رجال عالم الوحده الصوفيه . والغموض الذى يغلف معانيهم وأعمالهم هو سر معرفتهم للكون والحياه والخالق عز وجل وهى دنيا خاصة بهم وهى دنيا ليست من إختصاص العلماء ورجال الفكر وأن العلم قاصر على ارتياد هذا العالم . . حين يقول . .

فان كنت يا قاضي قرأت مذاهباً   فلم تدر يا قاضي رموز مذهبنا

فمذهبكم تصلح به بعض ديننا   ومذهبنا يهجم عليكم إذا فلا

قطعنا البحار الزاخرات وراءنا   فلم يدر الفقهاء أين توجهنا

حللنا بواد عندنا اسمه الفضا   فضاق بنا الوادي ونحن صعدنا

حللنا بقرب الغاب روحاً مراديا   خرجنا شموساً أحجبت شمس نورنا

الحقنا في العرش على الكرسي اعلى ولوحها   لبسنا ثياب النور بحسن جمالنا

هذا التلميذ من تلاميذ الشيخ تاج الدين البهاري رضي الله عنه . أخذ عنه الصوفية ولم يأخذ منه العلم حتى أباح لنفسه الخروج على تعاليم الاسلام والدين وجعل نفسه فوق القوانين والشرائع وأنه من طبيعة أخرى وأن له غير ما للبشر مما جعل القاضي دشين قاضي العدالة يستنطقه بعد أن شكت اليه الناس في أريحي قرب رفاعه وخروجه على المألوف من عادات الناس وتعاليم الاسلام .

هذا الشعر الذي قاله الشيخ محمد الهميم رغم أنه لم يكمل معارفه اللغوية والعروضية مع الشيخ تاج الدين البهاري إلا أن ملازمته له وسماعه للشعر الصوفي الصافي الموزون الفصيح جعله يقول هذا الشعر وإذا قرنا كلمات هذا الشعر الصوفي بالشعر الذي أتى بعد ذلك لتلاميذ رجال الصوفية على شيوخ الصوفية وأنهماكهم في المعرفة الربانية دون الاهتمام بالعلوم واللغة جعلهم ينظمون الشعر باللغة العامية والفصحى وذلك لاجتهادهم في العبادات وقلة إطلاعهم في علوم الفلسفة واللغة والفقه الامر الذي انحدر بتفكيرهم وأصبحت أحكامهم عبارة عن

تصورات لاتقوم على منطق أو دليل وكذلك جاء شعرهم بعيداً عن الفن وقواعده وهو ضد القواعد والأصول .

ومثل ذلك قول الشيخ الصالح بأنقا الضرير من الأولياء الصالحين ومن الصوفية الكبار فى مدحه للشيخ محمد الهميم .

هـذا المربى الـكرام سادات	سلطان زمانه فأطلبوا دعوات
الشيخ محمد يوم لتى الرضات	هو شفيع لى يوم تنكشف العدرات
لا أنا عانى منها ولا الجنان	يشتاق لها نظر الآلة حاجات
المولى مقصوره أعطـاه	تاج الدين أبوه وشيه حالات
مروى عن سيد السادات	بيت الآلة فيه يصلى أوقات

وهنا نلحظ الفرق الكبير بين شعر الشيخ محمد بانقا والشيخ محمد الهميم فالثانى لازم تاج الدين البهارى وجعله حلفاً له وقال شعراً شبه فصيح ولم يكن من تلاميذ الصوفية المجتهدين ثم جاء الجيل الذى تتلمذ على الرعيل الأول الذى عادى المعرفة والمنطق ولذا لم يستفد الشيخ بانقا علوم اللغة العربية وأنما كان إهتمامه بأمور الصوفية أكبر لذا لم يتوسع فى معرفة العروض والمروصية وجاء شعره عاميا متأثراً بموقف شيوخه

كان تلاميذ الشيخ تاج الدين البهارى أكثر فصاحة فى شعرهم كجيل والدوكلما سار الزمن وتتلمذ التلاميذ على شيوخ الصوفية الذين اهتموا بالمسائل الروحية وأهملوا المسائل العقلية رأينا الشعر ينحدر إلى العامية للفصحى ومن ذلك قول تلميذ الشيخ محمد الهميم الشيخ سليمان الطوالى الزغرات حين قال فى عروسه التى تزوجها فوق أختها حين رفضت الدخول عليه .

يادى العـروس البـكاية	غاروا عليك أهل الراية

جعلوك قصبة وشاية

وقد شاركت النساء فى قول الشعر الصوفى ومنهن امرأة من نساء قرى بلد العبد لاب حين مدحت الشيخ شرف الدين عبدالله الوكى

شرف الدين أنا مالله وبيك   بالماسكى الشباك بأيديك

من خلانى نعلاتأتى وجليك   كل يوم اتبركى بيــــك

ياشجيره وقت الله أداك   لانيلا سقاك لامطر أجاك

ولد عركى كل يوم يغشاك   سوالكى ورقيماً يمشاك

ومن الصوفية الذين ألقوا الشعر الولى أسماعيل صاحب الربابه بن الشيخ المكى الدقلاشى ومن أخباره أنه حين تأتيه الحاله يمشى فى حوش منزله ويحضر البنات والعرايس والعرسان لرقيص ويضرب الربابه كل ضربه لها نعمه يفيق منها المجنون وتذهل منها العقول وتطرب لها الحيوانات والجمادات حتى أن الربابه يضعونها فى الشمس أول ماتسمع صوته تضرب من غير أن يقيم بها أحد ومن أشعار فى الحرب وفرسه .

بنت بكر المرداريوادبوا   سلطيه العرضه ديودبوا

وفى غزله فى الجمليه الكرتانيه

حره الفوتيح عرق طالب الدبيبه   قبصه لا كاب حاقب له عينيه

خشم تهجه شبيه ابن الكبيبه   كفل من تور توانى ولد دليبه

وكذلك

صاح مطر الصعيد وصاح المقرر حميف القلب من الكمكاع مرد

خشم تهجه عن الكذب مجرد مربسته هوترينه وورا متد

وقال كذلك

صب مطر الصعيد وعاش بالبت عايد فوق خشم البيوت جروا الكسايد

النسوان بلا هيمة ام قلايد لحم سوق رفيعى مشبر بحدايد

صب مطر الصعيد وطاق علينا ردة خشم هيبه يشبه طيات البحر دوا

تعجبك فى الرقيص حين ماتهرده ياهنيه من هواها وقضى غرصة

ولما سمع زوجها بذلك رحل بها إلى تعلى وسمع الشيخ بذلك فقال

نسل السيف تلوح فوق أم قباله تكرب الزم مكان أسمع مقاله

وجه من قطع فوق الصناقله نحلات عروسك ديك بطاله

نسل السيف تلوح فوق أم عوايد نطلب المنكشو ام ضبعاً موافق

وجه من شافت الجمل تلافق نحلات عروسك ديك مايتوافق

تشبل نحنفل فوق أثرها نثق ام رنزت البهنه مطرها

مهره الصنلاوى المكنور طهرها تعاقى المورود الداخل كبرها

إذا أردنا أن نقيم هذا الشعر لاشك فسوف نضعه مع شعر الصعاليق شعر المتمردين على القوانين الاجتماعية كما كان يفعل معظم شعراء العرب فى مطارده

نساء وخليلات الرجال واستباحوا لنفسهم هذا الحق .

فطباع الشاعر العربي مازالت في دماء هؤلاء العرب الذين استوطنوا السودان ولاشك أنهم أدخلوا نماذج كثيرة لم تحفظها لنا المخطوطات

إنتشر الشعر الصوفي الفصيح في النصف الأول من القرن السادس عشر وصار يتدرج في بيوت الصوفية الذين لم يهتموا بقواعد اللغة وفنون الشعر إذ كان اهتمامهم التوصل إلى أرضاء الله عز وجل وظهور الكرامات عليهم حراما لحبهم لله وصار الشعر ينتقل من فصيح إلى فصيح وعامي وعامي حين جاء القرن السابع عشر فانتشر الشعر العامي بين الصوفية وابتعدوا عن شعر الوجدان والحب

وذلك لقلة إهتمامهم بالاطلاع على كتب الصوفية الاوائل ومناقشتها واكتفوا بما ظهر لهم من كرامات عند بعض شيوخهم ماشغلهم عن العالم الخارجي وصاروا يتناقشون على الايمان بهذه الكرامات والخوارق ، وأهتموا بما يوصلهم إلى هذا المستوى وقل اهتمامهم بآداب الصوفية الاوائل واجتهادهم في علم التوحيد والعلوم العقلية وأستمرت هذه الحالة بعدم الاهتمام بالعلوم العقلية خلال القرن السابع عشر والثامن عشر حتى عصر الشيخ أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية الذي إستفاد من تجواله في البلاد العربية الحجاز ومصر وبيت المقدس وأحضر معه من الكتب والمخطوطات ماجعله يرتفع بمستواه العلمي في حالة التجرد والهيام إلى عالم العلم والحقيقة وكان محمد احمد الدنقلاوي الذي لقب فيما بعد المهدي خير شاهد على مكتبه هذا الشيخ العالم التي استفاد منها المهدي خلال عشرين عاماً حتى استطاع أن يتمرد على سلوك شيوخه من الصوفية لما رآه من تعاليم التي تعارض ماقرأ وما أدرك من عالم الدين والحقيقة .

بدأ الشعر العربي في السودان بعد قيام دولة سنار في بداية القرن السادس عشر وليس بدخول العرب السودان لأن رحلة الاستقرار الطويلة غير عشرات السنين التي استهلكت فيها الاجيال الاولى حياتها عبر الوديان والسهول والحياة المتحالمة للبحث عن مصدر عيش ومأوى بحرت من عقول الاجيال الاولى والاجيال التي تلتها كل مقومات الثقافة والحضارة داخل هذه الحياة البدائية حتى أطلوا على الحياة الجديدة بتفاهموا ويعاشروا أهل السودان .

بدأ الشعر الصـــوفي بعد رحلة الاستقرار التي كان نتيجتها الحلف السنارس شعر وجداني رقيق بسيط الكلمات رقيقها حبيب إلى النفس وذهب حيث ذهب الصوفية وحيث ذهبت الرسالة والخليل ومريديه في ذلك قول الأوائل في الصوفية. وكان هذا الشعر أجمل شيء يبقى في النفس دون إرهاق للعقل والوجدان ، إلا أن الصوفية أوقفت تطورها الثقافي لقلة الاجتهاد في كثير من الأحيان ولم ينتجوا لنا غير بعض المخطوطات القليلة من المجتهدين مثل كتاب في الطريق وآداب الذكر للشيخ إسماعيل صاحب الربابة وكثير من المخطوطات في تفسير الرسالة والخليل وبعض الدراسات في التوحيد والصوفية ولم تصل لنا من تلك المخطوطات إلا إخبارها حتى نستطيع أن نقيم مادتها وسعة إطلاع أصحابها وعمق فكرهم إلا إن هناك ظاهرة يجب الوقوف عنها ، وهي تلك الزيارات التي كانت بين رجال الصوفية لشيوخهم وتدارسهم في بعض الأمور ومحاولة الاستفادة من شيوخهم المشهود لهم بالعلم كما كان يفعل تلاميذ الشيخ خوجلي بن إدريس الأرباب وكذلك تلاميذ الشيخ الزين بن صغير من بلاد الشايقية حيث كانت حلقة علمه أكبر حلقة علم عرفها العصر وتخرج على يديه العديد من الشيوخ والفقهاء والقضاة . وقد توفي في النصف الثاني من القرن السابع عشر عام ١٦٧٥ م بالقوز بالقرب من مدينة شندي .

وقد رثاه الشيخ محمد ولد الهدى بشعر ركيك يقاس هذا الآن بأنه يمثل ذلك العصر فيعد محاولة جادة لكتابة الشعر العامي الفصيح لقوله :-

فكم من رجال لهم شأن ومعرفة	بسبب علمه سموا كالأنجم الزهرا
إلى الغروب جرى الاسلام علمك ذا	بلاد البوادي ومأتي الأرض مصرا
نشرت علماً على الآفاق تعرفه	كل النواحي وأهل البحر والحضرا

ياعين أبكى على الاستاذ لاترخى ‏ ‏ ‏ ‏ وفيض دمعاً غزيراً جاركا المطرا

من اذا يكون بعدك للطلاب بأهلهم ‏ ‏ ‏ ‏ بأنطلاق وفرحات بلا كشرا ؟؟

ومن شعرهم العامى قول الشيخ فرح ودتكتوت فى رثاءه للشيخ أبو بكر ولد قدير ومايحكى عن مستوى العلم فى ذلك العصر ، قصة الشيخ ابو بكر ولد قديره يحكى أن درس مختصر الخليل على شجرة الذين مره واحده وأذن له بالتدريس ، وكان هذا مستوى إساتذه العلم وقد اشتهر الشيخ ابو بكر بالعالم الجليل وتخرج على يدية علماء وشيوخ وهذا يكشف لنا مستوى التقدم العلمى فى عصرهم قبيل فى المعرفة بعد علما وبسط الحاصير الخاطه ويسمى صاحب هذه المعرفه اليسيره بحر العلوم كما قال فية فرح ودتكتوك .

اين ابو بكر المدرس ‏ ‏ ‏ ‏ فى النصوص بجمع يكرس

فوق مطايا المدرس ‏ ‏ ‏ ‏ حتى يصبح الخلق مكرس

ومن شعرهم العامى مدحهم أيضاً هذا الاستاذ من تلاميذه

جبل الهايمة البقيت لهما ركازة ‏ ‏ ‏ ‏ فى غرب دار صليح الى شرق بلود الإيارة

ذهب التاجر لما قلبة العطار ‏ ‏ ‏ ‏ مثل الشمس خفيت الجبة مع العكار

وقال آخر .

بالكاف كفاية الهايع الجيعان ‏ ‏ ‏ ‏ فى الونح بلعرب الهطرولا وزان

رحمة من بوادى الحلقة الرحمان ‏ ‏ ‏ ‏ أم الخابز فاقت على النسوان

بالام فى سرايا قوم الهيم ملم ‏ ‏ ‏ ‏ دود الكرده البيكرف نقعة دم

الجود والعباده غيرهما مام   مكه بجاسه وقت الرجل تنضم

ومن شعرائهم أيضاً الشاعر أبوجروص شعر الشيخ إدريس الارباب قال فى إبنه حمد على قلة عطامة للشعراء خلاف ما كان يعمل أبيه من تكريمهم وعطاءهم .

الشعبة الكانت تانيه   إنكسرت وأدتنا السيه

تركت حمد القلبية   لامن جات قال ادوها الميه

وقال فى مدحة على كثرة الكسرة والذبح

ولد عشوم معاكم ملم على حمدن   دار أبوه بوبت صوت من اشقين

ود القرشى صماته مابة وأمين   هيلك هيل إبوك ياجامع اشرفين

وفى الشعر الصوفى شعر الشاعر القرشى شعر الشيخ أحمد ولد ادريس .

وهذا مثال لشعر المدح والذم ، فقد تعود الشعراء على عطاء الاشياء ويغنون لهم كما فعل شعراء العربية ، وهذا خير مثال لغضب الشعراء على ابن الشيخ ادريس حين أوقف العطاء وأكثر فى الطعام واشار الشاعر بأن هذا ؟ ! وليس ملكه .

شوت عود وشود أبو نخيره

شمرت ديمو وشمرت العبدسعيد

حوم شرف نار البريده

بطنك من أكل الحرام بدينة　　جزم ما تكرع الشيدة

وقال فيه شاعر :

عبد الملك بحلف طارد الصعلوم　　طاردناس ابوحمد صقر الخلا الملقوم

داوى تحت صفه لصق مسموم　　ورقدها جبينة وتوم الخرطوم

من سنار مرق ولد التاى حباك　　يجى فى الرقيق والخلوق تمباك

أبوى بيد المليحه المسكت الشباك　　صقع العبد بعصا ومقه حاشاك

ومن شعر الشيخ أحمد ولد الطريفى الصوفى :

أدانى الله أدانى　　زهدنى فى كل فانى

عشق به اضنانى　　فى ذاته أفنانى

أيضا به أبقانى　　يجرى كما طوفان

خلى من غرقانى　　اضحى من الفرسان

وهذا من شعر المجذوب الذى يأتيهم ساعة الغيبوبة غير محكوم بمقاييس العلم ولا المنطق ومن الغريب أنهم لايعدون هذا الشعر الذى لايدرك معناه غيرهم لانه كلام أتى فى ساعه غير طبيعية ومعانى غير معروفة وكلمات غير مطروقة حتى جعلوا معنى هذا الشعر سرا من أسرارهم مع أنه خال من المعنى والمنطق ، وقد حاول بعض نقاد البحث عن معانى كلمات شعراء الصوفية التى ليس لها معنى حاولوا أن يجدوا لها دلالة منطقية إلا انهم عجزوا .منهم من سماها مصطلحات

صوفيه متعارفه عند الصوفيه ـ كمثل هذا الكلمات : كو . كو ، سكم ، بكم ، . بكم آح على هذا الوزن وفات عليهم حالة الانطلاق الشعوريه ، وعدم التقيد بمنطق وواقع ساعه الدفق الصوفى : والشعر الذى قالوه فى تلك اللحظات ليس شعرا له معنى ودلاله ، إنما هو نوع من الموسيقى اللفظيه الموجوده فى الكلمات والحروف العربية يستعيض بها الصوفى ساعه غيبوبته فى ضربات النوبه والطار وموسيقى الذكر المصاحبه فكل ألفاظ أشعارهم ماهى إلا البحث عن موسيقى صوتية تساير حالتهم المضطربه القلقه الباحثه عن شىء ساعة الانجذاب . إلا انهم رغم ذلك اعطونا صوره متعدده لهذه الشخصية فهى مرة شخصيه عالم ومره فارس ومرة رجل خوارق ومرة شخصية لرجل ورع صالح وتارة شخصيه لانعرفها ولانعرف ملامحها حيث لانعرف كلامهم .

إحتلت الشخصية الصوفية ذات الكرامات والخوارق مكانه كبيره فى المجتمع السودانى . أولا لاهتمام رجال الصوفيه بهذه الخوارق وهذه الأفعال الغريبه على الانسان وتفسيرهم لهذه العادات تفسيرات تختلف عما إعتقده كبار الصوفيه فى العصر العباسى والفاطمى . وقد فسر الصوفية الاوائل بأن المعجزات فى صفات الانبياء وليست لسواهم من البشر وما يظهر على البشر من بقية المسلمين من كرامات ماهى إلا اكرام لمحمد فى عبادة المسلمين وهى امتداد لاكرام الله لنبيه .. ولكن رجال الصوفيه فى السودان انفردوا بتفسير غريب لهذه الكلمات وذهبوا فيها مذاهب شتى وجعلوا أنفسهم موضع الاهتمام والتنافس حتى لهوا الناس عن عظمة الخالق ونبيه وانشغل الناس بالحديث عنهم وطلب المغفره والرحمه والشفاعه منهم أكثر من توجيه عقول الناس إلى أنهم لا دينا ولا شيئا بالنسبة للخالق العلى ونبيه خاتم المرسلين وقل حديث الناس عن عظمة الخالق ومعجزات أنبيائه ورسله .

ونرى ذلك فى شعرهم وهو أكثر الشعر الصوفى الذى قيل فى القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ولم يتطور للشعر الصوفى الأول إلا فى القرن التاسع عشر والعشرين ، مثال ذلك قول الشيخ طه الحاج لقانى فى شيخه حسن ولد حسونه :

سلام الله ربى ذى الجلال ... على شيخ الطريقة والوصال
سلام فى غداه وهمساه ... على الشيخ المكمل بالخصال
والحقه التحيه الف مره ... والف سلام خير نوال
جميع الخلق قد جزمت عليه ... بحسن الحسن فى حسن الفعال
تحيته تغلب كل خير ... وتبعد عن كل ذى شر وبال
ونرجوا أن نفوز به جميعا ... بدنيانا واخرى بالمالى
ويسعدنا الآله بجاه من ... حماك الله يا بن خال من دث الخلال
وانى فى حماه وجميع اهلى ... وما أرجوه من كل الامال
بفضل الله ثم رضاه على ... أروم بحبه نيل التوالى
فما أنسا كموا فى كل وقت ... بليل أو بصبح والزوال
فلا تنسانى وفى اللحظات أنى ... غريق الذنب فى بحر الخيال
فذاك جفاء فى بعادى ... ولكنى أخاف من الكلال
قال زرنا إتينا باجتهاد ... وأنى عندنا لقصدك واشتغال

وهذا الشعر إذا قيس بالشعر الصوفى لانبعد عنه وتنكر له وفيه لرفعة الإنسان ووصفه بالكمال الذى لا يتصف به الا عز وجل والقصيدة بعيدة كل البعد عن الشعر الصوفى وهى تمجيد للفرد وعبادته وتشبيهه بالانبياء واعطائه من صفات الخالق عز وجل . .

كما أهتموا بحالات رجال الصوفيه ومتابعتها وتسجيلها لتنشر بين الناس ويتناقلها جميع الناس مثل ذلك قول الشاعر فى عيسى ولد كنه :

ولد كنت لما جاتيه الحاله　　　دقو له الزردات بالسنداله

المولى سبحانه وتعالى　　　خل النار له شلاله

هذا هو الموضوع الذى شغل الشعراء وجمعت الصوفيه الكثيرين من المنجذبين غير المتعلمين والمهتمين بعلوم اللغة والدين وكما أسلمنا فى الاطلاع عند الكبرين من الصوفيه واكتفوا بالكرامات والخوارق مما عاد بالشعر من الفصحى إلى العاميه والفصحى إلى الخاصيه إلى ثم لغة غير مفهومه غريبة على الفصحى والعاميه ، وسنتابع رحلة الشعر فى القرن التاسع عشر فى حديث عن الثقافة فى ذلك القرن .

حيث بدأت مرحلة جديده فى حياة السودان والثقافة العربية ببداية القرن التاسع عشر الميلادى وعاد الشعر إلى أصله العربى واخرج طلاب المعرفه من عالم الكتاتيب (الخلاوى) الى عالم الازهر وأروقته وأخذوا من معارف العرب وتراثهم .

* * * * * *

وقفة مع الثقافة فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر الميلادى

لمعرفة الحياة الثقافية والعلمية فى القرن التاسع عشر الميلادى لابد لنا من معرفة الحياة العلمية فى القرن الثامن عشر الذى أشتهر بمنطقتين رئيسيتين كان لهما الأثر المباشر فى حياة الثقافة والفكر خلال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين . وقد نبع هذا النشاط من منطقتين هما الدامر حيث آل محمد المجذوب وأرض الدروراب حيث أقام أحمد الطيب شيخ الطريقة السمانية التى غلبت كل الطرق الصوفية فى السودان وعلتهم مكانة وخرجت الكثيرين من رجال الصوفية والعلوم الدينية ومنهم الشيخ نور الدائم وتلميذه محمد أحمد الدنقلاوى صاحب الثورة الثقافية والدينية على المعتقدات القديمة وتجاوزه شريعة وعلوم الدين وعلى أعراف الصوفية .

فقد خرجت مدرسة السمانية ثلاثة رجال كان لهم أثر فى الثقافة والفكر فى السودان أولهم الشيخ أحمد الطيب ونور الدايم والشريف محمد نور الدايم والعلامة محمد أحمد الدنقلاوى تلميذه وزعيم الثورة المهدية .

الشيخ أحمد الطيب صاحب الطريقة السمانية إصله من قبيلة البجموعية ولد فى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى أى فى النصف الأول فى القرن الثامن عشر الميلادى وتوفى عام ١٨٢٤ م . حفظ القرآن وعمره خمسة عشر عاما وسافر إلى مكة حيث واصل دراسته على يد القطب الكبير محمد السمان لدى اقامته [illegible] الصوفية وأخذ منه الشيخ أحمد الطيب الطريقة السمانية . ولما عاد للسودان نشر الطريقة السمانية التى فاقت جميع الطرق الصوفية . وقد كسب الشيخ أحمد الطيب

أحترام ملوك السلطنة السنارية وشيوخ العبد لاب ومنحوه الأراضي الواسعة الى وهبها بدوره للآخرين .

ومما يدعو للوقوف ما جاء في مقال الشيخ عبد الله الطيب نور الدائم في جريدة السودان العدد المنشر بتاريخ ١٧ ١٩٠٣/٠٩ . وحكى أن جده أحمد الطيب قد يئس من حكومة السلطنة السنارية والفوضى التى كانت تعيش فيها وقارن تأخر بلاده بالبلاد العربية التى كان يزورها ودعى سلطات الحكومات العربية لدخول السودان وتعميره وتطويره في الادارة والثقافة . وقد كان نظرة الاستاذ احمد الطيب نظرة حضارية وذلك لاتاحة الفرصة للسودان ليتصل بالامم المتقدمة ويدور في فلكها لتحرر من التخلف والجهل وذلك للاستفادة من خبرة تلك البلاد ولكن دعوته هذه لم تلق إستجابة عند الاتراك وذلك لجهلهم بخبايات السودان وظنهم إن السودان بلد متوحش أهله من الزنوج وليسوا من المسلمين وما سمعوه من الروايات الخرافية الكثيرة التى كانت تقال عن سكان افريقيا ...

وقد قال الشيخ عبدالله الطيب نور الدائم شيخ الطريقة السمانية بمصر بعد أن هرب من يد الخليفة عبدالله ، قال لما عاد سيدى الشيخ أحمد الطيب من الاراضى المقدسة وزار مصر وبيت المقدس والعراق وأكثر البلاد الاسلامية ورأى ما فيها من التقدم والعمران بالنسبة لحالة السودان أحب ان تصير بلاده مثلها فكان لاينفك عن دعوة الاهلين إلى السعى إلى ضم السودان إلى حكومة مصر والقضاء على دولة الهمج التى لايرجى منها أن تسير بالبلاد في الطريق الذى سارت فيه مصر والشام..

وقد كان أخوته وبنو عمومته القابضين على خطط هذه الدولة لهم منهما وظائف الوزارة وقيادة الجنود ومراتب القضاء والكتابة وسائر خطط الدولة . . .

أشار على الدولة بإصلاحات كثيرة وبث الرغبة فى افئدة الكثيرين من طلاب العلم ليغادروا ديارهم لطلب العلم حتى لو بالصين فعادت مساعية بالنجاح وانتشر علم الدين فى الافاق بعد أن كان الناس يسافرون الأيام والليالى ليصلوا إلى بيت عالم يفتيهم أو يعقد لهم نكحه .

حديث الشيخ عبدالله الطيب عن جده أحمد الطيب يكشف لنا عن مركز ثقافى هام أنشأه الشيخ أحمد الطيب بالقرب الخرطوم وقد نتج هذا الاهتمام بنشر الثقافة والعلم من الخبرة والضوره التى يراها الشيخ أحمد الطيب فى البلاد العربية التى كانت تعيش فى اسوأ حالتها والكها رغم ذلك رأى فيها من مظاهر التطور والعمران إذا قيس بحال السودان المتخلف تحت ظل السلطنة السنارية ، كما يكشف لنا تأثر مدرسة الشيخ أحمد الطيب فى تخريج القضاة والمعلمين والمستشارين لحكومة السلطنة السنارية فى عهد الهمج وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى وبداية القرن التاسع عشر ..

مدرسة المجاذيب :

احتلت المدارس مكانة كبيرة فى العصر الثامن عشر والعصور التى تلت ذلك فصل شيخها أحمد المجذوب ، حفظ القرآن على الفقيه عبد الماجد تفقه فى خليل والرسالة على الفقيه مدنى بن محمد وعلى الدراوى وعلم الكلام عن الحاج سعد وحج إلى بيت الله الحرام وأخذ الطريقة الصوفية الشاذلية على يد الشيخ على الدراوى ..

وأنتعشت الدامر بحياته فقد قام للتدريس بها فى شتى العلوم والفنون والأحكام وهو من جمع بين العلم والعمل .. وقد كانت تخاف منه الأعراب وقطاع الطرق وقد جاء فى كتاب بوركهارت فى رحلاته فى بلاد النوبه وصف مدينة الدامر له فى ١٠ أبريل سنه ١٨١٤ م .

يقول الدامر قرية أو بلد ، كبيرة قوامها خمسمائة بيت وهى نظيفة تفضل فى شكلها بربر لما فيها من المبانى الجديدة ولخلوها من الخرائب فى بيوتها شىء من التنسيق وشوارعها منتظمة وتنمو فى كثير من أرجائها الأشجار الوارفة الظلال ويسكنها عرب من عشيرة آل المجذوب ويردون أصلها إلى جزيرة العرب وجلهم من رجال الدين أو الفقراء وليس لهم شيخ يتزعمهم بل فقيه يسمونه الفقى الكبير وهو الرئيس الفعلى والقاضى الذى يفصل فى خصوماتهم ويشتهر آل مجذوب الذين أصبح هذا المنصب وقفا عليهم من قديم بما تجب عشيرتهم من سحرة وعرافين مهرة لا يحجب عنهم غيب ولا تقاوم لهم تميمة . .

ويخيل إلى أن وظيفة الفقى الكبير وراثية ولا بد أن يتوافر فيمن يلبها بطبيعة الحال الذكاة . ورجاحة العقل والفقه فى الشريعة لأن هذه كلها من مقومات وظيفته على أن الفقيه الكبير ليس ساحرهم الأوحد فغيره من الفقهاء الأقل شهرة كثيرون من يؤمن الناس بهم على قدر تقواهم وعلمهم وهكذا اكتسبت بلدة الدامر بأسرها صيتاً ذائعاً وفى البلدة يمارس الناس التعلم فى مدارس عدة يؤمها الطلاب من دارفور وسنار وكردفان وغيرها من أنحاء البلاد ليدرسوا الفقه دراسة تبيح لهم أن يكونوا فى بلادهم فقهاء كباراً .. ويقتنى فقهاء الدامر من الكتب الشىء الكثير ولاكنها لا تتناول من المواضيع غير الدين والشريعة

ورأيت فيما رأيت نسخة من القرآن لا تقل ثمنها عن أربعمائة قرش ونسخة كاملة
من تفسير البخاري تساوي ضعف هذا المبلغ في مكتبات القاهرة وقد جلب هذه
الكتب من القاهرة الشباب من فقهاء الدامر أنفسهم وكثير منهم يجاور الأزهر
الشريف أو في المسجد الحرام بمكة ويظلون سنوات ثلاث يعيشون على الصدقات
والجرايات . فإذا عادوا إلى الدامر علموا الطلبة تلاوة القرآن وأعطوهم دروسا
في التفسير والتوحيد ولهم جامع كبير حسن البناء ولكنه بلا مئذنة وتسنده
عقود من الآجر وأرضه مفروشة بالرمل الناعم وجو الجامع ألطف أجواء المدينة
وأرطبها وإليه يأوي الغرباء للتقيل بعد صلاة العصر ويلحق بالجامع مكان
مكشوف تحيط به حجرات للدرس . ولكثير من الفقهاء زوايا صغيرة
إلى جانب بيوتهم ولكنهم لا يصلون فريضة الجمعة إلا في الجامع الكبير ويحيط
كبار الفقهاء أنفسهم بمظاهر الورع والتقوى ويعيش الفقي الكبير عيشة العابد
المتقشف فهو يسكن بناء صغيرا يقوم وسط ميدان كبير من ميادين البلدة .
وقسم من البناء مصلى والقسم الآخر حجرة مساحتها نحو اثنى عشر قدما
يقيم فيها ليل نهار لا يبرحها ، بعيداً عن أسرته وحيداً لا خدم معه ولا أتباع
وهو يعيش على ما يرسله له أصدقاؤه أو أتباعه من فطور وعشاء وإذا كانت
الساعة الثالثة عصراً بارح حجرته بعد إعكافه سحابة نهاره للقراءة والدرس
ثم اتخذ مجلسه على مصطبة من الحجر أمام داره والتف به إخوانه وأتباعه
فجعل يصرف أعماله حتى الغروب . . . وذهبت مرة لأقبل يده فراعني منه محيا
وقور وطلعة جليلة وكان يلتف بعمامة بيضاء تغطيه كله .. وكان يجلس بجواره
شيخ مغربي مكناسي قدم من مكة يشتغل عنده كاتباً ويصرف له كل أعماله الرسمية
وذكروا لي أن هذا المغربي استطاع أن يجمع من وظيفته مالا طائلا .

ويلوح لى ان شئون هذه الدولة المدينية الصغيرة تصرف بمنتهى الحكمة والعقل وجيرانها يكنون للفقهاء أعظم الاحترام والاجلال . ألقوا الرهبة فى قلوب البشاريين الغادرين فلم يسمع أحد . انهم اعتدوا على دامرى يعبر الجبال من بلده إلى سواكن : وأخوف ما يخافه البشاريون أن يقطع الفقهاء عنهم المطر بسحرهم فتهلك اغنامهم ومواشيهم .

أما الزينه والفنادق فيقول بوركهارت عن أهل الدامر (وتزين نساء الدامر غرف جلوسهن بعدد كبير من الصحون الخشبية الواسعة يعلقنها على الجدران فيبدوا وكأنها الصور الكثيرة . أما الأرض فيغطيها بالحصر الجميلة مختلفة الرسوم والألوان ولاغرو فالقوم خبيرون بصنع خوص الدوم وكذلك رأيت بيض نعام وريش نعام أسود معلق على الحائط فوق الباب للزينه) .

مع الفن :

إذا وقفنا مع الفن فى هذه المنطقة حتى شمالها وجنوبها إلى منطقة أبو حمد والخرطوم نجد تشابه الحياة الطبيعية على النيل بالنسبة لشمال الدامر وبالنسبة لجنوبها ويكاد الدامر أو نهر عطبره بداية لوجود تربة جديدة جنوبه وشماله حيث تختلف النباتات الطبيعية بعض الشيء وتظهر أشجار الدوم والنخيل وفى الجنوب تبدأ الاراضى الواسعة على الشاطىء الصالحة للزراعة مثل زراعة القطن بكميات بسيطة بجانب الخضروات والذره وتقوم على الشاطىء أشجار (السنط العربى)

وإذا أردنا أن نتتبع الفن فى هذه المنطقة سوف نجد الامكانيات الطبيعية

هى التى تشكل الفن وهى الدوم والنخيل والتربة الصلصالة عند الجزائر والشواطىء الرملية بعيداً عن الشاطىء وبعض الاحجار والحصى . والموشى وجلودها وزعفها وقد استغلت هذه الامكانيات استغلالا مختلفا عبر العصور وقد استعملها الفراعنة للعبادات وتجميل المعابد وزينة النساء واستخدمها المسيحيون إستخداماً جديداً فى التعبير عن البساطة وحياة المسيح والعذراء واستخدمها سكان النيل بعد دخول العرب والاسلام زينة للمنازل وللنساء وحياة المنزل وهو استخدام يتطور بتطور الفكر الدينى وليس الفكر الجمالى ، فاعمالها قد أخضعت فى العصور الوسطى بعد دخول العرب وأصبح الاهتمام بالاشكال الجميلة نوع من الترف والانحراف الدينى وأصبح الجمال هو خواء الروح واجتهدوا لتعويض هذا النقص فى مظاهر الجمال الصناعى بخلق جمـــال معنوى نابع من الاخلاق والعادات والتقاليد ...

وقد ظهر نوع من الزخرفة فى ملابس الدراويش والصوفية فى العصور الوسطى امتد حتى القرن العشرين كان فى مجموعه تعبير عن عدم الانسجام وتنافر الالوان وكأنهم أرادوا خلق انطباعات مختلفة باختيار الوان صارخة متنافرة لا تدل على الانسجام والصداقة ،

أما الموسيقى والرقص فقد أخذت نفس الطابع سائرة مع اشكال التطور المختلفة ، فقد استخدمت الموسيقى والرقص فى تأدية الشعارات الدينية فى العصور الفرعونية حين إنتقلت الحضارة الفرعونية إلى منطقة مروى أما فيما سبق هذا العصر فقد كانت الايقاعات تعبر عن الفرح والسرور والحزن والخوف والاستعداد والرقصات نفسها كانت رقصات ايقاعية وكانت الموسيقى هى الضرب على الايدى والارجل وآلات النفخ البسيطة من النباتات ثم تطورت الموسيقى والرقص المصاحب لها تعبيراً عن المشاعر الدينية فى فترة الوثنية الفرعونية وذلك أثناء

طقوس المعابد واحتفالات النيل والزرع والحصاد والموت والزواج و لختان ..

واذا تابعنا عطاء هاتين المنطقتين الدامر وشمال الخرطوم حيث أقام السهانية والمجاذيب نجد تجمعا كبيراً من طلاب القراءة وحفظة القرآن والطالبين للالمام ببعض أمور دينهم وقد كان لعلم هؤلاء الصوفية بين تلك المجموعات الجاهلة أثر كبير بجانب التقدير الصوفى الذى احاط بهم وأعطاهم مكانة أجتماعية جعلت قبول تعاليمهم وأرشاداتهم الدينية مقبولة ومحترمه أكثر من رجال العلم الذين فقدوا هذه الميزة الصوفية .

حمل تلاميذ هاتين المنطقتين رسالة العلم رغم بساطة المعرفة التى كانت تعطى لهم إلا انها كانت برعماً تنتصر اللقاح الطيب فى القرن التاسع عشر على يد الفتح التركى وحضور الوفود العلمية مع الفتح التركى من قضاة ومعلمين وخروج الطلاب إلى اروقة الازهر والاقامه به على نفقة محمد على باشا ليعودوا عمالا فى دولته الجديدة .

....

رفاعة رافع الطهطاوي في السودان

إذا تتبعنا آثار النهضة الثقافية في العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر بعد حملة نابليون نجد أن روادها الاوائل اتجهوا جميعهم إلى الثورة الفرنسية .. ففرنسا بعد ثورتها واعلان الجمهورية . . . . وخلق طبقة وسطى قوية أصبحت حلم كل مثقف ومتطلع إلى عالم الحرية والعلم والفكر .

فقد انجبت الثورة الفرنسية رجال من المفكرين مثل جان جاك روسو وكما أنجبت الثورة الفرنسية رجالا مفكرين خدموا الفكر الانساني والثقافة الانسانية . . وقد حطمت الثورة الفرنسية الفوارق الطبقية وجمعت بين أنصار الفكر والحرية في مشارق الارض ومغاربها .

ومن هؤلاء الرواد الاوائل كاتب ومجاهد مصري كان له الفضل الكبير في بعث النهضة التعليمية والثقافية وحمل لوائها في صدق واخلاص واجتهاد وهو رفاعة رافع الطهطاوي المولود ببلدة طهطا . حيث حفظ بها القرآن وأجاده كبقية أبناء ملاك القرية ثم أرسله والده للأزهر الشريف ليتزود من علم الازهر وليتخصص في علومه .

وقد كان الطالب رفاعه رافع الطهطاوي طالب مجتهداً لفت نظر معلميه لاهتمامه بعلومه ونبوغه وقد تعهد تعليمة بالازهر رجال أفاضل منهم الشيوخ الفضال والشيخ العطار وقد اهله نجاحه للتدريس بالازهر لمدة عامين .

وقد عرف عن محمد على باهتمامه لانشاء دولة مصرية قوية لتقف قوية منيعه

إمام أطماع الاستعمار ولتسكن فى مناعة ترهب المتطامعين إليها . ولذلك أدرك أن نهضة مصر وقوتها تكمن فى أبنائها فخطط لذلك بالاعتماد على أبناء مصر فى إدارة شئونها فأخذ يبعث بالبعث التعليمية فى كافة العلوم إلى فرنسا وقد استفادت مصر والنهضة العربية من أولئك الرواد الأوائل ومنهم شيخنا رفاعه رافع الطهطاوى . .

وحين أرسل محمد على بعثة من أبناء كبار موظفى دولته سأل الشيخ العطار أن ينتخب لهذه البعثة أماما من علماء الازهر فوفق الشيخ العطار فى اختيار رفاعه رافع الطهطاوى لهذه البعثة .

وقد كان الشيخ طموحا للعلم ما أن خط رجله على الباخرة الراحلة إلى أوروبا وإلا بدأ فى تعلم اللغة الفرنسية ... وهناك فى ثوره تفتحت عقلية الشاب الازهرى المتضلع للعلوم ووجد المجال مفتوحا لكل راغب ومجتهد . وأجاد اللغة الفرنسية خير اجاده حتى أصبح من خيرة مترجمى العلوم الغربية إلى العربية وقد ساعده على طموحه العلمى العالم الشهير موسيو جومار ثم العالم البارون دساس فكان خير عون له ليفتحا ذهنه على كنوز المعرفة والعلم .

ثم عاد الشيخ الازهرى إلى مصر بعد أن تمكن من اجادة اللغة الفرنسية والاطلاع على العلوم الحديثة فى أوروبا .

عاد رفاعه ثائرا متشبعا بالروح الفرنسية وثورة الطبقة الوسطى .

١ - [illegible] عاليا مخاطبا [illegible] اليه إنشاء مدرسة الألسن بالقاهرة

لتخريج طلبة ليعملوا فى الدواوين وليجيدوا اللغة الفرنسية. ثم مالبث أن اختلف مع محمد على وأساتذته فقرر نقله للسودان .

وكان السودان بالنسبة لأى مواطن ذلك الوقت كالمنفى بل هو منفى حقيقى بما عرف عنه أخبار وأن أهله يعيشون فى حالة بدائية وراحت مثل هذه الاخبار ولذلك كان يتخوف منه كل من يرسل إليه .

وفى الخرطوم عاصمة السودان حط الشيخ رفاعه رافع الطهطاوى رحاله وأنشأ فرع لمدرسة الالسن انضم إليها أبناء كبار الاعيان لتخريج الكتبة الذين يعملون فى دواوين الحكومة .

وقد استفاد السودان من هذا الشيخ كل فائدة فى وضعه بعد رائد من رواد الثقافة والفكر فى مصر .

إلا أن المدرسة لم تستمر حيث كانت حرارة الخرطوم وسوء المعاملة التى لقيها الشيخ وزملائه مما قضى بوقف المدرسه بعد إن توفيا بالخرطوم زملاء الشيخ رفاعه حيث رأى فى حياه الخرطوم فى ذلك العهد منفى حقيقى . فهى بالنسبة للمدن السودانيه الأخرى مدينه جديده ليس بها أى شىء غير المرتزقه وحياه السخف ، ولم تسعد الخرطوم الشيخ فصار يرسل التوسل تلو التوسل لرؤساءه يستعطفهم العفو عنهم واعادته إلى السودان وقد سجل لنا فى لبق كتبه شيئا عن السودان بما فى ذلك قصيده هجا فيها الخرطوم وحياتها القاسيه التى اذا قورنت بما رأى من حال المدينه والحضارة فى فرنسا تعد أكثر من بدائيه إذا أمكن هذا الوصف وهذا ماتكشفه لنا قصيدته .

ولقد رأيت فى طريقى ببلاد الشرقية بمديرية دنقلة حرم سنجق يدعى [illegible]
الازرق تسمى السيدة امونه تقرأ [illegible] القرآن الشريف ومؤسسة مكتبين أحدهما [illegible]
والآخر [illegible] كل منهما لقراءة القرآن وحفظ المتون تنفق على المكتبين من كسبها
براعة النطق وتلميحه وعزله وتشغيله ولا ترضى أن يشوبه شىء من [illegible]
وبجانب المكتبين حيوانات لمن يحتى من [illegible] وللوهاد الطاهرين من اقصى
بلاد [illegible] وبعضها للحج الشريف ومن اهلها كالعلماء الفقهاء وأمناء السبيل وانه [illegible]
بيت الله الحرام وأمثال هذا كثير هناك فى ظل الحكومة المصرية

ومما يدل على حسن مقاصد المرحوم محمد على انه قد ورد من بلاد السودانية
استصحب معه عدة غلمان من أبناء وجوه [illegible] وأدخلهم فى المدارس
المصرية فتعلموا مبادىء العلوم ثم نقلهم الى مكتب الزراعة ثم ارسلهم الى [illegible]
وكان تقدم من ملك [illegible] وقووا ضعيم المعارف التمدنية المنتشرة فى بلادهم
وقد شاهدت بعضهم مستخدما بمديرية الخرطوم بوظيفة كاتب ويغلب على الظن
أنه بواسطة تنظيمات عدة شهدت هذه الاخيرة المؤسسة على حسب قوانينها الخديوية
المدنية وهمة سعادة جعفر باشا صاحب الأقطار السودانية يمكن إيصال تقدمات
العصرية بمثابة الخديوية فى أطراف وأكناف تلك البلاد التى هى الآن لم تخل
قراها عن نوع التقدم فى الحضارة مع مشاهدة الوارد والمتردد اليها فى هذه الأيام
لقصد الزيارة أو التجارة فإنها أقرب لتمدن من اقليم أمريكا بكثير وجميع أهاليها
ما عدا بعض الجبال لسانهم عربى فصيح حيث أن جلهم من نسل العرب المتوجهة
القبائل قديما يحفظون أحسابهم وأنسابهم، وهم كمالا واستعدادا او ذكاء فطنة وإنما
يحتاجون فى حصول المطلوب إلى المعلمين المفرس وتأليف القلوب من حكام

أرباب صداقة وعفاف وعدل وانصاف لاتعلوهم المطامع الدنيوية على حفظ الالفات إلى الامور الدينيه بل توجـــد القبليه أيضا عند الاهـالى المتأصلين .

ويدل على هذا ماحكى عن الخليفه أبي جعفر المنصور عما جرى بين عبد الله بن مروان بن محمد وبين ملك النوبه مما ذكره المؤرخون فى حق الملك المذكور مع أنه كان من ملوك السودان المتأصلين إذ لم تكن القبـــائل لعربيـــة انتجعت إلى السودان ولا تسلط على هذه الاقاليم ملك من أهل الاسلام ولامن العربان وهو أن أبا جعفر المنصور حضره ليلة عبد الله على وصالح بن على فى نفر معهم فقال عبد الله بن على يا أمير المؤمنين ان عبد الله بن مروان بن محمد لما هرب إلى بلاد النوبة جرى بينه وبين ملكها كلام فيه أعجوبة سقط عنى معظمه فأن رأى أمير المؤمنين ان يرسل اليه لحضرنا ويسأله عما ذهب عنا وكان فى المجلس فارسل اليه أبو جعفر فلما دخل قال له : يا عبد الله — قال لبيك يا أمير المؤمنين قال أخبرنى بحديثك وحديث ملك النوبه قال يا امير المؤمنين هربت بمن تبعنى بأثاث سلم لى إلى بلاد النوبة فلما دخلت بلادهم فرشت ذلك الاثاث فجاء أهل النوبه متعجبين حتى أبلغ ملك النوبة حضورى فجاء معه ثلاثة نفر فاذا رجل طويل آدم أغبر مستوى الوجه أملسة فلما قرب منى قعد على الأرض وترك البساط قلت ما يمنعك ان تجلس على اثاثنا هذا قال إنى ملك وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله أذا رفعه الله قال ثم نظر إلى فقال لم تشربون الخمر وهى محرمة [illegible] فقلت عبيدنا أتباعنا يفعلون ذلك بالجهل منهم قال فلم تلبسون الديباج [illegible] الحرير وتتحلون بالذهب وهو محرم عليكم فقلت زال عنا الملك وانقطعت المادة [illegible] نصرنا بقوم من الأعاجم كان هذا زيهم فكرهنا الخلاف عليهم فاطرق ينكت بيده ويقول عبيدنا واتباعنا واعاجم دخلوا فى ديننا يكرر الكلام على نفسه

ثم نظر إلى وقال ليس ذلك كما تقول ولكنكم قوم ملكتم فظلمتم وتركتم ما به أمرتم وركنتم إلى ما عنه نهيتم فسلبكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها بعد وإنى أخاف أن تنزل بكم النقمة وأنتم ببلادى فتصيبنى معكم فارتحلوا عن جوارى انتهى . فقام ابو جعفر وقبلنا من كلامه فصدق جمعه وقد قال الله تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا قال المفسرون فى الآية حذف دل عليه فسقوا أى أمرنا مترفيها أى متنعميها بالطاعة فخالفوا وفسقوا فدمرناها تدميرا انتهى — فبلادهم مرتبطة بصحراء من الماء أسود ولعل ملوكهم فى الأزمان القديمة كانوا كاصحابه لا على قدم عظيم من الاستقامة وطريقة قويمة وأما موضع معرس النوم فى حق أهل الأوان فهو متوجه عام جمهور أهل البلاد وهم العبيد والمولدون ومن يجرى مجراهم من رعاع أهالى تلك البلاد أرباب الدناءة والخسة .

وفى سنة سبع وستين ومائتين وألف كنت سافرت إلى السودان لسعى بعض الأمور بمعية [illegible] نظارة مدرسة بالخرطوم المنشأة نحو الأربع سنين للأطفال وتوفى عند [illegible] من المصريين فنظمت هذه القصيدة برسم المرحوم حسن باشا كتخدا مصر رحمه الله من أوحاد ذلك الأحوال فلم يتفق ارسالها ثم أسعد الحال [illegible] الذى هو [illegible] بذلك عقب تخميس القصيدة [illegible] صغير البرية وها هى القصيدة الأولى : —

ألا فادع الذى ترجو ونادى	يجيبك أن تكون فى أى نادى
فمن غرس الرجا فى قلب	أصاب [illegible] الحصاد
ومن حسن الخلائق حلة صنعا	جميلا فهو ذوق بالوداد

وجدت من أفاضل ودي ... يموصل حبه في القلب بادي

ورب أخ تلاهى عنك يوم ... قرب وداده أبد ودادي ...

بنو الآداب أخوان جميعا ... وأخوان بمختلف البلاد

خلائق عنصر كل تغذى ... بأثداء العلا دون اقتصاد

وآداب الغنى تعليمه يوما ... إلى الإنجاد من بعد الوهاد

وآدابي لسامي بي الدراري ... على شقي وتبلغني مرادي

ومالي لا آتيه بها دلالا ... وقد دلت على نهج الرشاد

إلى سبل الفخار تقود حزمي ... وفي ميدانه عزم انقيادي

عصامي طريق المجد سعيا ... عظامي شريف بالتلاد

سوى نسب العلوم إلى انتساب ... إلى خير الحواضر والبوادي

حسيني السلالة فاسي ... بعلمها معشري وبها مهادي

لسان العرب ينسب لي فخارا ... وقد يبقى إلى مس الأيادي

وحسبي أنني أبرزت كتبا ... تأييد كتابنا يوم الطرادي

فمنها منبع العرفان يجري ... وكم طرس تحبر بالمدادي

على عدد التواتر مع باقي ... تفي بفنون سلم أو جهاد

وملطرون يسير وهو عدل ... وتمسكوا بقراءة بلا تمادي

ومقترفو فراح قرات درسي ... وقد اقترحوا مقاومة كل حادي

ولاح لسان باريس كشمس ... بقاهرة المعز على عمادي

ويحيي مصر أحيا كان قدري ... وكافأني على قدر اجتهادي

سأشكر فضله مادمت حيا ... وما شكري لدى تلك الأيادي

ساقي الحنان عهد زمان مصر ... وأمطر ربعها صوب العهاد

وملت بصفقة المغبون عنها　　وفضلي في سواها في المزاد
ما السودان قط مقام مثلي　　ولا سلماوى فيه ولا سعادى
بها ريح السموم يشم منه　　زفير لظى فلا يطفيه وادى
عواطفها صباحا ومساء　　دواما فى اضطراب واطراد
فلا تعجب اذا طبخوا خليطا　　بمخ العظم مع صافى الرماد
ولطخ الدهن فى بدن وشعر　　كدهن الابل من جرب القراد
ويضرب بالسياط الزوج حتى　　يقال أخو ثبات فى الجلاد
ويرتق ما بزوجته زمانا　　ويصعب فتق هذا الانسداد
واكراه الفتاة على بناء　　مع الصبى ارتضوه باتحاد
فيحجبه المولد وهو غال　　بمرغبات دوما باحتشاد
لهم شغف بتعليم الجوارى　　على شبق بجاذبة السهاد
وشرح الحال منه يضيق صدرى　　ولا يحصيه طرسى أو مدادى
وضبط القول فالاخيار نزر　　وشر الناس منتشر الجراد
ولولا البيض من عرب لكانوا　　سوادا فى سواد فى سواد
وحسبى نقلها بنصيب صحبى　　كأن وظيفتى عبس الحداد
وقد فارقت اطفالا صغارا　　بطهطا دون عودى واعتيادى
افكر فيهم سرا وجهرا　　ولا سمرى يطيب ولا رقادى
وعادت مهجتى بالنأى عنهم　　بلوعة مهجة ذات اتقاد
أريد وصالهم والدهر يأبى　　مواصلتى ويطمع فى عنادى
وطالت مدة التغريب عنهم　　ولا غنم لدى سوى الكساد
وماخلت العزيز يريد ذلى　　ة ولا يصغى لاخصام لداد
لديه سعوا بالغيبة حداد　　فكيف صغى لألسنة حداد
مهازيل الفضائل خادعونى　　وهل فى حربهم يكبو جوادى
وزخرف قولهم إذ موهوه　　على تزيينه نادى المنادى

فلى من صبر فى المعنى بصير   صحيح الانتقاء ولا انتقادى
قياس مدارس قالوا غنتم   بمصر فما النتيجة فى بلادى
وكان البحر منهج سفن غرضى   فكدت الان اعرف فى التمادى
ثلاث سنين بالخرطوم مرت   بدون مدارس طبق المراد
وكيف مدارس الخرطوم ترجى   هناك ودونها خرط القتاد
امم ترجى المصانع وهى أحرى   لتأييد المقاصد بالبلاد
علوم الشرع قائمة لديهم   لمرغوب المعاش أو المعاد
خدمت بموطنى زمنا طويلا   ولى وصف الوفاء والاجتهاد
فكنت بمنحة الاكرام اولى   بعقد للتعيش مستفاد
وغاية مطلبى عودى لاهلى   ولو من دون راحلة وزاد
وصبرى ضاع منذ اشتد خطبى   وهون الخطب عند الاشتداد
وكم حسنا دعوت لحين حالى   وكم نادى فؤادى يا فؤادى
وارجو صدر مصر لشرح صدرى   وجهد الطول فى طول النجاد
وكم بشرت ان عزيز مصر   تفرد بالفكاك ولم يفاد
وحاشا ان اقول مقال غيرى   وذلك ضد سرى واعتقادى
لقد اسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى
وفى دار العزازة لى عياذ   يقينى نشب اظفار العوادى
أمير كبار أرباب المعالى   فتى فى سرحة العرفان هادى
معروف المعى لا يشارك   بمضمار العلا فاق الجياد
بواخر فضله الركبان سارت   وغنى باسمه حد وشاد
وقال فى معارفه فريد   فقلت وفى الرياسة وفى الوداد
وفى الاحكام قالوا لا يضاهى   فقلت وذو تدبر واجتهاد
وقالوا وفى الذكاء ذكا فقلنا   وافق ذهنه وارى الزناد
وقالوا وافق الحسن المثنى   فقلت [illegible]
وكم حجاه يبدو منه در   [illegible]

فيا حسن المقال اغث اسيرا … بسجن ارنج يحى ذا القياد

عليه دوائر الاسوار دارت … وطالت وفق اهواء الاعادى

وقد فوضت للمولى أمورى … وزاعين الاصابة والسداد

عسى للمولى بقول امضوا بعبدى … فيقضى لى بتقريب ابتعادى

ومانظم القريض برأس مالى … ولاسترى اراه ولا سنادى

ووافر بحره ان جاد يوما … فممدوحى له وصف الجواد

وليس لبكر فكرى من صداق … سوى تلطيف عودى للابلادى

فما يسمى ذراها من بيوت … وزان فى حماستها شداد

ومسك ختامها صلوات ربى … قام طه المشفع فى المعاد

وآل والصحابة كل وقت … مواصلة الى يوم التناد

هذه شكوى رجل كان يعد نفسه من رجال الفكر ، هيأ نفسه لخدمة مصر فاذا به يقف عبدا عند لا يستطيع ان يعطى معرفته وعلمه حيث كان عليه ان يسهم مع كليته فى أول سنين انشائها ، وهو الذى عاد من فرنسا ليجاهد فى الفكر ويفتح العقول المستعدة لهم لتقبل فكره وعلمه لا لعب الخطبة والكتابة والقراءة .

. . . . . .

القرن التاسع عشر

أثير حملة نابليون عام ١٧٩٨ م على مصر لم يكن تأثيره خير نهضة الحركة الثقافية والعلمية فى مصر وحدها بل كان فاتحة خير للسودان ولبقية الدول العربية وعلى الثقافة العربية .

لقد ظل شمال السودان مرتبطا بجنوبه كل ماينعكس عليه يصل تياره إلى الجنوب وفى ممالك السودان حتى لو بعد حين . فقد كانت حملة نابليون رغم الخسائر المادية والبشرية التى تعرضت لها مصر والقاهرة خاصة إلا أن التقبل الذى خلقته هذه الحملة كان شعلة جديدة وقبسا طيبا لمشاعل [illegible] العربى تقدم الذى خبت روحانه لعدة قرون منذ ذهاب الدولة الفاطمية ، وتدهور الحياة السياسية والفكرية واضطراب الأمور ليس فى مصر وحدها بل فى جميع بلدان الشرق الأوسط [illegible] وركود الحياة عامة فى البلاد العربية [illegible] الظلام على يد الحكم التركى العثمانى [illegible] وكل فكر ثاقب وليحرم أبناء البلدان العربية كل فرص النمو والمشاركة إذا استورد كل حكامه المحترمين من تركيا لإنزال العقاب والبطش بكل من تسول له نفسه بالتمرد والاحتجاج ....
وعاش الأتراك فسادا وفوضى فى البلاد العربية واتخذوا كل شىء ولم يعطوا أى روح أى أمل للعمل والنهوض ... ووقفوا أمام كل شىء عصرى وأمام كل عمل [illegible] حتى انتهت الحياة العلمية والفكرية وعاد الناس لا يقربون العلوم ، لا يمارسون ... ولا يقدرون منها الأهمية ... كانت هذه الحياة عامة فى البلاد العربية بما فى السودان قبل هذه الحملة فقد وصلت الحياة السياسية إلى أسوأ حالات التمزق واستضعفت الحكم ستنادى كل مقومات الحكم إذا لم يطور الحياة [illegible] قبع

فى كراسى الحكم يسيطر على الحدود والقوافل التجارية وجباية الضرائب وعاش البيت السنارى لنفسه ولم يعش لمملكته ... فلم يخطر ببال ملك من ملوكهم حتى العظام كالشيخ عجيب فى تحسين حال البلاد او تطوير نظام الحكم والاستفادة بخبرات الشعوب الاخرى .....

عاش البيت السنارى مقفولا على نفسه لا يفتح الباب الا للذين له مصلحة فيهم أو الذين يرغب فى التعرف اليهم .

لا يعنى ذلك انه كان ديكتاتوريا انما يعنى انه كان يفهم الحكم على انه وراثة ولا يوجد فى البلاد من يتطاول الى هذا الحق .. نعم لم يفكر أهل البلاد فى شأن هذه الوراثة لان الحكم لم يكن له تأثير كبير على حياتهم ولان الحياة العامة نفسها لم تتعرض لحالات كبيرة حتى تخل بالرتابة وتفرض منظورها وهيئتها .. فالشيخ أو الزعيم هو الذى يعرف السلاطين والحكام لارتباطه بهم ... القرية والمجموعات الصغيرة فلم تتأثر بهذا المثل لانه من قديم ولم تعرف فيه شىء . الحق الذى يأخذونه منه ومن أجدادهم فى القديم زاد بشىء بسيط لدفع الضرائب الى ممثلى السلطان ... ومشاكل القرية محلولة ومشاكل القبيلة محلولة بين المجموعة . ولم يفكر الناس ان يحولوا من هذا النطاق الصغير لعرض مشاكلهم على نطاق اوسع . فنفس الاسلوب الذى كان متبعا قبل السلطنة السنارية ظل ساريا بعد ثلاثة قرون من قيامها لم تعرف فى وجهه تجمع شىء فقد كان هنالك تطور ظاهر على المجتمع من الناحية الثقافية والعلمية وهو تطور طبيعى تقتضيه سنة التطور وليس للسلطنة السنارية فيه اى يد .

دولة لانت لها كل القبائل والعشائر وسمعت لها طواعية فلم تخشى استلام

هذا القيد ولم تحاول أن تطور حياة هذه المجموعات التي وكلت إليها أمورها وشئونها . . . بل اطمأنت إلى هذا الاطمئنان الذي أعطى لها وعاشت في فلك العادات المحكمة والتصرع الطبيعي الذي يدور في أسرة حاكمة . . . . .
والأسر الحاكمة تجعل لنفسها من المشاكل لو تفرغت لها ما شغلها عن كل هموم الدنيا ودسائس الأعداء وغيبيات الحياة . هكذا عاشت السلطنة السودية دولة منعزلة على نفسها لم يكن لها عمل مخطط ولم تكن لها دواوين تجمع وجوه النشاط الانساني بل تركت هذا كرت فيه وحجمت عن أي نشاط خوفا من الخسارة المادية .

بل كانت لها الزعامات الكبيرة الشائكة الكيان وحسب كل ذلك هو أمر عشائري وحيوي وبدائي جدا في أي مجموعات نشأت هاتين الوطنيتين وظهورهما لا يعني تطور الحكم السناري .

لو تتبعنا حياة هذه السلطنة منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى نهاية القرن الثامن عشر الذي تطور هذه المملكة من الداخل والخارج .

كان يمكن أن تكون هذه السلطنة وسلطنة دارفور من أعظم الممالك الاسلامية لانتقال الامكانيات العلمية في البلاد العربية التي تهدمت فيها أسس العمران والاستقرار . .

فقد عاشت البلدان العربية الاسلامية في حالة من الفوضى وقف كل شيء عن التقدم ووقف المسلمون في حيرة من أمرهم والاحساس لدى كل يأتيه من العصور وقف سيرهم بل شغل بعضهم بعضا كل فريق قدرة العصور والقائمين عليها . وفي مثل هذه الحالات يهرب رجال العلم والفكر الى الأراضي الجديدة التي يشع

منها الاستقرار وتجد فيها رجال العلم والفكر كان للبلدان العربية حركة
علمية طيبة رغم دنيا الاضطراب ولكنها كانت تبحث عن مأوى يجمع شملها
وكان العلماء وهم أكثر الناس ابتعاداً من حومة المعركة وتقلبات الحياة العامة
وما فيها من الشقاء والاحزان .. كانت تلك الحركة العلمية التى تمسكت بها
بعض الرجال فى حاجة إلى منقذ وهى كالغريق تتقاذفه الأمواج .. ووجدت بها
الانتظار .. [illegible] حياة وعرفت [illegible] الامكانيات العلمية ... فى كنف
حكام تمسكت أى السلطة [illegible] سودة و [illegible] حركة [illegible]
وذلك التفكير الذى يسرى مع الريح يبحث فى [illegible] كل جو للعلم والفكر ...
ورحل العلماء [illegible] الحركة العلمية فى ارجاء السودان ووضعوا
اللبنة الأولى للحركة العلمية والاسلامية كالشيخ [illegible] وشيخ تاج
الدين البهارى وابراهيم البولاد واخوانه أولاد جابر .

حركة العلمية والثقافية والاسلامية التى ظهرت فى السودان لم تكن مستقلة
مستمرة فيها أى مجهود بل كان ذلك المجهود الضئيل هو مجهود أفراد .. ومما
يؤيد هذا الرأى إن كل العلماء الاجانب الذين جاءوا السودان من رجال
الشريعة أو من رجال العلم سكنوا بعيداً عن سنار .. وكل الحركات العلمية
وكل الرجال الذين اشتهروا فى هذا الميدان بعيداً عن سنار فلو كان لسنار أى
فضل أو كانت يدها مبسوطة بسخاء لعالم بدعوته وتكريمه لكانت خلقت حركة
ثقافية ولكانت جمعت كل أشتات الفكر العربى واحتضنته وبعثته من جديد إلا
أن اهتماماتها لم تصل إلى هذا الحد الذى وصلت إليه بغداد وحلب والقاهرة
والاندلس ... لقد وصلت تلك المملكة مع تلك الظروف المهيئة للنمو
والتطور خلال ثلاثة قرون لكان السودان اليوم شيئاً آخر .. فهى لهم تقدم

للعلم أى خدمة ولم تهتم به . وان كان هو اهتمامهم بالزائرين من رجال العلم
والصوفية فهو اهتمام السودانى الكريم الذى لايتخلى عن ضيفه

فلو بحثنا عن رجال العلم والاماكن التى استقروا فيها منذ القرن السادس
عشر لوجدناهم بعيدين عن سنار وربما بعيداً من نفوذ سنار فى حدود دار
العبدلاب فى شمال النيل .

وعند الشايقية استقر أولاد جابر وعون الله ، وعند [illegible] الذين
سكنوا بعيداً عن قرى وعن سنار و [illegible] فى [illegible]
وأرض الخريقة كانت مأوى الكثير من هؤلاء [illegible] شندى و [illegible]
وتوتى واربجى والميتمة وسنار وكردفان .

هذا بحث فى [illegible] الادارى [illegible] ولا [illegible]
نظامهم [illegible] حتى [illegible] تطبق [illegible]
ولم تطوره حتى وصل الينا بكل مساوئه وخيراته . . واذا نظرنا فى نظامهم
الاقتصادى [illegible] التجارة وهى تجارة [illegible]
وتركوا لبعض [illegible] للتعرض [illegible]
ولم يقوموا بانشاء [illegible] حراسة من قطاع الطرق [illegible]
خطرا كبيرا على التجارة [illegible] القرن [illegible]
عشر وما كان يفعله بالقوافل التجارية الداخلة على بربر والخارجة منها
ببعيد ولم تستطع أى سلطة [illegible] ان تدفع [illegible] وكان الامر لا [illegible]
وحوادث قطاعى الطرق وانتشارهم وازدياد هذا النوع من التكسب يكشف

من ضعف هذه الادارة حتى انتشر هذا النوع من العمل وجذب اليه الكثيرين وأصبح لقطاع الطرق وزن كبير فى الحياة العامة .. واحتلوا مكانة كبيرة فى الادب .. الشعبى والغنائى ...

أما فى الزراعة فلم يحاولوا أن يطوروا أسلوب الزراعة الطريه ولا أساليب نقل الماء من النيل وظلت كل أشكال الحياة العامة كما هى وانشغلوا بما يهم الملوك وهى حياة القصور والوراثة والملكية حتى انتهوا على أيدى الهمج ..

وربما يظن أن لمملكة سنار يد كبيرة فى تطور الثقافة أو العلم أو الادارة . فالحياه العامة منذ أوائل القرن السادس عشر الميلادى إلى نهاية القرن الثامن عشر لم تتطور فى السودان تطورا ملموسا وان كان هنالك أى تقدم أو تطور فهو تطور طبيعى يحدث لكل المجموعات البشرية حينما لا تجد عوائق لهذا التطور والحسنة التى أتت بها سلطنة سنار إنها أوجدت النظام وأوقفت القتال بين القبائل ومحاولة تسلط بعضها على الآخر .. واتاحت الفرصة للحياه العامة أن تنمو نموها الطبيعى ومهدت للثقافة العربية أن تنتشر ببطء وللتعاليم الاسلامية أن تتصالح مع المعتقدات القديمة وثنية كانت أو مسيحية ولكنها من جانبها لم تحاول أن تنشر الثقافة العربية أو التعاليم الاسلامية إنما كل ماحدث كان من نشاط الأفراد والمجموعات وحاجة الناس لهذه العلوم ولمعرفة تعاليم دينهم الذى كانوا لايعرفون عنه شيئا حين قامت هذه السلطنة وكما جاء فى مخطوطه ود ضيف الله وكتب الشونة عن الحياة العامة قبل السلطنة السنارية أن الرجل كان يطلق المرأه ويتزوجها غيره فى نفس اليوم دون تتمة

المدة . . . وهذا الجهل بتعاليم الدين لم يجد التخطيط السليم لمحوه بل ظل حتى ظهور المهدى ومطالبته بتطبيق الشريعة التى كان يجهلها معظم الناس حتى ضج ذلك الشايقى من تعاليم الاسلام ودعوة المهدى فصاح قائلا :

لاعريسى ولا طنبير ولا تنباك ولا سنجير

ودهكاهمن مهديك الكبير وعقرباً تطقك يامحمد الخير

فشلت السلطنة السنارية فى أن تخلق جهازاً إداريا وأن تنهض بالحياة العامة السودانية واستعانت بقبائل تقلى لمساندتها على حفظ العرش من الداخل ومن المؤامرات الداخلية التى تحاك عادة فى القصور وبين الأسر الحاكمة الكبيرة القديمة حتى مهدوا لهؤلاء الجند فى مملكة تقلى أن يستولوا على زمام الحكم وأن يبعدوا أهل البيت عنه .

وان كانت حياة السودان العامة فى ظل السلطنة السنارية على هذا الوضع فاهل السودان كانوا فى أحسن حال إذ مافورنر بقية الدول العربية التى سقطت تحت نفوذ حكم المملكة العثمانية .. فقد ترك سلاطين سنار للناس أن يطوروا حياتهم ولم يقفوا ضد هذا التطور ولكن ماحدث لبقية البلدان العربية أن المملكة العثمانية التركية وقفت أمام تطور هذه البلدان . .وقفت أمام التطور الطبيعى ولم تقدم أى يد لرفع الحياة العامة بل حنقت كل محاولة للحركة حتى شلت كل شىء لينام الشرق فى سبات عميق من أول القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى ودخل نابليون الاسكندرية ومعه علماء ومعكريه

ليخطط له ممالكه جديدة وليحتفظ بطريق الهند الذى كانت تسلكه البضائع البريطانية .

وربما لو لم يأت نابليون ومعه ذلك العدد الهائل من العلماء والمفكرين الذين تأثروا بمصر لما حدث هذا التطور ولما عادت الحياة وربما اهتدى فكر المصريين بأن هنالك علم غير علمهم وأن هنالك علم غير علم الازهر وأن بقايا التراث التى حملتها الشعوب العربية لا تساوى شيئا بالنسبة لافكار جان جاك روسو وفولتير وغيرهم من المفكرين الغربيين .. وربما لولا حضارة مصر القديمة التى أغرت العلماء بالبقاء بالقرب منها ومحاولة تقليها والبحث عن معانيها حتى توصل شامبليون إلى معرفة الخط الهيروغليفى ما استفاد الشرق تلك الفائدة بقدر علاقته بركب العلوم الانسانية .

كان ذلك الجزء من حملة نابليون الذى ضم العلماء هو الخير فى تلك الحملة وفتح باب الحياة الجديدة لأبناء مصر .. وتساعد الظروف مصر بأن يحكمها شاب له طموح وله افكار وله تطلع بعيد وفى نفسه تمرد عن السلطنة العثمانية وهو ابنها محمد على باشا .

كان محمد على طموحا وبدء يحكم بتطور وكانت افكاره .. لتحقيق ممالكه [illegible] يبحث عن مكان به لحية فى الادارة [illegible] وخلافه .. فوجد [illegible] كسرت التقيب الملكى ونشرت بذور الجمهورية على الممالك القديمة وانتشرت فيها العلوم فارسل اليها أبناء مصر الذين يثق فيهم لتلقى العلم [illegible] مصرية [illegible] .. كان يخطط لكل

شيء رأى امكانيات مصر لا تفي بأحلامه . . سمع عن الذهب في السودان . . .
فالتفت نحو السودان . . . للاستفادة من ذهبه ورجاله . . .

وسأل عن السودان فعرف انه ممالك متفرقة . . في الشمال مشيخة "شايقية" التي تمردت على العبدلاب ثم مشيخة العبدلاب . . . والسلطان عرب . . ثم بقايا مملكة سنار التي استولى عليها الهمج وسلطنة دارفور في غرب السودان . . أرض واسعة وخيرات كثيرة وقبائل متفرقة . . امكانياتها متعددة . . والذهب كما قيل له كثير لا حد . وجرد جيشه عام ١٨٢٠ قاده ابنه اسماعيل وسار الجيش ولم يجد عقبة في طريقه حتى أرض شايقية الذين رفضوا الخضوع لجيش مزود بالبنادق والمدافع حتى عقد اسماعيل معهم صلحا وجندتهم وضمهم إلى جيشه وسار الجيش وتم له فتح السودان وكان الجيش يستعين بأهل البلاد والقبائل المختلفة لقتال القبائل الأخرى . . .

كان دخول جيوش محمد علي السودان له مزايا عدة ورغم أوهام محمد علي ووهم ايجاد الذهب لما تطور السودان وحدث له ما حدث لمصر بدخول نابليون وعلمائه . . .

فعل محمد علي مثلما فعل نابليون في مصر بل ما استفاد من فكرة نابليون . . . وحين أرسل جنوده إلى السودان أرسل معهم بعض العلماء من الأزهر وبعض رجال الصوفية حتى يؤثروا في الناس وما تطلبه الظروف ليحسموا الأمر ثم يستعين بهم بعد ذلك في ادارة مملكته الجديدة . . .

كانت الادارة في مصر في عهد محمد علي ادارة حكومية منظمة لها دواوين

حكومية بكل فرع من فروع الادارة و العمران . اما فى السودان فلم تكن قد وضعت هذه اللبنة بعد ... ودخل جيش محمد على السودان وهو يحمل خطة لحكم البلاد على أسلوب حديث وخلق إدارة جديدة تقوم على نظم حديثة ومتطورة بالنسبة للادارة المحلية التى كانت سائدة . . .

كان لدخول محمد على السودان ميزتان — أولهما توحيد الممالك الصغيرة السلطنة السنارية — دارفور والشايقية فى دولة واحدة هى السودان ثم كانت الميزة الثانية وهى ادخال الادارة الحديثة فى السودان وما يتبع ذلك الادارة من أساليب التطور والتقدم والعلوم .

كما أرسل محمد على ابنه اسماعيل لارض الذهب فمات اسماعيل محترقا بين نيران الحطب والقصب على ايدى الملك مساعد وشقيق الملك نمر . . . مات اسماعيل وكان صهره قد تم فتح دارفور فعاد ليجد رماد الجسد و رماد الحطب فاشعل النار من جديد وسقى الرماد بالدماء ظنا منه ان الدم المسفوك يمكن أن يحى الدم المحروق ... وطارد الملك نمر واخوته وقبيلته ولم يشف غليله سفك الدماء التى اراقها من اجل اسماعيل ...

حزن محمد على لوفاة اسماعيل ولكنه كرجل حرب ورئيس دولة لم تذهب عنه نشوة حلم الذهب — فبحث عن المعادن وارسل الخبراء لاراضى الذهب وعادت البعثة وتقديرها لا تشجع باستخراج الذهب . . فالنسبة التى عثر عليها قليلة ولا تكفى تكاليفها . . . . ولم يصدق محمد على . . كل احلامه التى وضعها فى السودان ونسى موت ابنه من أجلها تضيع بكلمات

الخبراء . الذهب موجود فى السودان هذا اعتقاده . . . الذهب موجود فى السودان . .

وفى عام ١٨٣١ م بعد ان فشلت كل جهود حكامه فى ارسال الذهب اليه ساوره الشك وفضل الذهاب إلى السودان بنفسه وهو يرى كل امكانياته المادية لا الحربية التى ارسلها إلى السودان لتتأتى له تدعيم لتقوى دولته واسطوله وليستطيع ان يقف على دول أوربا وانجلترا ويجعل له اسطولا قويا يحمى سفن القرصان من الاضراب من شاطئه وبحره . . ولكن المال الذى كان عنده ضيع والامل الذى كان يرجو منه أن يسنده لرفع مستوى اسطوله باحضار الذهب من السودان ولى . . .

ولم يثق بتقارير الخبراء والفنيين . . . واعد رحلته الشهيرة الى وسط الخرطوم واخذ معه الخبراء والفنيين . . وذهب إلى ارض الذهب وجلس بقرب الخيام ينظر إلى تراب الذهب ويسأل اهل البلاد عن الذهب الذى يتحدث الناس عنه والخبراء يقولون له ان نسبة الذهب هنا ضئيلة جداً . . .

ويعرضون عليه العينات وهو يراقب الحفر والتنقيب والتعدين ولكن الذهب كذب وضاع الحلم الكبير الذى كان يحلم به محمد على فى استغلال ذهب السودان فى تطوير جيشه واسطوله ومملكته ويقف فى امام الدول الاوربية والانجليزية .

الحكم التركى فى السودان

(من ١٨٢١ — ٢٥٧١ تحت سلطة الدفتردار اسماعيل

(١) الاميرلاى عثمان بك (١٨٢٥ - ١٨٢٦)

كان ظالما وحكم البلاد فى أوج اضطرابها واعتمد على خيرات البلاد التى دمرتها الحروب .. اشتهر حكمه بالظلم والفساد والاعتداء ولانه على سلب حق الناس وذلك لاضطراب الاحوال العامة وعدم استطاعة الادارة الجديدة من ابقاء كل مطالب الادارة . . . . . وشحت امكانيات البلاد من جراء الحرب فعاش الناس فى خوف وجوع ... توفى بالسل فى ابريل ١٨٢٦

محو بك ١٨٢٦ .

لم يعمر كثيرا .. أول مايذكر فيـــه هو اشراك أهل البلاد فى الحكم ليستعين بهم فى حفظ الامن وكسب ثقتهم — عين الشيخ عبد القادر ود الزين الذى كان شيخ خط ... وقلده شياخة فى الكوع ومنحه كسوة فاخرة .. ثم شيد بناية خاصة للادارة الحكومية فى الخرطوم ..

خورشيد باشا (١٨٢٦ — ١٨٢٩)

من الحكام المحنكين الذين أرسوا قواعد الادارة والنظام فى البلاد تبع نظام الاستعانة بخبرات أهل البلد واستعان بالشيخ عبد القادر ود الزين مرة ثانية .. وقلده مشيخة البلاد من حجر العسل إلى جبـــال فوزع وخلع عليه كسوة فاخرة وسيفا .

انتقد نظم السابقة وكشف العيوب التى جاء احكام الجديد كتب بها

تقرير لمحمد على وعى بالاسلوب الحديث على تطوير الزراعة وايجاد الامن والاستقرار بين أهالى البلاد ..

وخطط لنشر التعليم والصناعة بالسودان .. عمده مدينة الخرطوم فى عهده .. وأدخل بناء المنازل من الطوب وزار محمد على السودان فى عهده . . . وكذلك فى الحياة العامة .

أحمد باشا أبو ودان ١٨٣٢ — ١٨٤٢ م

وجد سلفه خورشيد باشا قد خطط له الحياة والادارة فسار على خطاه وطور الادارة ونظم الدواوين وشجع الملاحة وبناء السفن ضم بعض الاقاليم إلى السودان كاقليم التاكا فى سنة ١٨٤٠ ووسعت الفتوحات المصرية فى السودان الشرقى واخضع الحدلانقة عند نهر القاش وتمردت عليه قبائل الهدندوة .. قبيلة المحاربين الاقوياء الهاين وحمت فرسانها وشمال كسلا فى غبابق وهيبان والكليباب .. الا انه استطاع بفكره أن يتغلب عليه .. اذ فكر فى منع ماء القاش عن الغابة التى يجمعون بهـــا فقطعوا ثم أشعل النار فى الغابة فذعروا وخرجوا حتى خضعوا له بعد أن انسحب شيخهم ..

بعد أن فتح شرق السودان وعاد للخرطوم وولى عن كسلا مدير قسم السودان إلى سبع مديريات :

(١) فازوغلى (٢) سنار (٣) الخرطوم (٤) كسلا (٥) بربر

(٦) دنقلة (٧) كردفان

أحمد باشا المنكلى (١٨٤٤ — ١٨٤٥)

فى عهده عادت قبائل [illegible] للتمرد من جديد واستعان بشيوخ القبائل وكبار القوم منهم الأرباب محمد دفع الله والشيخ عبد القادر الزين والشيخ أبو او محمد كثير الشاكرين

عبد اللطيف باشا (١٨٥٠ — ١٨٥١)

عمل على إصلاح الإدارة فى فترة الركود التى حدثت بسبب خالد باشا وأزال المظالم .. وجدد ديوان الحكومة وحضر فى عهده رفاعة رافع الطهطاوى لينشىء فرع مدرسة الألسن (المدرسة الاميرية ومعه بيومى بك ...

وصل الشيخ عبد القادر إلى أعلى منصب سودانى وهو وظيفة معاون الحكمدارية مع مشيخه عموم الجزيرة

على باشا شركس (١٨٥٥ — ١٨٥٧)

عم البلاد فى عهده مرض (الوباء الاصفر) ومات خلق كثير منهم الشيخ عبد القادر شيخ مشايخ الخرطوم وسنار .. خلفه إبنه الزين الذى ذهب إلى مصر حيث عين معاونا فى نظارة الداخلية .....

زار سعيد باشا السودان .... ثم عين اراكيل بك نوبار حاكما للسودان (١٨٥٨ — ١٩٥٩)

ثم حكم بعده حسن بك سلامة ثم محمد بك لغاية عام ١٨٦٢ م ثم موسى باشا حمدى لغاية ١٨٦٥ ثم خلفه جعفر بك صادق ليخلفه فى نفس العام جعفر باشا مظهر ثم ممتاز باشا الى عام ١٨٧٠ ثم اسماعيل باشا ايوب الى ان استلم منه غردون عام ١٨٧٧ ثم محمد رؤوف باشا فى عام ١٨٨٠ حتى عام ١٨٨٢ وثم جاء بعده عبد القادر باشا فى مايو ١٨٨٢ حكمدار

ماذا خلف الحكم التركى

يصعب علينا أن نتباكى الآن على الفوضى التركية التى عمت السودان فى القرن التاسع عشر وأدخلته فى ثلاثة حروب اشتركت فيها كل القبائل بل تعرضت لبطش التركى القاسى مباشرة حتى خضعت وسخرت لاخضاع بقية القبائل لاشتراك القبائل مع بعضها لاسكات الفتن الداخلية بعد الثورة المهدية ثم عودة الحملة على الثورة المهدية وإعادة فتح السودان من جديد .

حملة إسماعيل باشا

كانت حملة إسماعيل باشا لفتح السودان وتوحيده بل حسب إستقرار القبائل والافراد وإدخال الفوضى بمحاولة هذه الحملة التركية لارغام الناس للخضوع والخنوع الذى لم يتعودوه

إطلاق يد الطامعين من الشوارق على [illegible]
الضرر فى يد شين مجرم قاسى لايعرف الرحمة ولا الكرم

كانت عملية توحيد الممالك الثلاثة وإخضاع أمرائها مشقة على الجيش الغازي إذ عليه أن يحارب ثلاث دويلات هي الشايقية وسنار والعبدلاب وقد زود الأمر الذي عرض جميع السكان لبطش هؤلاء الغزاة فقدوا فيه الكثير من حياتهم ورجالهم واستقرارهم ومحاولة تسخيرهم للعمل مع الجيش للمساعدة في فتح الأقاليم الأخرى فيه من الإذلال أكبر وأعظم فقد استعمل الشدة والضرب لجمعيتين باستغلال الأمين لضرب سنار وقد زود حيث لم تستسلم هذه الدويلات وتقبل هذا الغازي باسم الاسلام إذ كان منة لقبها في أمة دمه لا يحق بعد أن يغذوا مسلما

إرسال عدد عظيماً من أبناء السودان لتجنيد في جيش الخديوي وإرسال الآف الأبقار والجمال لمساعدة سياسة الخديوي في تحقيق أحلامه لخلق جيش قوي يحفظ النظام داخل مصر ويساعده على الفتوحات خارجها الأمر الذي قلل من الأيدي المنتجة من الرجال الشباب وكذلك ذهاب كثير من خيراته لجيش الخديوي والمذهب به الذي وضعوا عيشهم بالقوة على الأفراد مستعملين طرق الإذلال والبطش وحتى أدخلوا الكراهية بكل صورها ضد الحكم التركي وفي إشعار تلك الفترة ما يكشف غضب الناس وضيقهم بالحكم التركي

الثورة المهدية

إلتف الناس حول المهدي وهم كارهين لمظالم وجبروت الحكم التركي ذاكرين في هذا الشيخ الخلاص والراحة ولكن كيف الخلاص من هذا الراعي العنيد

إلا بقوة أكبر ووحدة أكبر وكان مالا مفر منه وهو الاحتكام للحرب والتمرد أملين بهذه الثورة الخلاص من ذلك الكابوس إلا أن الحرب إستمرت وشملت البلاد جميعها واشتركت كل القبائل فيها حتى كان النصر للمهدي وأنصاره وقبائل السودان . وظن الناس بانتصار المهدي يعني الراحة والاطمئنان والاستقرار والعودة لحياته الطبيعية بعد هذا التشرد والتغرب عن الديار وفقدان الأهل والأرض والأقارب ولكن المهدي لا ينتظر ليحقق لهم أمانيه إلا أن مرض بعد أن استولى على الخرطوم عام ١٨٨٥ م واستمرت حركة الثورة المهدية من عام ١٨٨٢ إلى ١٨٩٧ م في ثلاثة حروب الأول لإجلاء الأتراك والإنجليز من السودان والثانية لتأديب القبائل الخارجة على طاعة عبد الله التعايشي ثم محاولة عبد الله التعايشي لغـــزو مصر وعودة الجيش المصري الانجليزي لفتح السودان مرة أخرى ثم عودة الانجليز وجيش الخديوي لاعادة النظام وتأديب المتمردين حتى عام ١٩١٦ بالقضاء على ثورة علي دينار

هذه هي مظاهر السياسة للقرن التاسع عشر وما خلفته من فقر وإرهاق لإمكانيات البلاد والناس ولعدد الضحايا الهائل الذي راح من أجل هذه المعارك حتى يبدو للناظر أن هذا القرن كان قرن الظلم والتخلف بالنسبة للشعب السوداني ولكن رغم هذا المظهر الخارجي للكبت والتنكيل إلا أن هنالك قوة أخرى كانت تنمو وهي قوة العقل وذلك باتساع مدارك الفرد العادي واهتمامه بأمور عدة ورؤية شعوب جديدة واحتكاكه بالنظم جديدة إستفاد منها رغم هذا المظهر الخارجي الأسود للقرن التاسع عشر ..

القرن التاسع عشر وعطاءه

رغم ماتعرضت له الديولات السودانية المنتشرة على مساحاته الشاسعة من تجربة وما عانته القبائل من بطش إلا أن هذا القرن كان مفيدا فى توحيد تلك الديولات فى دولة واحدة وتوحيد كل تلك القبائل فى قومية واحدة هى السودان الحديث .

إستقرار السودان فى الادارة الحديثة لمطورة نسبية عن إدارة الشايقية ودارفور وسنار وعرف نظام الإدارات الحديثة .

الازهر فى هذا القرن

كان للازهر أثر كبير على المعرفة فى السودان فى هذا القرن وفيه أنشئت الاروقة السودانية ولطلاب العلم وضمان عيشهم والاعتناء بهم فى عهد بدأ فيه الأزهر يتفتح فى جديد للمعارف العقلية ويشتد نشاطه .

وأول ما وصل إلى السودان من خيرة الأزهر العلماء والقضاة الذى أوسلهم محمد على باشا إلى السودان من خيرة الأزهر والذين كان لهم أثر كبير فى نشر الثقافة الدينية فى البلاد وخلق علاقات عامة واسعة ولم تكن الخرطوم فى ذلك الحين البلد الطيب ذا المناخ التى تسر فهى مدينة جديدة انشأتها الادارة التركية لم يظهر عليها علامات التحضر والمدنية

غير مدينة للجند والذين يخدمونهم وترتبط معيشتهم بوجود هؤلاء الجند والمستخدمين المدنيين الذين يعملون فى دواوين الدولة الجديدة

رغم أن الخرطوم كانت قرية قديمة قبل الفتح التركى يسكنها بعض المزارعين إلا انها لم تكن ذات أهمية تذكر قبل القرن التاسع عشر وخاصة بعد أن سقطت حضارة سوبه على أيدى قبائل الشلك

• • • •

بهنس

معجم البلدان

(أهناس) بالفتح اسم لموضعين بمصر أحدهما اسم كورة في الصعيد الأدنى
يقال لقصبتها أهناس المدينة وأضيفت نواحيها إلى كورة البهنسا . وأهناس هذه
مدينة أزلية وهي قريبة أكثرها وهي على غرب النيل ليست ببعيدة من الفسطاط
وذكر بعضهم أن المسيح عليه السلام ولد في أهناس وبها النخلة المذكورة في
القرآن المجيد (وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا) موجودة
هنا وأن مريم عليها السلام أقامت بها إلى أن نشأ المسيح عليه السلام وسارا
إلى الشام وبها آثار ورقون . وإليها ينسب دحية بن مصعب بن الأصبغ بن
عبد العزيز بن مروان بن الحكم خرج منها على السلطان وقصد الواح وغيرها
ثم قتل سنة ١٦٩ هـ . وأهناس الصغرى في كورة البهنسا أيضا قرية كبيرة .

بهنسا : بفتحتين وسكون السين ونون وألف قلعة حصينة عجيبة بقرب
مرعش وسميساط وبرستاقها هو رستاق كيسوم مدينة نصر بن شبث الخارج .
في أيام المأمون وقتله عبد الله بن طاهر وهو على سن جبل عال وهي اليوم من
أعمال حلب .

البهنسا : بالفتح ثم السكون وسين مهملة مقصور مدينة بمصر الصعيد
الأدنى غرب النيل وتضاف إليها كورة كبيرة وليست على ضفة النيل

وهى عامرة كبيرة كثيرة النخل وبظاهرها مشهد يزار يزعمون أن المسيح وأمه أقاما به سبع سنين .

وبها برابى عجيبة وينسب إليها جماعة من أهل العلم منهم أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن الحسن ابن محمد العطار البهنسى حدث عن يحيى بن نصر الخولانى توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٣١٤ وأبو الحسن على بن القاسم بن محمد بن عبد الله البهنساوى روى عن بكران سهل الدمياطى وغيره روى عنه أبو نصر على بن عبد الله .

. . .

النوبة

وخلفهم أمة يقال لهم علوا بين ملك النوبة وبينهم ثلاثة أشهر وخلفهم أمة أخرى من السودان تدعا تكنة وهم وعلوا عراة لا يلبسون ثوبا البتة إنما يمشون عراة وربما سبي بعضهم وحمل إلى بلاد المسلمين فلو قطع الرجل أو المرأة على أن يستتر أو يلبس ثوبا لا يقدر على ذلك لعله إنما يدهنون إبشارهم بالادهان ووعاء الدهن الذى يدهن به قفة يملأها دهنا ويوكى رأسه بخيط وتعظم حتى تصير كالقارورة فاذا لدغت أحدهم زبابة اخرج من قفته شيئا من الدهن واد دهن به ثم يربطها ويتركها معلقه . وفى بلادهم ينبت الذهب وعندهم يفترق النيل ومن وراء مخرج النيل الظلمة ونوبه أيضا بلد صغير بأفريقيه بين تونس واقليبيا . ونوبه أيضا موضع على ثلاثة إيام من المدينة له ذكر فى المغازى والقرية إيضا ناحية من بحر تهامة تسمى بالنوبه لانهم سكنوها ونوبه أيضا هضبة حمراء بجزيرة الحوأب فى ارض بنى عبد الله بن ابى بكر بن كلاب وفى حديث عبد الله بن جحش خرجنا من مليحة نوبه ذكره الواقدى .

• • •

النوبة

(نوبة) بضم أوله وسكون ثانية وباء موحدة والنوب جماعة من النحل ترعى ثم تنوب إلى موضعها وشبه ذلك بنوبة الناس والرجوع مرة بعد مرة وقال النوب جمع نائب من النحل والقطعة من النحل تسمى نوبة شبهوها بالنوبة من السودان . وهو في عدة مواضع . النوبة بلاد واسعة عريضة في جنوبي مصر وهم نصارى أهل شدة في العيش أول بلادهم بعد أسوان يجلبون إلى مصر فيباعون بها وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه صالح النوبة على اربعمائة رأس في السنة وفيه مدحهم النبي ﷺ حيث قال من لم يكن له أخ فليتخذ أخا من النوبة وقال خير سبيكم النوبة . والنوبة نصارى يعاقبة لا يطؤون النساء في الحيض ويغتسلون من الجنابة ويختتنون . ومدينة نوبة اسمها (دمقلة) (دنقلة) وهي منزل الملك على ساحل النيل وطول بلادهم مع النيل ثمانون ليلة ومن دمقلة إلى اسوان أربعون مسيرة أربعين ليلة ومن دمقلة إلى اسوان الى الفسطاط خمسة ليال ومن اسوان الى اول بلاد النوبة خمس ليال وشرقي النوبة امة تدعى البجة ذكرت في موضعهم وبين النوبة والبجة جبال منيعة شاهقة وكانوا اصحاب اوثان ... والنوبة اصحاب ابل ونجائب وبقر وغنم ومسكنهم جبل عتيق ... دون النيل عن ... العربية وفي بلادهم الحنطة والشعير والذرة ولهم نخل وكروم ومقل واراك وبلادهم اشبه شيء باليمن وعندهم أترج مفرط العظم وملوكهم يزعمون انهم من حمير ولقب ملكهم (كابيل) ويزيد (قابيل) . وكتبه الى عماله وغيرهم من كابيل ملك مقرى ونوبة وخلفهم أمته .

البجاء

(بجاوة) بفتح الواو — قال الزمخشري بجاوة أرض بالنوبة بها ابل فرهة واليها تنسب الابل البجاوية منسوبة إلى البجاء وهم امم عظيمة بين العرب الحبش والنوبة .

البربر

ذكر هشام بن محمد أن جميع عملقة الاصنهاجة وكتامة فانهم بنو افريقس بن قيس بن صيفي بن سبأ الاصغر كانوا معه لما قدم المغرب وبنى افريقية فلما رجع إلى بلاده تخلفوا عنه عمالا له في تلك البلاد وبقوا إلى الآن وتناسلوا .

أسماء قبائلهم :

هوارة ـ امتامة ـ ضريسة ـ مغيلة ـ درشومة ـ ولطيه ومطماطة ، وصهاجة ـ نفزة ـ كتامة ـ كرادة ـ مراتة ـ زبوجة ـ نفوسة ـ لمطة ـ صدينة ـ مصمودة ـ غمرة ـ مكناسة ـ قلبة ـ وارية ـ اتيتة ـ كوميه ـ سخود ـ امكنة ـ خرزية ـ قطفة ـ حيرة ـ براثن ـ واكلان ـ قصدران ـ زرنجى ـ برغواطة ـ لواطة ـ زواوة ـ كزولة .

بربرة

هذه بلاد أخرى من بلاد الحبش والزنج واليمن على ساحل بحر اليمن وبحر الزنج وأهلها سودان جداً ولهم لغة برأسها لا يفهمها غيرهم وهم بواد معيشتهم من صيد الوحوش وفي بلادهم وحوش غريبة لا توجد في غيرها منها الزرافة والببر والكركدن والنمر والفيل ـــ وغير ذلك وربما لا توجد في سواحلهم العنبر وهم الذين يقطعون مذاكر بعضهم بعضا . وقد ذكرت ذلك وسببه فيه في الزنج وذكر الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني اليمني وقال ومن الجزائر التي تجاور سواحل اليمن جزيرة بربرة وهي قطعة من سواحل الزنج ملتحقة في البحر بدنو من نحو مطلع سهيل الى ما شرق عنها وفيهم حاذق منها عدن وقامه حتى المحاط ، وهي جزيرة سقوطرا [illegible] أن عدن [illegible] سمت . [illegible] غير واحد ممن دخل بلادهم [illegible] نوعا من [illegible] يحلبونه ثم [illegible] .

بربرة

هذه بلاد أخرى

المريسة (بفتح اوله وتخفيف الراء وياء ساكنة وسين مهملة — جزيرة فى بلاد النوبة كبيرة يجلب منها الرقيق .

مريسة بالفتح ثم الكسر والتشديد وياء ساكنة وسين مهملة قرية بمصر وولاية من ناحية الصعيد اليها ينسب الخمر المريسية وهى من أجود الخمور وأمشاها .

« والحمار حينما يشرب المريسة لاشك سوف يمشى مرحاً مرحاً فى الخصب والشبع »

ينسب اليها بشر بن غياث المريسى صاحب الكلام مولى زيد بن الخطاب أخذ الفقه عن أبى يوسف القاضى صاحب أبى حنيفة ثم اشتغل بالكلام .

انشدنى أبو القاسم النحوى الاندلسى الملقب بالعلم لبعض المغاربة يهجو البربر .

رأيت آدم فى نومى فقلت له   أبا البرية ان الناس قد حكموا

ان البربر نسل منك قال انا   حواء طالقة ان كان ما زعموا .

مقرى

(مقرى) بالضم ثم السكون وراء والف مقصوره تكتب ياء لانها رابعة من أقرت الناقة تقرى فهى مقرية والمكان مقرى اذا ثبت ماء الفحل فى رحمها : قرية على مرحلة من صنعاء وبها معدن العقيق ؛

(مقرى) بالفتح ثم السكون وراء والف مقصورة تكتب ياء لجيئها رابعة قرية بالشام من نواحى دمشق هكذا وجدناها مضبوطة بخط ابى الحسن على بن عبيد الكوفى المتقن الخط والضبط وكذا نقله ابن عرى فى كتابه والمحدثون واهل دمشق على ضم الميم قال البحترى

أما كان فى يوم الثنية منظر — ومستمع ينبى عن البطشة الكبرى
وعطف ابى الجيش الجواد بكره — مدافعة عن دير مروان أومقرى .

(مقرى) بضمتين وتشديد الراء — بلد بأرض النوبة افتتحه عبد الله بن سعيد ابن أبى سرح سنة ٣١

العلاقى

العلاقى حصن فى بلاد البجة فى جنوب أرض مصر به معدن التبر بينه وبين مدينة أسوان فى أرض فياحة يحتفر الانسان فيها فازوجد فيها شيئا لجزء منه للمحتفر وجزء منه لسلطان العلاقى وهو رجل من بنى حنيفة من ربيعة وبينه وبين عيذاب ثمان رحلات .

كانم

كانم بكسر النون من بلاد البربر فى اقصى المغرب فى بلاد السودان وقيل كانم صنف من السودان وفى زماننا هذا شاعر بمراكش المغرب يقال له الكانمى مشهود له بالاجادة ولم أسمع شيئا من شعره ولاعرفت إسمه قال البكرى بين زويله وبلاد كانم أربعون مرحلة وهم وراء الصحراء فى بلاد زويلة ولا يكاد أحد يصل اليهم وهم سودان مشركون ويزعمون أن هناك قوماً من بنى أمية صاروا اليها عند محنتهم ببنى العباس وهم زى العرب وأحوالها .

. . .

فهرست الكتاب